الشاعر الفلسطيني الشهيد

عبد الرحيم محمود

أو

ملحمة الكلمة والدم

بقلم
الدكتور جابر قميحة
كلية الألسن - جامعة عين شمس
بالقاهرة

الطبعة الأولى

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

إهداء

الى فلـذات كبـدى :

لميـاء وياسر وحنـان وعبـير وسـامح

محبـة ودعـاء ٠

تقديم



عرفته شعرا قبل أن أعرفه شاعرا ، عرفته قـولا قبل أن أعرفه رجلا وانسانا ... ففى اواخر الأربعينيات ــ ونحن تلاميذ فى السنة النهائية من المرحلة الابتدائية ــ كنا نتغنى بتلك الكلمات الرنانة القارعة :

ســاحمل روحى على راحتى والقى بهـا فى مهاوى الردى

وكنا نردد هـذه الكلمات دون أن تنسب الى قائلها ، ولو نسبت فلن يغنى ذلك شيئا ، فما كان منا أحـد ــ فى هـذه السن ــ يعرف من هـو عبد الرحيم محمود ، وما كان اساتذتنا يقفون طويلا أو قصيرا الا عند الأسماء المتوهجة من امثال احمد شوقى وحافظ ابراهيم ٠

كانت مأساة فلسطين فى تلك الأيام فى بداية نضجها المنكود ، وولدت اسرائيل بعـد مخـاض اشترك فيه الاسـتعمار والصهيونية والصليبية العالمية والتقاعس العربى ، وظلت أبيات عبد الرحيم محمود رنينا فى أذنى ذا عبق خاص ونكهة غريبة تختلف عما أجـده فى شعر الحماسة والوطنية الذى كنا نحفظه فى هـذه المرحلة[1] . ولكن أسر البيت الأول كان اقـوى

---

(١) كانت المرحلة الابتدائية أربع سنوات تليها المرحلة الثانوية خمس سنوات ويحصل الطالب فى نهـاية المرحلة الأولى على الشـهادة الابتدائية ، وفى السنة الرابعة من المرحلة الثانوية يحصل على « شهادة الثقافة العامة » وفى السنة الأخيرة يحصل على « الشـهادة التوجيهية » التى تؤهله للالتحاق بالجامعة ٠

من تأثير البيت الثانى فى نفسى ... كنت أتحدث الى نفسى قائلا : حياة تسر الصديق ... نعم . ولكن « ممات » يغيظ العدا !!! كيف ؟؟ !! .. كيف والأعداء يسرهم أن يموت كل مواطن مناضل وكل مكافح شريف ؟

ثم تمر الأيام واكتشف المعنى الكبير الخالد فى مثل هذا الممات الذى يغيظ الأعداء ويسوءهم ، بل ويزلزل أركانهم ويقوض بنيانهم ، انه الموت « الخالق البناء » الموت المشيد المعلى .. الموت الباعث الناشر ، هو الموت الذى كثف شوقى مفهومه الضخم فى قوله :

ولا يبنى الممالك كالضحايا ولا يدنى الحقوق ولا يحق
ففى القتلى لأجيال حياة وفى الأسرى فدى لهم وعتق[2]

انه مفهوم علوى يسبح فى آفاق قوله تعالى « **يخرج الحى من الميت** » .. نعم .. لابد من موت شريف عظيم لتولد حياة شريفة عظيمة ... حياة تنبض بالقوة والحق والثبات ، ولو مات مثل هذا « الموت » ، « لماتت » مثل هذه الحياة ، وبذلك استطعت أن أسبح فى هذا الأفق بوجدانى قبل أن أعيشه بعقلى ، ثم اهتدى للتفسير الذى كفانى وشفانى لذلك « الموت الذى يغيظ العدا » ، وعرفت كيف تنتصر « الحياة » بمثل هذا « الموت » . وعرفت أن الحقيقة التاريخية التى لا تنطمس تتلخص فى ان الانتصارات الكبرى تعتمد على هؤلاء الذين تقدموا الصفوف ، وقادوا الرجال ، وجادوا بالنفوس ، ومضوا فى التاريخ شعلات وقدوات وأسوات ... تتفجر منها حيوات خالدات ... تبنى وتعلى ولا تموت .

كان هذا هو اللقاء الأول بعبد الرحيم محمود ... فى بيت أو بيتين أو أبيات من الشعر الذى كنا ننشده ، وكأنه مجهول القائل . ولكن كان هناك فى ضمير الغيب قدر للقاء ثان على نحو أعمق وأوفى .

* * *

---

(٢) الشوقيات ٢/٧٧ .

كان هـــذا اللقاء الثانى بعـــد ذلك بقرابة ربع قرن ، وعلى سبيـــل التحـــديد فى الهزيع الأخير من سنة ١٩٧٣ . كنت أعمـــل فى الكويت آنذاك معارا من الحكومة المصرية ، وفى كتاب الأدب والنصوص المقرر على الصف الرابع الثانوى[٣] قرأت بحثا من قرابة ثلاثين صفحة عن « أدب المقـــاومة الفلسطينية » كان الموضوع يقرر لأول مرة ، وشعرت بينى وبين نفسى بالارتياح : لأن تقرير مثل هـــذا البحث يعـــد « كسرا » للطابع التقليدى الذى ظـــل يسيطر على موضوعات الأدب فى الكتاب المدرسى طيلة الأعـــوام السابقة . كما أن تقـــديم بحث طويل فى موضوع واحـــد كان فى ذاته شيئا جـــديدا يحرر الطلاب ، ويخرج بهم من أسر الملخصات التى أفسدت أذواقهم ، وبلدت أحاسيسهم . وقرأت البحث ليتحول ارتياحى له وسعادتى به الى شعور حاد بالأسى والفجيعة ... ان كاتب هـــذا البحث سقط ضحية حماسته الجارفـــة لموضـــوعه ، فجرفته هـــذه الحماسة بعيدا جـــدا عن « الوقار العلمى » ، فقـــد حرص الكاتب من اول سطر أن يغرس فى نفس قارئه انطباعين غريبين .

الأول : أن ادب المقارمة ـــ واعلى نماذجه فى رأيه شعر الثلاثى محمود درويش وسميح القاسم وتوفيـــق زياد ـــ ادب منبت الصـــلة عن الآداب السابقة ، وكأنه انخلق من العـــدم ، وولد بلا نسب .

والثانى : أنه ادب يعـــلو ولا يعلى ، أدب فائق لا نقص فيـــه ، ولا مأخـــذ عليه ، أدب متفوق على كل الآداب السابقة واللاحقة .

وبلغت هـــذه الحماسة حـــد التزوير والتزييف والتلاعب بمادة البحث حرصا من الكاتب على دفع الحرج عن نفسه ، وعن شعر المقاومة ، واجتزىء بمثال واحـــد :

أورد بحث الكتاب المدرسى جزءا من قصيدة سميح القاسم (أتحدى) على النحـــو التـــالى :

---

(٣) المرحلة الثانوية فى الكويت أربع سنوات .

واقتــلونى اتحــدى
اقتــل المــوت
وآتيــكم حيــاة تتحــدى

مع أن هــذا الجزء من هــذه القصيدة جاء فى ديوان سميح القاسم « قرآن الموت والياسمين » جاء على النحو الآتى :

واقتــلونى اتحــدى
أقتــل المــوت
وآتيــكم الهــا يتحــدى

ومن فضول القول أن أقرر أن استبدال كلمة « حياة » بكلمة « الها » — بصرف النظر عن هــدف الكاتب — يعــد تمردا على ابسط قواعــد المنهج العلمى ، مع تسليمنا بأن استعمال الشاعر لكلمة « الها » فى هــذا المقام ، وبهــذه الصورة لا يتفق مع أدب الحــديث عن الله[4] .

❋ ❋ ❋

وغير هــذا وذاك كان فى البحث سقطات موضوعية فادحة ، منها — على سبيل التمثيل : الفصل النوعى الحــــاد بين أدب التحرير العربى (السابق على أدب المقاومة ؟ وأدب المقاومة الفلسطينى ، مع أن هــذا الفصل النوعى الحاد الذى شاءه المؤلف يصطدم بواقعين :

الأول : واقع تاريخى خلاصته أن فلسطين جزء لا تيجزأ من الوطــن العربى . والصهيونية انما نمت وربت فى ظــل الاستعمار العالمى ، وتغذت بلبان الاستعمار الانجليزى الذى كان ذا وجــود فعلى فى أوطان عربيــة أخرى ، وان اختلفت درجة المعاناة من وطن عربى الى آخر . والاستعمار

(٤) انظر : جابر قميحة : لكى لا تحرثوا فى البحر : مقــــال بمجلة الرائد الكويتية ١٣ من ديسمبر ١٩٧٣ .

فى شتى أسمائه يمثل جوهرا واحدا ، وان تكيفت صوره واساليبه اتساقا مع درجة القابلية ، وانطلاقا من الفرص المتاحة والثغرات المفتوحة .

وقد كان التخطيط الاستعمارى دقيقا بارعا حتى تجمعت كل الشرائط والعوامل المطلوبة لانضاج المأساة الفلسطينية فكان ذلك المسخ غير الشرعى اسرائيل .

هذا هو الواقع التاريخى أما الثانى فواقع فنى وموضوعى ، فالدراسة الواعية المحايدة لشعر المقاومة تخلص بنا فى النهاية الى أنه يتفق مع شعر التحرير فى « المنبع الملهم » وفى كثير من المضامين الثورية والانسانية ، وان اتخذ شعر المقاومة فى كثير من قصائده وجهة ماركسية والحادية حادة .

* * *

ومن هذه السقطات كذلك ما ذهب اليه الكتاب المدرسى من أن رفض الهزيمة وتحديها كان سمة تميز ادب المقاومة ، أما بعض شعراء التحرير فقد « ركبهم اليأس ، واستحوذ عليهم تشاؤم أسود قاتم ، فسمعنا رنة اليأس ، وأنين الانسحاق »(٥) .

والمفروض أن يكون التفريق على أساس الظواهر الموضوعية والفنية الغالبة لا السمات القليلة او النادرة . والواقع أن الروح الآملة ، والتطلعات التى تستشرف النصر لم تكن سمة انفرد بها شعر المقاومة ، بل كانت هذه الروح متغلغلة — فى قوة ووضوح — فى شعر التحرير السابق على النكسة والمزامن لها سواء أكان ذلك داخل فلسطين أو خارجها .

وكان على الكاتب أن يفرق بين رنة الحزن وأنين الانسحاق ، فليس من الضرورى أن يتلازما ، فقد يبدو الشاعر حزينا ، ولكنه غير انهزامى وغير

---

(٥) كتاب الأدب والنصوص ٢٧١ .

منسحق . ورنة الحزن — لا أنين الانسحاق — كانت قاسما مشتركا بين الجميع : شعراء التحرير وشعراء المقاومة ، وهـذا الاتجاه كان نتيجة طبيعية تمخضت عنها أحـداث النكبة بكل فصولها . وقـد تبدو رنة الحزن قريبة من الندب المستسلم المنهار فى بعض قصائد شعراء المقاومة ، كقصيدة « خائف يا قمر » لتوفيق زياد[6] .

* * *

ويذكر الكتاب المدرسى — وهى سقطة من سقطاته ايضا — ان أدب التحرير لم يستدرج الى معركة فرضت عليه فرضا ... ولم يخض المعركة ، ولم يكتو بنارها ، واكتفى بأن صورها من الخارج ، وشتان ما بين هـذا التصوير الداخلى للمعركة الذى يبرز بروزا واضحا فى شعر المقاومة حيث الشاعر جندى فى ساحة القتال .... »[7] .

وواضح أنه تفريق لا يقوم على أساس سليم ، فالأدب الذى يستدرج ، أو يدفع به لا يسمى ادبا ، كما ان معيار التفضيل بين الأدبين على اسـاس التصوير من الخارج أو الداخل معيار غير دقيق لأن مرجـع التفضيل هـو الأصالة الفنية ، والصدق الشعورى ، وبراعة الأداء بغض النظر عن مكان الشاعر فى الأرض التى ينطلق منها ..

والشاعر الموهـوب قـد يتمثل التجربة بالتصور الخـلاق والخيال البارع ، وينفعل بها ولها اكثر من شاعر مارس التجربة واكتوى بنارها فى واقع الحياة ولكنه كان ضعيف الاداة ، محـدود الشاعرية ، ضيق المدى .

وتصوير شاعر المقاومة مناضلا يرفع السلاح فى ساحة القتال فيه مبالغة بل مخالفة للواقع ، فلم نسمع بواحـد منهم خاض معركة حقيقية

---

(٦) أنظر ديوان توفيـق زياد ٩٣ . وانظر جابر قميحة : « بحث مشوه » مقال فى مجلة الرائد الكويتية (ص ١١ – ١٦) العـدد ١٥٧ – السنة الرابعة ١٩٧٣/١١/٢٩ .

(٧) الكتاب المدرسى ٢٧٤ .

كعبد الرحيم محمود مثلا . ومن شعراء التحرير المقاتلين من اكتوى بنـار الصراع والكفاح ضـد المستعمر أكثر ممـا لاقى ثلاثى شعر المقاومة . وما عاناه شـاعر من شعراء التحرير كالبارودى فى منفـاه كان أضعاف أضعاف ما لاقاه سميح القاسم فى معتقله بالأرض المحتلة سنة ١٩٦٩ .

على أن من الشعراء الفلسطينيين فى المهجر من استطاع أن يصور المـأساة ، ويعبر عن روح الاصرار والتحـدى الصارم . من الخـارج بعطاء شعرى يفوق كثيرا ما قـدمه ثلاثى المقاومة « من الداخل » ، واذكر فى هـذا المقام باعتزاز الشاعر هارون هاشم رشيد الذى تحولت كلماته الى أغان جماهيرية تلهب المشاعر ، وتفجر الوجـدان .

* * *

وفى سبيل الانتصار لشعر المقاومة — وخصوصا شـعر الثلاثى درويش والقاسم وزياد — يحاول الكاتب ان يعمل معوله فى « اشـعار الآخرين » حتى ينفرد شعر المقاومة باليد الطولى والقـدح المعلى : فالشعراء الفلسطينيون فى المهاجر اصابهم « التشرذم العقائدى » مما جعل لهم « أصواتا متعـددة » أما شعراء المقاومة « فلا نسمع لهم الا صوتا واحـدا هـو صوت المقاومة »[٨] .

وهـو حكم مجانب للواقع ، فالذى يقرأ ما نظمه شعراء المقـاومة يطرق سمعه اصوات متعـددة : فقـد غنوا للأرض والحرية ، وتغنوا بالحب والمرأة ، كما تغنوا بالمـاركسية والالحاد . بل ان ديوان محمود درويش « عصافير بلا أجنحة » لم يخل من التفجر الشهوانى المغرق فى الحمـأة الجنسية ، ومن ذلك قصيدة « هى واشعارى » ص ٧٠ ، و « رسـالة أنثوية » ص ٧٧ . و « حكاية » ص ٨٥ ، وفيها يقول على لسان عشيقته تحكى لأختها :

---

(٨) الكتاب المدرسى ٢٨٦ .

اختـــاه غيبنى ولم ادر
كيف ارتميت على يديه وذاب فى صدرى
لم يكفه يا أخت لم يكف
بل راح فى لهـــف
ليطفىء رعشة النهد الذى بالنار يلتحف
والنار يا اختاه تعترف
وغـــدا ينقط من مزيج النار بالحلب(٩)

فالقول اذن بأن ثلاثى المقاومة لم يكن لهم الا صوت واحـــد قول لا يعبر من رؤية حقيقية لواقع هـــذا الشعر .

* * *

ويتهم الكتاب الشعر الفلسطينى فى المهاجر بأنه وقف موقفا ســـلبيا من القضية الفلسطينية فاكتفى بالبكاء ووصف شـــقاء اللاجئين والانفصال الوجـــدانى بينه وبين أبناء فلسطين داخل الأسوار ، ومن ثم فشل فى تكوين الوجـــدان المقاوم بعكس شعر المقاومة الذى نجح نجاحا باهرا لاتخـــاذه موقفا ايجابيا فاعلا(١٠) .

وتلك اغلوطة اخرى من أغاليط الكتاب ، لأن شعر المقاومة — فى نماذجه العليا — ليس بدعا فى نوعه ومضامينه الوطنية والانسانية ، فمن السهل علينا ن نجـــد جـــذوره فى شعر السابقين من أمثال ابى سلمى وطـــوقان والعبـــوشى .

ولم يقف شعراء فلسطين فى المهاجر موقفـــا سلبيا من القضية ، ولم ينفصلوا بوجـــدانهم عن اخـــوانهم ، ولم يكتفـــوا بالبـــكاء على الأرض

---

(٩) انظر جاثر قميحه (بحث مشوه) الرائد ١٩٧٣/١١/٢٩ .
(١٠) الكتاب المدرسى ٢٨٦ .

السلبية واهلها المشردين . ونظرة عجلى الى واحـد من هؤلاء وهـو هارون هاشم رشيد فى ديوانه « مع الغرباء » يؤكد ذلك ، ففى الديوان قرابة أربعين قصيدة تتفجر بالحزن والألم والانفعال الصـادق ، كما تتدفـق بالاصرار الايجابى ، والعزم الوثاب والأمل الباسم فى عودة ظافرة على طريق العرق والدم والكفـاح .

ودواوين ابى سلمى التى نظمها فى المهاجر مثل « أغنيات بلادى » و « من فلسطين ريشتى » يسرى فى اعطافها روح الحب والاصرار والأمل الواثق ، وتبلغ به رؤيته الشعرية غاية الابداع حين يستقطر من الألم املا ، ويستخلص من غيوم الدموع ابتسامات تفاؤل مشرقات . يقول ابو سلمى فى قصـيدته « درب الهـوى »[11] .

سنلتقى فى الشعر لـولاه لم	**تشبع عينـاك ولم تشـفقى**
وفى النسـيمات التى شردت	**من ربوات القـدس والجرمق[12]**
سنلتقى ما فوق ارض الحمى	**ننثر من انفاسـنا ما بقى**
فى الكرمل المحزون بعد النوى	**على رمـال الشاطىء الأزرق**

＊ ＊ ＊

ويطول بنا المسار لو رحنا نفند كل ما جاء فى بحث « ادب المقاومة » فقد تكفلنا بذلك فى ثلاث مقالات طويلات[13] . ولكن السؤال الذى يطرح نفسه — وله الحق — هـو : وما علاقة ذلك بعبد الرحيم ؟ وما علاقة ذلك ببحث يكتب عنـه ؟ وخلاصة الجواب أن كل أولئك قادنى الى اللقاء الثانى بالشاعر الشهيد بعد قطيعة ربع قرن من اللقاء الأول .

---

(١١) من ديوان اغنيات بلادى (الأعمال الكاملة) ١٨٥ .

(١٢) الجرمق : جبل فى شمال فلسطين .

(١٣) نشرت بمجـلة الرائد الكـويتية (١٩٧٣/١١/٢٩) ، (١٩٧٣/١٢/١٣) ، (١٩٧٤/٢/٧) .

كان اللقاء الأول بين « تلميذ معجب » وشاعر لم أتعرف عليه ، وان رن فى أذنى صوته وفى قلبى صـــداه . أما هـــذه المرة فكان لقـــائى به لقـــاء دارس منصف رأى ركاما هائلا يهال عليه وعلى رفاته من أمثال أبى سلمى وابراهيم طوقان ليبنى على قبورهم قصر يهنأ بالعيش فيه شعراء المقاومة . ورأيت من الانصاف العلمى فى ابان ذلك أن أسجل كلمة الحـــق عن هـــذا الشاعر فكان المقال الثالث بعنوان « قمة لا تنحنى ولا تحيد »[١٤] . وكان هـــذا الهزيع الأخير من سنة ١٩٧٣ هـــو بداية قراءات جادة فى الأدب الفلسطينى بعامة والشعر الفلسطينى بخاصة ، وداعبت خاطرى فكرة تأليف كتاب عن الشاعر ، وللأسف حالت حـــوائل ، ووقفت عقبات لا يتسع المقام لشرحها ، ولكن الفكرة ما غابت الا لتظهر ، وما هـــدأت الا لتتردد وتثور ، الى أن ذلل الله الصعب ، وهيأ السبيل ، فكان هـــذا اللقاء الثالث فى هـــذا الكتاب المتواضع : « الشاعر الفلسطينى الشهيد : عبد الرحيم محمود أو ملحمة الكلمة والدم » .

وقـــد يبدو العنوان طويلا ، ولكنى مقتنع بأنه برىء من الغـــلو والاسراف : فتاريخ الشاعر صنعته نقطتان : نقطة حبر خط بها « الكلمة » ، ونقطة دم سجل بها التضحية والفـــداء ، ومن تعانق النقطتين وتلاحمهمـــا الصادق كانت « الملحمة » الحية النابضة « ملحمة الكلمة والدم » التى اسمها فى سجل فلسطين : عبد الرحيم محمود .

* * *

وفى طريقى الى هـــذه الدراسة كان لقائى :

بالديوان فى طبعته الأولى التى رأت النور سنة ١٩٥٨ .

وبالديوان فى طبعته الثانية التى صـــدرت سنة ١٩٧٤ ، وكان القائم على أمرها الدكتور كامل السوافيرى ، وقـــد صـــدرها بدراسة عن الشاعر .

---

(١٤) الرائد : ١٩٧٤/٢/٧ .

وبكتاب : الشاعر عبد الرحيم محمود ، وهو أطروحة جامعية كتبها الأستاذ نافع عبد الله ، وصـــدرت فى دبى سنة ١٩٧٩ .

وبكتاب : شاعران من جبل النار للأستاذ وليد صادق جرار . وقـــد صـــدر فى عمان فى أبريل ١٩٨٥ .

وكتاب : الشاعر عبد الرحيم محمود بطل معركة الشجرة . وقـــد صـــدر فى بغـــداد فى مايو ١٩٨٥ للأستاذ رشيد جبر الأسعد .

عـــدا عشرات من المراجع سجلتها فى آخر الكتاب .

* * *

وقبل ان أبدى رأيا لابد منه فى هـــذه الكتاب اقرر أننى أعـــدت كتابة هـــذا البحث او أغلبه بعـــد أن انتهيت تقريبا من كتابته فى مدينة اسلام آباد معتمدا على المراجع التى حملتها من القاهرة ، ومراجع أخرى أمدتنى بهـــا منظمة التحرير فى اسلام آباد . أما شعر الشاعر فكان مصدرى الرئيسى وعمدتى فيه ديوان عبـــد الرحيم فى طبعتـــه الثانيـــة التى قـــدمها الدكتور السوافيرى ، وهو يزيد على الطبعة الأولى بعشرات من الأبيات .

وقبـــل عـــودتى الى القاهرة فى أواخر مايو سنة ١٩٨٦ لقضاء عطـــلة الصيف وصل الى عن طريق البريد من أحـــد أصـــدقائى فى العراق كتاب رشيد الأســـعد ، ولكنى لم أجـــد فيه ما هـــو حرى بالتقـــدير غير بيتين من الشعر لعبـــد الرحيم محمـــود . لم أجـــدهما الا فى هـــــذا الكتـــاب ، وعبد الرحيم يخاطب فيهما المرأة العربية قائلا :

يا ابنة العرب حطمى الأغـــلالا ارفعى الصوت واطلبى استقلالا
وافتحى مقلتيك للنـــور وامشى فى طريق الجهاد فالليل طالا(١٥)

(١٥) رشيد الأسعد : بطل معركة الشجرة ٧٢ .

وبعـــد عـــودتى الى القاهرة علمت صدفة أن الطيب عبد الرحيم الابن الأكبر للشاعر الشهيد هـــو الممثـــل الدائم لمنظمـــة التحرير الفلسطينية بالقاهرة ، وقـــدم الرجل الى من المراجع العزيزة ما جعلنى أغير رأيى فى كثير من الوقائع ، وأرجع عن كثير من الأحكام التى كنت قـــد أوردتها كأنهـــا بديهيات مسلم بها ، وأخص بالذكر مرجعين بهما من شعر عبد الرحيم مئات من الأبيـــات لم ترد فى الطبعتين السابقتين للديوان وهما كتـــابا الأستاذين : نافع عبد الله ووليد صادق جرار .

واعترف بأن اكتفائى بما جاء فى طبعة الدكتور السوافيرى من شـــعر قادنى الى كثير من الأحكام التى اكتشفت غلطها بعـــد رجوعى الى الكتابين الســـابقين :

— فليس فى الديوان بيت واحـــد يمثل رؤية خاصة للشاعر فى الأوضـــاع الاجتماعية أو السياسية فى العراق .

— وليس فيه بيت واحـــد عن المرأة العربية مناضلة مكافحة .

— وليس فيه بيت واحـــد يدل على تفاعل الشاعر مع الوطن العربى وكفاحه وآلامه وآماله .

— وليس فيه بيت واحـــد فى واحـــدة من المناسبات الاسلامية مثل الهجرة ومولد النبى عليه السلام .

— وليس فيه بيت واحـــد يتغنى فيه بأية قيمة من القيم الاسلامية وهـــو الذى عايش كبارا متدينين وعلماء أفاضل كالشيخ عز الدين القسام وعبد الرحيم الحاج محمد والشيخ محمود حنون .

— وليس فى الديوان ما يدل على تفاعل الشاعر مع طلابه ، أو المهنة التى عاش يعشقها ويحبها ويتمنى الشهادة فى ساحها أو ساح القتال .

وكل ذلك ــ لو اخــذناه بظاهره ــ لقادنا الى احكام خطيرة مؤداها ان الشاعر ــ وان كان له شعر فلسطينى وطنى ــ عاش بمعزل عن مجريات الأمور فى الوطن العربى ، وعاش وبينه وبين الواقع الدينى فى صوره المثلى وأيامه العظمى حوائل وفواصل وجفاء . وعاش دون أن يتعمق الرســالة التربوية التى نهض لأدائها معلما ، وعاش متقوقعا فى الوطنية المحلية ، او بتعبير آخر : عاش « شاعرا فلسطينيا » أكثر منه « شاعرا عربيا » .

هــذا اذا اكتفينا بالتعامل مع « البضاعة القليلة » التى قــدمها الدكتور السوافيرى من شعر الشاعر ، وهــو الديوان فى طبعته الثانية . واكرر الاعتراف بأننى هــويت الى بعض هــذه الأحكام قبل أن أعــدل عنها بعــد أن انكشف لى وجــه الحقيقة سافرا باطــلاعى على شعر جــديد للشاعر جاء فى كتابى نافــع وجرار وغيرهما .

ولن أتعرض هنا للأخطاء التاريخية التى وقع فيها الدكتور السوافيرى فى دراسته عن الشاعر فيما يتعلق بمدة دراسته فى كلية النجاح ، ومدة بقائه فى العراق فقــد تكفل نافع عبد الله بتصحيح هــذه الأخطاء(١٦) .

* * *

اما الدراسة التى قــدمها نافع عبد الله فمن اهم ملامحها ومزاياها :

١ ــ أن الباحث لم يكتف بالمراجع المكتوبة ، بل لجأ فى ترجمته للشاعر الى « المصادر الحية » ... الى آله وتلاميذه وأصدقائه ، واستقى منهم كثيرا من اخباره وبعض أشعاره .

٢ ــ لم يعــدم الكاتب روح الصبر والاســتقصاء فى تحقيق بعض جوانب حياة الشاعر وبخاصة مرحلة التلمذة .

٣ ــ الحق بالدراســة ديوانا للشــاعر ، وهــو يزيد على ما جمعــه السوافيرى بمئات الأبيات كما سنفصل فى الفصل الثالث .

---

(١٦) انظر : الشاعر عبد الرحيم محمود لنافع عبد الله ٨٥ .

٤ — نشر — ربما لأول مرة — نثرا لعبد الرحيم محمود يتمثل فى رسالة موجهة منه الى أستاذه وصديقه ابراهيم طوقان ، ومقالا نقـديا طـويلا فقـدت بعض صفحاته .

ولكن يعيب هـذه الدراسة أمور منها :

١ — الافراط فى التحمس للشخصية المدروسة ، والوقوف بجانبها دائما مما يفقده الحياد العلمى أحيانا .

٢ — اغفال الصورة النفسية أو الداخلية للشاعر : فالترجمة — فى اغلبها — كانت استعراضا أفقيا سطحيا لوقائع حياته ، وان تعمق الباحث بعضها كما ذكرت .

٣ — على أن الدراسة الفنية للشاعر لم تظفر بحقها من الاهتمام ، فكانت فى حاجة الى نفس اطول ، ووقفات اكثر تأنيا . وخصوصا أن الباحث كان بين يديه من بضاعة الشاعر أكثر مما توفر للسوافيرى .

* * *

ونسجل على وليد صادق جرار فى كتابه الذى خص ثلثة تقريبا الشاعر عبد الرحيم محمود المـآخـذ نفسها التى سجلناها على نافع ، لكن وليد جرار يتفوق عليه بما أورده فى دراسته من قصائد جـديدة لم ترد فى الديوان الذى الحقه نافع بدراسته . وبعضها مطولات تنم على طول نفس الشاعر وقـدرته على استيفاء المعنى .

* * *

وبعد هـذه الدراسة بشهر أو بعض شهر صـدر فى بغـداد كتاب من قرابة ثمانين صفحة لرشيد جبر الأسعد بعنوان : الشاعر عبد الرحيم محمود بطل معركة الشجرة » . وهـو دراسة أفقية سطحية فجة للشاعر : حياته وشخصيته ، ولامكان فيها لفن الشاعر . كما أنهـا غاصة بمئـات

الاخطاء النحوية واللغـوية والمطبعية . وليس لهـذا الكتـاب من فضـيلة الا ايراد البيتين اللذين عرضناهما ، وترجع قيمتهما انى أن فيهما مضمونا فكريا جـديدا لا وجـود لمثله فيما بين أيدينا من شعر عبد الرحيم وهـو انفتاحه على المرأة العربية واحتفاله بها ، وايمانه بقـدرتها على مشاركة الرجل فى معركة الحرية . هـذا على ما فيهما من بساطة المعنى وقرب الخيال وعفوية التصوير .

* * *

وقـد عرضنا لهـذه الكتب حتى يتبين للقارىء مناحيها ومناهجها فى البحث ومكانها فى مسيرة الأدب والنقـد ، وحتى يفيد الباحثـون درسـا خرجت به فى تعاملى مع هـذه المراجع — وقـد توفر لى بعضها فى أوقات مختلفة ، وبعضها بعـد ان انتهيت من كتابه بحثى — واعنى بهـذا الدرس ان الباحث يجب ألا يفرط فى الاعتزاز بما كتب مهما كان الجهد الذى بذله فيه فيغفل ما قـد يهدم بعض ما خلص اليه من أحكام ونتائج اذا ما تبين لـه وجه الحق واليقين ، فالحق احق أن تيبع .

* * *

وربما كانت دراستى هـذه اول دراسة « مصرية » فى كتـاب كامل عن الشاعر الشهيد ، وقـد استهللتها بفصل عن قضية العصر . . . قضية فلسطين التى عاش الشاعر لها ، وقضى من أجلها فى ميدان الشرف والفداء ، وبينت موقف الشعر ومدى تفاعله مع هـذه القضية .

وعرض البحث مسيرة حياة الشاعر وصورته بأبعـادها النفسية والعقليـة والروحيـة .

وتحـدث البحث عن « قصة الديوان المظلوم » ديوان الشاعر والمراحل التى مر بها وملامح الديوان فى كل مرحلة من المراحل وكل طبعة من الطبعات . وعلى الرغم من قلة « المـادة النثرية » للشاعر بين أيدينا فقـد حاولت

بقــدر المستطاع أن أستخلص من هــذه المــادة وجهة عبد الرحيم وملامحه الفكرية والفنية فى هــذا الباب .

وكان اهتمامنا الأكبر موجها للدراسة الفنية التى غطت جوانب ثلاثة هى :

١ — آفاقه الشعرية ، والمجالات التى انطلق فيها بشعره ، وحظـه من التقليد والابداع فى هــذه المجالات .

٢ — أبعاده وسماته الفنية وخصائص أسلوبه فى الفاظه وصــوره وعاطفته وموسيقاه .

٣ — ثم كانت موازنة — آمل ان تكون وافية — بينه وبين اســـتاذه وصـــديقه ابراهيم طــوقان .

وخلال كل أولئك ناقشنا كثيرا من الآراء والوجهات التى أبداها الكتاب والنقاد عن الشاعر وشعره . وآمل ان أكون — بهــذا البحث — قــد وفيت بما أردت ، أو بأغلب ما أردت ، وفوق كل ذى علم عليم(١٧) .

د. جابر قميحه

القاهرة — الجيزة — الدقى ٣٣ شارع هارون

---

(١٧) أنبه القارىء الى أن الاحالات الى « الديوان » تعنى الديوان الملحق بدراسة الأستاذ نافع عبد الله فى دراسته عن الشاعر لأنها أوفى من الطبعتين السابقتين . وغير ذلك من الاحالات ينص عليه .

الفصل الأول

الشعر وقضية العصر



هى قضية العصر لا مراء . . . وهى جريمة القرن العشرين التى لم يكن لهـــا مثيل أو شبيه — لا أقـــول فى تاريخ العصر بل أقول — فى تاريخ البشرية كلهــــا .

لقـــد ابتليت الأرض الفلسطينية بنوع من الاستعمار جـــديد غير مسبوق بشبيه ، فالمعروف — من الاستقراء التاريخى — ان الاستعمار يعتمد على احتلال قـــوة عسكرية اجنبية لقطعة من أرض وطن لأهـــداف عسكرية أو اقتصادية ، ويكون ذلك لأمد قصير أو طويل ، ينتهى بخروج هـــذه القـــوة العسكرية من الأرض المحتلة لاستنفاد أغراض الاستعمار ، أو تحت ضغوط قـــوى المقاومة المحلية ، أو تحت ضغوط عوامل عالمية ترتبط بسياسات الدول الكبرى فى نطاق الأحلاف أو التكتلات السياسية والعسكرية مما يخرج تفصيله عن مجال دراستنا .

أما الاستعمار الصهيونى فهو استعمار استيطانى أو سكانى ، هـــو استعمار لا يأخـــذ شكل جيش يقهر الأمة المتخلفة ويحتلها ليستغل امكاناتها الاقتصادية والبشرية لصالح البلد الأوروبى الغازى ، وانما يأخـــذ شـــكل نقل مستوطنين أوروبيين من بلادهم الى البلد الجديد ليعيشوا فيه ، وليتخذوه وطنـــا جـــديدا لهم .

وسمة ثانية للاستعمار الصهيونى هى أنه لم يقم ولم يستمر استعمارا له « كيانه وشخصيته المستقلة » كالاستعمار الانجليزى لمصر ، او الاستعمار الفرنسى للجزائر ، ولكنه كان استعمارا عميلا ، فالصهيونية حينما ظهرت لم يكن لهــا جيش او شعب ، وانما كان عندها « برنامج » فحسب لتوطين اليهود فى فلسطين ... برنامــج تبنته الامبرياليــة ، وســاعدت الحركة الصهيونية فى فرضه على اليهود ، ثم على فلسطين والفلسطينيين ، وبعــد انشاء الدولة الصهيونية رعت الامبريالية هــذه الدولة بدرجة لا نظير لها(١) .

ثم هــو استعمار يرتكز ابتداء على عقيدة دينية ترى فى فلسطين « ارض الميعاد » التى لا تكتمل عقيدة اليهود الا بالعودة اليها ، فاليهود يزعمون « أن لهم صلة تاريخية قــديمة وثيقة بفلسطين تجيز لهم احياء اسرائيل التى قبرت منذ آلاف السنين ، والعودة الى أورشليم »(٢) .

وهــو زعم باطل ، لأن بنى اسرائيل حين خرجوا من مصر مع موسى عليه السلام — واجتازوا البحر الأحمر الى ســيناء دعاهم موسى الى حرب الفلسطينيين فرفضوا ، ثم تاهوا فى سيناء . وبعــد موت موسى ، وحــوالى سنة ١١٨٦ ق.م استطاع اليهود اخضاع بعض المدن بعــد قتال عنيف ومذابح هائلة انزلوها بسكان البلاد الأصليين(٣) ، وقــد بقيت أغلب هــذه البلاد فى أيدى هؤلاء السكان .

---

(١) انظر : د. عبد الوهاب محمد المسيرى : الأيديولوجية الصهيونية : القسم الأول ص ١٦٠ .

وقــد أثبتت صحة هــذه المقولة الجرائم المتعــددة التى دابت اسرائيل على ارتكابها فى بيروت ولبنان بتأييد من الولايات المتحدة ، وآخر هــذه الجرائم الوحشية ضرب مراكز منظمة التحرير الفلسطينية فى تونس ، وتمضى الأحــداث وتأتى تترى لتؤكد أن اسرائيل لا تقف وحدها فى كل ما ترتكبه من جرائم .

(٢) د. كامل السوافيرى : الشعر العربى الحــديث فى ماساة فلسطين ٥٥ .

(٣) جاء فى العهد القــديم :

« حين تقترب من مدينة لكى تحاربها استدعها الى الصلح ، فان اجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ، ويستعبد لك ، وان لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، وان دفعها الرب الهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحــد السيف ، وأما

وانقسم بنو اسرائيل على أنفسهم ، وصاروا شيعا وأحزابا متصارعة متقاتلة بعد موت يوشع بن نون ، ثم تم لهم انشاء مملكة تولى حكمها شاءول ثم داود ثم سليمان . ثم انقسمت المملكة بعده الى مملكتين : مملكة اسرائيل ، ومملكة يهوذا اللتين ظل القتال دائرا بينهما ، الى أن قضى الأشوريون على مملكة اسرائيل سنة ٧٢١ ق.م ، وأحلوا مكان سكانها السامريين من العراق ، كما قضى « بنوخذ نصر » البابلى سنة ٥٨٦ ق.م على مملكة يهوذا ، وهدم الهيكل ، وساق معظم اليهود الى بابل . وخضعت فلسطين بعد ذلك للفرس فاليونان فالرومان الذين تم فى عهدهم القضاء على اليهود سنة ٧٠ م قضاء مبرما ، وحرق قائدهم « طيطس » الهيكل ، وهدم مدينة القدس ، وبذلك خلت فلسطين من اليهود الى أن كان الفتح الاسلامى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه[٤] .

ومما سبق نستطيع ان نستخلص الحقائق الآتية :

١ ــ ان فلسطين عربية من فجر تاريخها ، سكنتها القبائل العربية مثل الكنعانيين سنة ٢٥٠٠ ق.م ، وسميت فلسطين بأرض كنعان نسبة اليهم ، ومن هذه القبائل العربية أيضا الانباط الذين ضمت مملكتهم شرقى الاردن وجنوب فلسطين ، وكانت عاصمتهم « بطرا » التى يسميها العرب « سلع »[٥] .

٢ ــ أن الوجود الاسرائيلى فى فلسطين قبل الميلاد كان وجودا عدوانيا اعتمد على القتل والحرق والقمع ، كما انه كان وجودا طارئا على منطقة عربية باعتبار الأصل .

٣ ــ ان الوجود الاسرائيلى فى فلسطين قديما لم يكن وجودا مستقرا ،

النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاها الرب الك » . سفر التثنية ٢٠ (١٠ ــ ١٥) .

(٤) أنظر : السوافيرى السابق ٥٥ ــ ٥٦ .

(٥) أنظر : د. ناصر الدين الأسد : الاتجاهات الأدبية فى فلسطين والاردن ٨ .

بل خضع للهزاهز والقلاقل والحروب الداخلية بين الاسرائيليين انفسهم الى ان تمت تصفيتهم النهائية على ايدى الرومان كما ذكرنا .

٤ — أن الفتح العربى الاسلامى لفلسطين يعتبر امتدادا او بعثا لحقيقة تاريخية هى « عروبة فلسطين » ، وهى حقيقة طمست او اختفت الى حين على أيدى بنى اسرائيل والفرس والرومان .

* * *

وقــد يستند اليهود فى أحقيتهم « لأرض الميعاد » الى نصوص لاهوتية فى العهد القــديم ، وفى سفر التكوين بصفة خاصة ، وهى نصوص يقــال أنه أوحى بها الى ابراهيم وهو فى ارض فلسطين . ومنها النصوص الآتية :

— وظهر الرب لابرام ، وقال لنسلك أعطى هــذه الأرض[٦] .

— وقال الرب لابرام بعــد اعتزال لوط عنه : ارفع عينيك ، وانظر الموضع الذى انت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا .

— لأن جميع الأرض التى انت ترى لك أعطيها ولنسلك الى الآبد .

— وأجعل نسلك كتراب الأرض ، حتى اذا استطاع أحــد أن يعــد تراب الأرض فنسلك أيضا يعــد[٧] .

ولسنا فى مجال المناقشة التفصيلية لادعاء اليهود وتأويلهم الفاســد لمــا جاء فى العهد القديم ، فمن البدهى — كما يقول الفردجلوم ALFRED GUILLAUME ان المنحــدرين من اســماعيل أيضا لهم الحق فى أن يدعوا من نسل ابراهيم ، وأن يطلقوا هــذه التسمية على انفسهم[٨] .

---

(٦) سفر التكوين : الاصحاح الثانى عشر ، آية ٧ .

(٧) سفر التكوين : الاصحاح الثالث عشر . آيات ١٤ ، ١٥ ، ١٦ .

(٨) عن : الحصاد المر . لسامى هداوى ٣٦ . وانظر كذلك د. حسن صبرى الخولى : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين : ٣٦ وما بعدها .

وقد حسم العهد القـديم(٩) هـذه المسألة مبينا ان المقصود بنسل ابراهيم اسحق واسماعيل ومن يخرج من صلبهما ، كما يظهر من هـذه الآيات الخمس :

— ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذى ولدته لابراهيم يمزح .

— فقالت لابراهيم أطرد هـذه الجارية وابنها لأن ابن هـذه الجارية لا يرث مـع ابنى اسـحق .

— فقبح الكلام جـدا فى عينى ابراهيم ابنه .

— فقال الله لابراهيم : لا يقبح فى عينك من اجل الغلام ، ومن أجل جاريتك . فى كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها . لأنه باسحق يدعى لك نسل .

— وابن الجارية أيضا سأجعله امة لانه نسلك .

والواقع التاريخى — فى المـاضى والحاضر يقطع بأن الوعـد الـذى تحمله الآتية ١ من الاصحاح ١٣ من سفر التكوين بجعل نسل ابراهيم كالتراب كثرة لا يمكن أن يصـدق على اليهود الذين ما زالوا يمثلون فى وقتنا الحاضر أقـل نسبة عـددية بالنظـر الى معتنقى الدينين السماويين الآخرين : المسيحية والاسـلام .

❋ ❋ ❋

وآخر سمات الاستعمار الصهيونى — وربما كان هـذا من العـوامل الأساسية لنجاحه نجاحا لم يكتب لغيره من الألوان الاستعمارية الأخرى — انه « استعمار مبرمج » ان صح هـذا التعبير ، او بتعبير آخر : كان وراءه عقليات خططت له تخطيطا علميا دقيقا يعتمد على الأناة وتعمق الواقـع ،

---

(٩) سفر التكوين ٩ — ١٢ .

واستثمار الأحداث الى ابعد مدى فى سبيل الاستيطان الدائم وانشاء الدولة الاسرائيلية فى أرض الميعاد(١٠) .

ولم تكن المسألة مجرد تخطيطات نظرية بل صحبتها جهود دائبة لا تنقطع على مستوى العالم كله ، منها الظاهر ، ومنها الخفى . وكان أبرز من تولى كبر تنفيذ هذه المخططات « تيودور هرتزل » الذى « يعتبر المؤسس الحقيقى للصهيونية السياسية الحديثة ، واليه يعود الفضل فى انشاء المنظمة الصهيونية العالمية ، لقد كرس العقد الأخير من عمره داعيا الى تنظيم المجتمعات اليهودية ، والتنسيق فيما بينها تحت راية هذه المنظمة ، كما قام بدور رئيسى فى ابراز الصهيونية على مسرح السياسة العالمية ، حيث أخذت الدول الكبرى تبحث فى امكانية التعامل معها كحليف يمكنها استخدامه فى دعم مصالحها الاستعمارية »(١١) .

---

(١٠) انظر « بروتوكولات شيوخ صهيون (ترجمة محمد خليفة التونسى . وقد ترجم الكتاب الى اغلب لغات العالم) وهو يبرز كيف ان الأطماع الصهيونية لا تقف عند حد ، وقد وضعوا المخططات المرحلية لتحقيق هذه الأهداف ولو أدى ذلك الى تدمير العالم والقيم الانسانية والدينية ، وقد بذل الصهيونيون مجهودات طائلة لعدم نشر الكتاب وانتشاره ، ولكن مجهوداتهم باءت كلها بالاخفاق ، وانتشر الكتاب فى كل أنحاء العالم ، وترجم الى عدة لغات منها العربية كما ألمحت آنفا .

(١١) د. أمين عبد الله محمود : مشاريع الاستيطان اليهودى ١٤٣ .

وللحق كان هناك من رءوس اليهود من يعارض بشدة الفكرة الصهيونية ، وفكرة انشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، ومن هؤلاء الحاخام الأكبر « هيرمن ادلر » رئيس حاخامى انجلترا ، وقد عبر عن معارضته بقوله « لقد انتهى وجودنا القومى بعد سقوط فلسطين فى أيدى الرومان ، وأصبحنا مواطنى البلاد التى نعيش فيها ، فنحن ننتمى الى القومية البريطانية أو الفرنسية أو الألمانية رغم تبعيتنا للدين اليهودى ... وان سئلت ما هو المحتوى السياسى لليهودية لأجبت بأن اليهودية هى مجرد دين ، وليس لها اى محتوى سياسى ... » .

[انظر : أبو مازن : الصهيونية بداية ونهاية ٤٨] . كما كان هناك كتاب ومفكرون يهود منصفون مثل الكاتب الأمريكى اليهودى الشهير : موشى مينوهين الذى كتب يقول « كيف أتعاون مع زعماء صهيونيين والحقيقة المرة تواجهنى باستمرار ولماذا نرغم العرب على دفع ثمن جرائم أوروبا من بلادهم وشعوبهم ؟ نحن نمجد أعمالنا البربرية بدلا من أن نزيل الشر الذى ارتكبناه ... » ، أنظر : احمد عباس : القدس ١٤٨ .

وكانت أول خطوة عملية جادة هى عقــد المؤتمر الصهيونى الأول فى مدينة بازل بسويسرا بين ٢٩ ـــ ٣١ من أغسطس عام ١٨٩٧ . وقـــــد حضره ٢٠٤ مندوبين من مختلف الهيئات والمنظمات والجمعيات الصـــهيونية العـــالمية(١٢) .

وجاء تحـــديد المؤتمر لهـــدف الصهيونية الذى كانت تسعى لتحقيقه على النحو التالى « ان غاية الصهيونية هى انشاء وطن قـــومى لليهود فى فلسطين يحظى باعتراف دول العالم ، ويضمنه القانون الدولى »(١٣) .

ولانشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين اقر المؤتمر الصهيونى بنـــود برنامج بازل على النحو التالى :

١ ـــ تطوير ارض فلسطين ، وتشجيع استيطان العمـــــال الزراعيين والصناعيين والحرفيين والمهنيين اليهود .

٢ ـــ تنظيم اليهودية العالمية وتجميعها بواسطة منظمات محلية ودولية تتلاءم مع القوانين المتبعة فى كل بلد .

٣ ـــ تقوية الشعور القومى اليهودى ، والهوية القومية اليهودية .

٤ ـــ اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على موافقة الحكومات حيث يكون ذلك ضروريا لتحقيق هـــدف الصهيونية(١٤) .

وبدات جهود هرتزل دائبة مكثفة فى سبيل انشاء الوطن القومى لليهود فى فلسطين ، وتركزت جهوده هـــذه فى الاتصال برؤساء الدول وقياداتهـــا السياسية لاقناعهم بالمساعدة الجادة لليهود فى تحقيق أهـــدافهم وانشاء وطنهم القومى فى فلسطين ، ومن هؤلاء المستشار الألمـــانى « بسمارك » ، كما قابل القيصر الألمـــانى فى الاستانة عام ١٨٩٨ واقتنع القيصر بما عرضه

(١٢) د. أمين عبد الله محمود : مشاريع الاستيطان اليهودى ١٥٤ .

(١٣) السابق : نفس الصفحة .

(١٤) السـابق ١٥٥ .

عليه هرتزل ، وحاول القيصر اقناع السلطان عبد الحميد الثانى فى لقـــائه معه بتوطين اليهود فى فلسطين ، ولكنه رفض ذلك رفضا قاطعا .

كما التقى هرتزل بالسلطان عبد الحميد الثانى سنة ١٩٠١ ، وداوم الاتصـال بعـــد ذلك ببعض المسئولين العثمانيين ، ولكنه لم يجـــد من كل هؤلاء ما يوحى بالاستجابة لمطالبه أو لبعضها ، فلجأ الى وسيلة خبيثة وهى اثارة اهمية الدور الذى ادعى أن بامكان المستوطنين اليهود فى فلسطين القيام به لحماية الدولة العثمانية من « خطر » الحركة العربية التى كانت تهـــدد باعلان الثورة والانفصال عن جسم هـــذه الدولة[١٥] .

وكذلك رفض عبد الحميد عروض هرتزل باستعداد اليهود لتســديد ديون الدولة العلية ، فأبلغه السلطان اكثر من مرة « ... انى لا أستطيع التخلى عن شبر واحـــد من فلسطين حتى مقابل الملايين »[١٦] .

ومضى هرتزل يتصل بالمسئولين فى بريطانيا وروسيا القيصرية « وعلى الرغم من أن المساعى الرامية لتحقيق استيطان يهودى فى فلسطين فى عهـــد هرتزل لم تكلل بالنجاح الا ان نشاطه المتواصل فى المجال الدبلوماسى انتزع للمنظمة الصهيونية « اعترافا ضمنيا » من اكثر حكومات العـــالم ، بالاضافة الى أنه خلق من « المسألة اليهودية » قضية عالمية اصبحت مثار اهتمام كثير من الحكومات والدول »[١٧] .

وكانت جهوده بذلك خطوات عملية تمهيدية لتحقيق الهـــدف الذى كافح من اجله ، ولم يكتب له النجاح فى حياته ، وتبقى أصول المبادىء والتقاليـــد الصهيونية مدينة فى وجودها لفكر هارتزل الاستعمارى العنصرى[١٨] .

---

(١٥) انظر السابق ١٧١ . وانظر كذلك للدكتور ضـياء الدين الريس مقـالا بعنـــوان « كارثة فلسطين » . مجلة المسلمون العدد ٣ السنة الثالثة .
(١٦) د. امين عبد الله : السابق ١٧٣ .
(١٧) الســـابق ١٨٠ .
(١٨) ZIONISM, IMPERIALISM and RACISM p. 20.

وتمضى الأحداث لاهثة ، وتتوالى الهزائم على ألمانيا وحليفتها تركيا فى الحرب العالمية الأولى ، ويعقد اتفاق « سيكس — بيكو » المشهور بين بريطانيا وفرنسا فى مايو ١٩١٦ ، وهو الاتفاق الذى قسمت فيه دول الوطن العربى بين فرنسا وانجلترا ، وكانت فلسطين من نصيب الأخيرة .

ثم تظفر الصهيونية بوعد بلفور فى ٢ من نوفمبر سنة ١٩١٧ ، وهو الوعد الذى ينص على أن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين ، وسوف تبذل أقصى جهودها لتسهيل تحقيق هذه الغاية(١٩) .

واحتلت بريطانيا القدس بقيادة اللنبى فى ٩ من ديسمبر سنة ١٩١٧ ، وجعلت منها مقرا للحاكم العسكرى البريطانى .

* * *

وكان وعد بلفور لطمة عاتية للشعب الفلسطينى وأمانيه القومية ، لذلك هب شعراء فلسطين يندون بهذا الوعد الغاشم الذى أبان فى وضوح عن النوايا السيئة للانجليز . يقول الشاعر محيى الدين الحاج :

كم كان وعدك يا بلفور مشأمة … أعوذ بالله من شؤم المواعيد
دون البلاد وتهويد البلاد كما … يرون عزم أباة غير مردود
وأمة وثبت تحمى حقيقتها … فى ذا الوجود ولا ترضى بموعود
فالله يشهد والتاريخ مرتقب … فيه الصحائف من بيض ومن سود(٢٠)

ويقول ابراهيم طوقان فى هذه المناسبة مخاطبا حكومة الإنتداب بشعر يقطر سخرية مرة :

---

(١٩) أحمد عطية الله : القاموس السياسى ١٠٩٢ ، وأنظر كذلك مشاريع الاستيطان اليهودى ٢٧٠ .

(٢٠) عن د. ناصر الدين الأسد : الاتجاهات الأدبية فى فلسطين والاردن ١٠١ .

قــد شهدنا لعهدكم بالعــدالة — وختمنا لجنــدكم بالبســاله
وعرفنا بكم صــديقا وفيـــا — كيف ننسى انتدابه واحتــلاله
وخجلنا من لطفكم يوم قلتم — وعــد بلفور نافــذ لا محاله
كل أفضـــالكم على الرأس والعــــين وليست فى حاجــة لدلالـــه
ولئن ساء حالنـــا فكفـــانا — انكم عنـــدنا بأحسن حاله
غير أن الطريق طالت علينـــا — وعليكم فما لنـــا والاطالـــه
أجـــلاء عن البـــلاد تريدو — ن فنجلــو أم محقنا والازالة[21]

وتلح هــذه الذكرى بكآبتها على وجــدان الشعب الفلسطينى ، وبعد عشرين عاما من هــذا اليوم الكالح المنكود يقول الشاعر مطلق عبد الخالق (١٩١٠ — ١٩٣٧) :

عشرون عاما قد مضين ولم تكن — يا يوم الا ريبــــة المرتاب
أو لست ذا وجهين وجــه باسم — لهم ووجـــه بارز الأنيـــاب
دخلــوا بلادك فاتحـــين فصنتهم — وأذقتنا يا يوم مر عــــذاب
ما أشام الدنيا وذكرك حافـــل — بفواجــع الأشلاء والأسلاب[22]

* * *

وفى ٣ من فبراير سنة ١٩١٩ تقــدم وفــد صهيونى الى مؤتمر الصلح بباريس بمطالب تضمنت الاعتراف بالحــق التاريخى لليهود فى فلسطين ، واقامة وطن لهم فيها ، وتقرير حــدود معينة لفلسطين تشمل جنوب لبنان والاردن والعقبة مع وضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى .

وفى ٢٥ من أبريل سنة ١٩٢٠ قرر مجلس الحلفاء الأعلى وضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى ، وبدأ التنفيذ العملى له فى ٢٩ من سبتمبر سنة ١٩٢٣ . وجاء فى المـــادة الثانية من صك الانتداب :

---

(٢١) ديوان ابراهيم طـوقان ٨٢ ، وانظر قصيدة طـويلة بعنوان « وعـد بلفور » لعبد الرحيم محمود فى ديوانه ١٢٦ . وانظر شعرا فى نفس المناسبة للشاعر ابراهيم الدباغ أورده السوافيرى ص ٢٠٤ من كتابه عن الشعر الحـديث فى ماساة فلسطين .

(٢٢) عن ناصر الدين الأسـد : السابق ١٧٠ .

« تكون الدولة المنتدبة مسئولة من وضع البـلاد فى أحـوال سياسية وادارية واقتصادية تضمن انشاء الوطن القـومى اليهـودى ، كما تضمن الاعتراف بقيام وكالة يهودية تكون بمثابة حكومة يهودية داخـل حكومة الانتـداب » .

وكانت أول حكومة للانتداب برياسة الوزير « هربرت صموبل » ، وقد حرصت حكومته على تنفيذ المخطط الصهيونى الذى تضمن اعتبار العبرية لغة رسمية ثالثة ، وتيسير نقل ملكية الأرض الى اليهود ، وتسهيل الهجرة اليهودية فى ظـل القانون(٢٣) .

وكان صمويل يرى أن النفوذ الانجليزى يجب عليه ان يقوم بدور مهم فى تأسيس الدولة اليهودية لان وضع فلسطين الجغرافى وقربها من مصر يجعل صداقتها لانجلترا أمرا له أهميته للامبراطورية البريطانية ، فضم فلسطين الى الامبراطورية البريطانية مع تشجيع الاستعمار اليهودى والتقدم الثقافى عمليا هـو أحسن حل(٢٤) .

والذى يقرأ صك الانتداب الذى اقرته عصبة الأمم المتحدة ببنوده الثمانية والعشرين يخرج بانطباع قوى مؤداه أن حكومة الانتداب ما احتلت فلسطين الا لتحقيق مهمة أساسية هى اقامة الدولة الصهيونية ، وكان من أهم البنود ــ زيادة على ما ذكرناه ــ النص على أن تسهل حكومة الانتداب هجرة اليهود فى احوال ملائمة ، وأن تشجع بالتعاون مع الوكالة اليهودية حشد اليهود فى الأراضى الأميرية والأراضى الموات غير المطلوبة للمقاصـد العمومية . كما نص على تسهيل اكتساب الجنسية الفلسطينية لليهـود الذين يتخـذون فلسطين مقاما دائما لهم(٢٥) .

* * *

---

(٢٣) انظر عطية الله : السابق ١٠٩١ – ١٠٩٢ .

(٢٤) انظر : الوثائق الرسمية فى قضية فلسطين ٧٤ (الجامعة العربية . القاهرة ١٩٥٧) .

(٢٥) انظر : عطية الله : السابق ١٠٩٤ .

وبدأت موجات عاتية من الهجرة اليهودية ، وكان واضحا أن الهــدف من تهجير اليهود الى فلسطين بأعــداد كبيرة خلق تفــوق عــددى على عدد الفلسطينيين العرب ، فاذا ما دعم بالمــال والسلاح والعلم ووسائل العمل تحقق معه تفــوق كيفى ، وكل أولئك لانشاء دولة اسرائيل التى خطط لانشائها من عشرات السنين ، والتى سعى هرتزل والقوى الامبريالية العالمية لخلقها . ولغة الأرقام تقول : فى عام ١٩١٤ كان مجموع سكان فلسطين ٦٨٩ ألفــا بينهم ٨٤ الف يهودى ، وفى عام ١٩٢٥ بلغ مجموع السكان ٧٦٢ ألفا بينهم ١٥٧ الف يهودى . وفى نهاية عام ١٩٣١ بلغ مجموع اليهود ١٧٥ الف يهودى . وهــذا العــدد يمثل ١٧٪ من عــدد السكان .

وظلت الهجرة اليهودية بطرقها المشروعة وغير المشروعة تغرق فلسطين حتى أصبح عــدد اليهود المسجل رسميا فى فلسطين حتى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ نحــو ٦٥٠ ألف مهاجر ، وبذلك تضاعف عــددهم ١٣ ضــعفا ، وارتفعت نسبتهم الى مجموع سكان البلاد من ٦٪سنة١٩١٨ الى ٣٣٪سنة١٩٤٨(٢٦).

❊ ❊ ❊

ويرفع الشاعر ابراهيم طوقان صوته فاضحا هــذه الهجرة الآثمة التى تهدد فلسطين بالضياع فى قصيدة له بعنوان (١٠٠٠) يقول فيها :

---

(٢٦) Zionism, & Arabism p.76 . وعطيه الله : القاموس السياسى ١٠٩١ ، والسوافيرى : الشعر العربى فى مأساة فلسطين ١٠٢ . وأنظر احصائية مفصلة لعدد اليهود فى فلسطين من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٩٢٢ ، فقد ارتفع على مدى أربعين عاما من ٢٤ ألفا الى ٨٣ ألفا فقط ، وهو رقم متواضع اذا قيس بالأرقام التى تلت هذا العام بعد الهجرات المطردة اذ بلغ عدد المهاجرين اليهود الى فلسطين ٩٩٨٠٦ خلال عشر سنين (من سنة ١٩٢٠ الى سنة ١٩٢٩) ، وفى خلال عشر سنوات أخرى (١٩٣٧ ـ ١٩٤٦) بلغ عدد المهــاجرين اليهود ١٢٢٧٩٦ .

[أنظر وثائق الخارجية البريطانية الوثيقة رقم F ٥٣٧١/٦١٩٣١ عن مجلة العالم العدد ٧٨ ـ ١٠ أغسطس ١٩٨٥ . والعدد ٨١ ـ ٣١ أغسطس ١٩٨٥] واقرأ احصائية أكثر تفصيلا لعدد المسلمين واليهود والمسيحيين والديانات الأخرى فى فلسطين من سنة ١٩٢٢ الى سنة ١٩٤٤ . ص ٤٤ ، ٤٥ من The Palestine Diary vol. Two.

يهـــاجر ألف ثم ألف مهربا ... ويدخل ألف سائحا غير آيب
وألف جــواز ثم ألف وســيلة ... لتسهيل ما يلقونه من مصاعب
وفى البحر آلاف كأن عبــابه ... وأمواجه مشحونة فى المراكب[٢٧]

ويرى أن الانجليز هم أصل النكبة ، وان حكومة الانتداب وراء هــذه الهجرات العاتية فيخاطبهم بقوله :

منذ احتللتم وشؤم العيش يرهقنا ... فقرا وجــورا واتعاسا وافسادا
بفضلكم قد طغى طوفان هجرتهم ... وكان « وعـــدا » تلقيناه ايعادا
واليوم من شؤمكم نبلى بكارثة ... هذا هو الطين والماء الذى زادا[٢٨]

ومع استقرار اليهود بهــذه الأعــداد الهائلة فى فلسطين أخــذوا يبتاعون الأرض على نطاق واسع ، ففى عام ١٩١٨ مثلا لم يكن اليهــود يملكون الا اثنين فى المــائة من مجموع مساحة الأرض . ثم ابتاعوا خــلال السنوات الثلاثين التالية أراض أخرى ، فارتفعت هــذه النسبة الى ٥ر٦٧٪ من مجموع أراضى فلسطين . ويظهر أن هــذه النسبة أكثر تواضعا من الواقع ، لأن حكومة الانتداب قــدرت عام ١٩٤٦ انه كان لدى اليهود ١٥٪ من أراضى فلسطين الصالحة للزراعة[٢٩] .

ووقف الشعر يندد بهؤلاء الذين يفرطون فى ارضهم بالبيع ، ويضم سماسرة بيع الأراضى بالخيانة ، ومن الشعراء الذين الحــوا على هــذا المعنى وأطالوا القول فيه « ابراهيم طوقان » ــ رحمــه الله ــ الذى كان « يحس ان وطنه يباع ، فيصب نقمته على عصبة السماسرة الذين كانوا يغرون الناس ببيع أرضهم ، وعلى البائعين مذكرا اياهم بأبنائهم الذين

(٢٧) ديوان ابراهيم طوقان ٨٥ .
(٢٨) ديوان ابراهيم طوقان ٩١ .
وقــد نظم الشاعر القصيدة التى منها هــذه الأبيات سنة ١٩٣٥ بمناسبة الطوفان الذى طغى على مدينة طرابلس وضواحيها .
(٢٩) انظر بتفصيل أكثر الصفحات ٧٨ ــ ٨١ من كتاب « الحصاد المر » .

سوف يتحولون الى اجراء بعد أن كانوا ملاكا ، ناصحا اياهم ان يبقوا باعا من أرضهم لقبورهم »[٣٠] يقول ابراهيم طوقان :

باعوا البلاد الى اعدائهم طمعا — بالمال لكنما أوطانهم باعوا
قد يعذرون لو ان الجوع ارغمهم — والله ما عطشوا يوما ولا جاعوا
اعداؤنا منذ ان كانوا صيارفة — ونحن منذ هبطنا الأرض زراع
لم تعكسوا آية الخلاق بل رجعت — الى اليهود بكم قربى واطباع
يا بائع الأرض لم تحفل بعاقبة — ولا تعلمت أن الخصم خداع
لقد جنيت على الأحفاد والهفى — وهم عبيد وخدام وأتباع
وغرك الذهب اللماع تحرزه — ان السراب كما تدريه لماع
فكر بموتك فى أرض نشأت بها — واترك لقبرك ارضا طولها باع[٣١]

لقد كان الاحساس شديدا وفادحا بالجناية التى يجنيها على الوطن باعة الأرض لليهود والسماسرة الذين تجردوا من شرف الدين والوطنية حتى ان عبد الكريم الكرمى يرى أن جناية هؤلاء لا تقل بشاعة عن جناية الأعداء من الانجليز والصهاينة ، فيخاطب وطنه بصوت مفجوع ، وقلب محطوم :

وطنى انت بقايا أمل — خضبته عبرات من فؤادى
ما الذى جرح جنبيك اجب — كيد ابنائك أم كيد الأعادى[٣٢]

بل انه ليرى ان جريمة المفرطين المنتسبين الى الوطن أشد وانكى من جريمة الأعداء الصرحاء ، ويحملهم مسئولية ضياع الوطن ، فيقول مخاطبا فلسطين :

---

(٣٠) د. ماهر حسن فهمى : الحنين والغربة فى الشعر العربى الحديث ٧٧ .

(٣١) ديوان ابراهيم طوقان ٥٤ . وانظر قصيدة « السماسرة » ٨٤ ، وقصيدة « لمن الربيع » ٨٧ . وقصيدة « نعمة » ٩٢ .

(٣٢) ابو سلمى : ديوان أبى سلمى (الأعمال الكاملة) ٣٦ .

لا تســـالى المســـــتعمري ن بل أسالى أهل الديار[٣٣]

وهو نفس المعنى الذى الح عليه عبد الرحيم محمود ، فيقول :

انا بأيدينـــا جرحنـــا قلبنـــا وبنا الينا جـــاءت الآلام[٣٤]

* * *

ومع وقوف حكومة الانتداب ضـــد عرب فلسطين وتحيزها الواضح لليهود بدأ اليهود يسلحون انفسهم على نطاق واسع ، وينظمون صفوفهم ، وتمخض عن ذلك تكوين ثلاث عصابات ارتكبت من الجرائم ما ينـــدى لــــه التاريخ ، وهـــذه العصابات هى : الهاجاناه والأرجـــون تسفاى ليومى وشتيرن . وتعتبر الهاجاناة المنظمة الأم التى انشقت عنها الأرجـــون فى عـــام ١٩٣٥ ، كما انشقت عصابة شتيرن بدورها عن الأرجـــون عـــام ١٩٣٩[٣٥] .

وكما استغلت الصهيونية الحـــديثة الناحيـــة العقائدية لدى اليهود ، استغلت أيضا الاضطهاد الدينى والاجتماعى والعنصرى الذى تعرض له اليهود فى المجتمعات الأوروبية ، فكانت دعوتها الى انشاء دولة يهودية تقوم أساسا على ضرورة تخليص اليهود من الاضطهاد[٣٦]. فاستطاع اليهود ببراعة فائقة أن يستثمروا — على مستوى عالمى واسع المدى — السياسة النـــازية الحمقاء بعـــد أن تولى هتلر رياسة الحكومة الالمـــانية فى ٣٠ من يناير سنة ١٩٣٣ ، واتخـــذ النازيون اجراءات تعسفية ، واصـــدروا قوانين عنصرية مجحفة منها ما عرف « بقوانين نيرنبرغ » التى كانت عبارة عن قانونين : أولهما قانون الجنسية الذى أسقط باختصار جنسية الرايخ عن المواطنين اليهود الألمـــان ، اما القانون الثانى — وهـــو قانون المحافظة على الـــدم

---

(٣٣) الســـابق ٤٨ .

(٣٤) ديوان عبد الرحيم محمود ١٤٢ .

(٣٥) انظر « الحصاد المر » من ص ٩١ الى ص ١٠٣ .

(٣٦) د. الخولى : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ١٩ .

الالمـــانى والشرف الألمـــانى — فقـــد نص على منع اليهود من الزواج من غير اليهود ، أو رفع العلم الألمـــانى ، أو استخدام خادمات ألمـــانيات يقل عمرهن عن ٤٥ سنة ... ثم نشرت نحو ١٣ مجموعة من الأنظمة المختلفة منع بموجبها اليهود من العمل فى اية مهنة أو منصب رسمى تقريبا ، كذلك طبع حرف J للدلالة على كونهم يهودا فى بطاقات هويتهم ، ثم أجبروا على وضع نجمة داود السداسية بلون أصفر على أماكن عملهم ومؤسساتهم وحـــوانيتهم(٣٧) .

واتجه صهاينة فلسطين الى الافادة من هـــذه الاجراءات واستغلالها لتكون بركة للصهيونية ، وهذا ما تم فعلا ، فلم يكتف الصهيونيون بالانضمام الى حملات الاحتجاج والاستنكار التى نظمها اليهود فى أماكن مختلفة من العالم ضـــد الممارسات النازية وذلك بعقد اجتماعات احتجاج خاصة بهم فى تل أبيب أو التبرع لمساعدة يهود ألمـــانيا ، بل راحوا يعـــدون العـــدة ايضا لاستيعاب أولئك اليهود فى فلسطين ، ففى ٢٦ نيسان (أبريل) سنة ١٩٣٣ قرر المجلس المـــلى اليهودى العمل على وضع مشروع استيطانى كبير لاستيعاب يهـــود ألمـــانيا فى فلسطين(٣٨) .

❋ ❋ ❋

وهكذا قامت اسرائيل على أيديولوجية تعتمد على المغالطات ، وانكار الحقائق التاريخية الثابتة ، وهكذا نشأت اسرائيل متبعة اساليب الخـــداع والنهب والارهاب ، وكان هـــذا هـــو « الجانب الجانى أو العـــدوانى » من القضية ... قضية فلسطين ... أو قضية العصر التى ما زالت تمثل جرحا غائرا نازفا لا فى جسم الأمة العربية فحسب ، بل فى كيـــان المبادىء والقيم الانســـانية .

❋ ❋ ❋

---

(٣٧) مجلة شئون فلسطينية : مارس — ابريل ١٩٨٥ العددان ١٤٤ — ١٤٥ ص ٨٠ من مقال لصبرى جريس بعنوان : السنوات الخمس السمان فى تاريخ الوطن القومى اليهودى فى فلسطين (١٩٣١ — ١٩٣٦) .

(٣٨) أنظر السابق ٨١ .

ومن حقنا بعـــد هـــذه المسيرة التى طالت بعض الشىء أن نقف وقفة متأنية أمام وضع « أصحاب القضية » . . . أصحاب الأرض والحق والتاريخ . وهم « الجانب الضحية او المجنى عليه » ، لنرى مواقفهم فى مواجهة المعتدين الغـــاصبين .

وحتى نستطيع أن نقيم هـــذه المواقف والوقائع تقييمها الصحيح يجب أن يكون نصب عيوننا دائما أن أهـــل فلسطين لم يكونوا يواجهون عـــدوا واحـــدا مباشرا يتمثـــل فى اليهـــود الذين استقروا فى فلسطين وعصاباتهم المسلحة ، بل كانوا يواجهون كذلك حكومة الانتداب الانجليزى .. وفى ذلك يقول ابراهيم طـــوقان :

لنا خصمان : ذو حـــول وطـــول — وآخر ذو احتيال واقتنـــاص
تواصـــوا بينهم فأتى وبالا — وإذلالا لنـــا ذاك التـــواصى
مناهـــج للإبادة واضـــحات — وبالحسنى تنفذ والرصاص[٣٩]

ووراء هـــذين الخصمين كانت الامبريالية والصهيونية العالمية بامكاناتها الهائلة . كما كان من العوامل التى أضرت بالقضـــية الفلسطينية سلـــبيات الحكومات العربية والاسلامية ، فقـــد تعاملت مع هـــذه القضية تعـــامل المتفرج ، فلما أرادت هـــذه الحكومات أن تكسر جدار السلبية وقعت فى أخطاء فادحة أودت بالأرض الفلسطينية ، وشردت أهلها ، ومكنت اليهود من أن يكونوا القـــوة الضاربة العاتية فى الشرق الاوسط .

وتحت وطـــأة ظروف قاسية . . بالغة القسوة أخذ الكفاح الفلسطينى صورا متعـــددة يمكن أن نوجزها فيما يأتى :

- المؤتمرات والاجتماعات العامة ، أو ما يمكن أن نسميه بالنشاط السياسى .

- الكفاح المسلح : وكان له صورتان : الأولى هى الكفاح المسلح العفـــوى أو العام ، والثانية هى الكفاح المسلح التنظيمى .

---

(٣٩) ديوان ابراهيم طوقان ٩٣ .

● النضال بالكلمة الشاعرة متفاعلة مع الأحداث ، معبرة عن آلام الشعب ، نابضـــة بأمانيه .

وكل أولئك يحتاج الى شيء من التفصيل :

كانت الاجتماعات والمؤتمرات العامة هي باكورة الكفاح ، أو بتعبير أدق « الخطوة العملية للاعـــداد للكفاح » . وأهم هـــذه المؤتمرات الباكرة :

١ — مؤتمر القدس في مارس سنة ١٩١٩ .
٢ — مؤتمر حيفا في ديسمبر سنة ١٩٢٠ .
٣ — مؤتمر القدس في يونيه سنة ١٩٢١ .
٤ — مؤتمر نابلس في اغسطس سنة ١٩٢٢ .
٥ — مؤتمر يافا في يونيه سنة ١٩٢٣ .
٦ — مؤتمر القدس في يونيه سنة ١٩٢٨ .
٧ — المؤتمر الاسلامي العالمي في القدس في ديسمبر سنة ١٩٣١ .
٨ — مؤتمر يافا في مارس سنة ١٩٣٣[٤٠] .

وكان عقد هـــذه المؤتمرات يرتبط — في الغالب — بأحـــداث ووقائع تنال من حقوق الشعب الفلسطيني يرتكبها اليهود وحكومة الانتداب . وتمخضت هـــذه المؤتمرات عن قرارات مختلفة ، كان من اهمها :

١ — رفض وعد بلفور وحكومة الانتداب والهجرة اليهودية .
٢ — مطالبة حكومة الانتداب بانشاء حكومة وطنية مستقلة .

٣ — اختيار وفود فلسطينية للذهـــاب الى لنـــدن لشرح القضـــية الفلســـطينية .

٤ — وضع ميثاق قـــومي فلسطيني يلتزم الفلسطينيون به لتحقيق الاستقلال ، ورفض زرع وطن يهودي في فلسطين ، وتكوين اللجنة التنفيذية العربية برياسة موسى كاظم الحسيني .

---

(٤٠) أنظر مجلة : فلسطين الثورة ص ٣٨ العدد ٣٣٥ (١٤ من نيسان ١٩٨٠) .

وكان اهم هـذه المؤتمرات المؤتمر الاسلامى العام الذى عقد فى القدس فى ديسمبر ١٩٣١ ، وقـد حضره مندوبون من قرابة عشرين دولة عربيـة واسلامية . وترجع اهمية هـذا المؤتمر الى أنه خرج بالقضية الفلسطينية من الدائرة المحلية الى المجال العربى والاسلامى ، وكان اهم قرارات المؤتمر : تأسيس جامعة اسلامية فى القدس ، وتأسيس شركة زراعية فى فلسطين لانقاذ أرضها من أن تباع لليهود ، واستنكار الهجرة اليهودية ، ومقاطعـة المصنوعات الصهيونية فى البلاد الاسلامية .

وتطور النشاط السياسى الى انشاء احزاب دائمة ، وخصوصا بعـد أن دعت « اللجنة التنفيذية » العربية فى فلسطين فى أحـد اجتماعاتها الى « تأليف احزاب وطنية متجانسة » فظهر على الساحة الفلسطينية الأحزاب التاليـة :

١ ــ حزب الاستقلال وأسس فى اغسطس سنة ١٩٣٢ .
٢ ــ حزب الدفاع الوطنى أو حزب المعارضين فى ديسمبر سنة ١٩٣٤ .
٣ ــ الحزب العربى الفلسطينى فى ابريل سنة ١٩٣٥ .
٤ ــ حزب مؤتمر الشباب فى مايو سنة ١٩٣٥ .
٥ ــ حزب الاصـلاح فى يونيه سنة ١٩٣٥ .
٦ ــ حزب الكتلة الوطنية فى أكتوبر سنة ١٩٣٥[٤١] .

ويكاد يكون جـوهر برامج هـذه الأحزاب هـو التعبير عن أمانى الشعب الفلسطينى ، والكفاح من أجـل استقلاله ، والتصدى للصهيونية وحكومة الانتداب .

ولنجتزىء بعرض المبادىء الرئيسية لواحـد من هـذه الأحزاب وهو « الحزب العربى » وكان هـو وحزب الدفاع يمثلان اكبر الأحزاب الفلسطينية وأظهرها . كان قسم اعضاء الحزب « الحرية حقى ، والاستقلال غايتى ، والعربية مبدئى ، فلسطين وطنى ، وليس لغير العربية فيها مقام .... » .

---

(٤١) الخولى : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ٥٧٩ .

وكانت للحزب غايات استقلالية وقومية فى مواجهة الانتداب والصهيونية، وقد حدد القانون الداخلى للحزب هذه الغايات فيما يلى :

(أ)استقلال فلسطين ورفع الانتداب .

(ب) المحافظة على عروبة فلسطين ، ومقاومة تأسيس وطن قومى لليهود .

(جـ) ارتباط فلسطين بالأقطار العربية فى وحدة قومية سياسية مستقلة استقلالا تاما(٤٢) .

وواضح أن عدد هذه الأحزاب يعد كبيرا بالنسبة لعدد السكان . كما أنها لم يكن لها من الفعالية ما كان ينتظر منها فى هذه الظروف القاسية التى تمر بفلسطين . ولكن هذه الحقيقة لا تغمط حقها فى تنبيه وعى الجماهير ، واثارة حماستها ، وتوجيهها — بطريقة مباشرة وغير مباشرة — الى الكفاح فى سبيل تخليص الأرض ، والحيلولة دون انشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين .

ولعل السقطة الكبرى لهذه الأحزاب تتمثل فى الخلافات الطاحنة والصراعات الخفية والظاهرة بينها ، وهى خلافات غذتها صراعات أسرية عميقة(٤٣) وفى ذلك يقول ابراهيم طوقان :

بنى وطنى هل يقظة بعد رقدة ... وهل من شماع بين تلك الغياهب

---

(٤٢) جمال قدورة « تأسيس الحزب العربى وبقية الأحزاب العربية فى الثلاثينات » ص ٣٨ من مجلة شئون فلسطينية : مارس – أبريل ١٩٨٥ .

وأنظر كذلك السوافيرى : الشعر العربى الحديث فى مأساة فلسطين من ص ١٣٥ الى ص ١٥١ . وأنظر الخولى السابق ٥٧٨ – ٥٧٩ .

(٤٣) وعلى سبيل التمثيل كانت الخلافات بين حزبى العربى والدفاع تغذيها صراعات عميقة بين أسرتى الحسينى والنشاشيبى ، فقد كان الحاج أمين الحسينى هو الرئيس الروحى للحزب الأول ، وكان راغب انشاشيبى هو رئيس حزب الدفاع .

[أنظر فى ذلك مقالا عن الأحزاب الفلسطينية بقلم « جمال قدورة » من ص ٣٥ الى ص ٥٣ من مجلة : شئون فلسطينية مارس – ابريل ١٩٨٥ .

فو الله ما أدرى وللناس هبـــة أنادى «أمينا» أم أهيب «براغب»[٤٤]

واذا كان شعراء فلسطين قــد أخــذوا يندون بمثل هــذه الصراعات وتلك الخلافات الحزبية العقيمة ، فقــد نهض هــؤلاء الشعراء مسلموهم ونصاراهم — يشيدون بتماسك العنصرين وتوحــدهما فى مواجهة العــدو الصهيونى ، مما نجــد صداه فى أبيات الشاعر المسيحى اسكندر الخــورى البيتجالى يخاطب بها القــدس .

بلد السلام وليس فيــك ســلام	**منى اليك تحيـــة وســلام**
أنا ان نأيت وان أقمـــت فاننى	**لك مخلص ما لى سواك مقام**
تفديك نصرانيتى ويقيـــك من	**غــدر الزمان وكيده الاســلام**
دينان أسهما العروبة قبلمــا	**كانت قساوســة وكان امام[٤٥]**

* * *

اما اســتخدام القــوة : بحــدها الأدنى الذى يتمثــل فى الاضرابات والمظاهرات ، وحــدها الاعلى الذى يتمثل فى استخدام السلاح فقــد اخــذ من ناحية الشكل صورتين :

الصورة الأولى : الكفاح العفوى أو التلقائى .
والصورة الثانية : الكفاح المسلح التنظيمى .

وأعنى باللون الأول تلك الحركات الجماهيرية العنيفة التى كانت صدى او رد فعل لاحــداث ووقائع هزت مشاعر الجماهير ، وأدمت أحاسيسهم ، وأشعرتهم بظلم فادح واحجاف أليم يقع بوطنهم .

ومن أمثلة ذلك ما حــدث سنة ١٩٢١ من هجوم فلسطينيين على بعض المستعمرات اليهودية ، وخصوصا تلك التى تقع بين يافا وطولكرم ، وصرع

---

(٤٤) ديوان ابراهيم طوقان ٨٥ .

(٤٥) الأسد : محاضرات فى الشعر الحديث فى فلسطين والاردن ٥٣ .

وجرح فيها قرابة مائتى يهودى ، مقابل مائة وخمسة وعشرين عربيا ، وكان ذلك ردا على تجمهر اليهود واتجاههم الى يافا للاعتداء على العرب .

وكان من أهم الأحداث التى هزت مشاعر العرب والمسلمين وفجرت ثورة الغضب فى نفوس الفلسطينيين هو ما يسمى « بحادث البراق » اذ حاول اليهود الاعتداء على مواقع البراق من المسجد الأقصى ، وهو الموقع الذى يقال ان البراق قد نزل به ليلة الاسراء ، مما أثار مشاعر الفلسطينيين ، كان ذلك فى مساء ٢٤ من سبتمبر سنة ١٩٢٨ ... مما دفع الفلسطينيين الى التصدى لليهود ، وتوالت الصدامات الدامية بين العرب واليهود ، وكان أشدها ما وقع فى أغسطس سنة ١٩٢٩ ، وسقط فيها مئات من القتلى ، وأضعافهم من الجرحى .

وبدأت المحاكمات ونفذ حكم الاعدام صبيحة الثلاثاء ١٧ من يونيه سنة ١٩٣٠ فى ثلاثة من الفلسطينيين « فكان أولهم فؤاد حجازى ، وثانيهم محمد جمجوم ، وثالثهم عطا الزير ، وكان من المقرر رسميا أن يكون الشهيد عطا الزير هو الثانى ، ولكن محمد جمجوم حطم قيده ، وزاحم رفيقه على الدور حتى فاز ببغيته واعدم قبله[٤٦] .

وقد صور ابراهيم طوقان هذا اليوم المخضب بالدماء اروع تصوير مسجلا فى شعر الوطن الخالد مصارع اولئك الشهداء فكانت قصيدة (الثلاثاء الحمراء)[٤٧] .

وقد بلغ ابراهيم طوقان بهذه القصيدة شأوا لا يبلغه الا كبار الشعراء وعظماؤهم لا فى حرارة الشعور وصدق الانفعال فحسب ، ولكن فى منهج المعالجة ، وبراعة التصوير : فهو لم يرث الشهداء الثلاثة رثاء مباشرا متحدثا عن بطولتهم وبطولة أمتهم كما يفعل الشعراء قديما وحديثا ، انما قدم للقصيدة بمقدمة طويلة نعى فيها على ظلم المستعمر وخداعه وعدوانه على القيم الانسانية وسخر من المندوب السامى سخرية مرة .

---

(٤٦) فدوى طوقان : أخى ابراهيم ٢٣ من تصدير لديوان شقيقها ابراهيم طوقان ، وانظر كذلك ناصر الدين الأسد : الشعر الحديث فى فلسطين ١٥٥ .

(٤٧) انظر : فدوى طوقان . السابق ٢٤ .

ثم جعـــل كل ساعة من الساعات الثلاث تتحـــدث عن صاحبها الذى شنق فيها . فالساعة الأولى التى شنق فيها فؤاد حجازى تقول :

أنا ســـاعة النفس الأبيـــة   الفضـــــل لى بالأســـــبقية
أنا بكر ســــــــــاعات ثلا   ث كلهـــــا رمـــز الحميـــة

وتقول الساعة الثانية ، وهى الساعة التى شنق فيها محمد جمجوم :

قســــما بـــروح محمـــــــد   تلقى الردى حلـــو الـــورود
قســــما بامــك عنـــــد مو   تك وهى تهتـف بالنشـــيد
وترى العـــزاء عن ابنهــــا   فى صــــيته الحسن البعيــد
ما نال من خـــــدم البـــلا   د أجــل من أجـــر الشـــهيد

أما ساعة عطا الزير فتقول :

قســـما بروحــــك يا عطا   ء وجنـــــة الملك القـــدير
وصــــغارك الأشـــباك تبـــ   ـكى الليث بالدمـــع الغزير
ما انقـــذ الوطـــن المفــدى غـــير صـــبار جســـور

وأنهى القصيدة بخاتمة جاءت طبيعية كأنها « القرار الحاسم » فى نهاية هـــذا العمل الدرامى العظيم([٤٨]) .

وفى الذكرى الرابعة لهؤلاء الشعراء ينظم قصيدة « الشهيد » المشهورة التى مطلعها :

عبس الخطـــب فابتســـم   وطغى الهـــــول فاقتحم([٤٩])

---

(٤٨) انظر القصيدة كلها فى ديوان « ابراهيم طـوقان » من ٤٢ - ٤٩ .
وانظر كذلك أبياتا رائعة فى رثاء الأبطال الثلاثة نظمها محيى الدين الحـــاج عيسى (ناصر الدين الأسـد . السابق ١٠٠) .
(٤٩) ديوان ابراهيم طـوقان ٤٠ .

ولكن القصيدة بنصها لا تشير الى ذلك من قريب او بعيد ... والشاعر نفسه لم يأبه لهـذا الربط فى نظمه لأبياتها ، فهـذا النمط من الشعر الذى يرتفع من الخاص الضيق الى الجـو العام الشامل ليرفرف فى عالم المثـل يذكرنا بدالية المعرى المشهورة التى نظمها فى رثاء أبى حمزة الفقيه ، وتخطى فيها نطاق الفرد ليحلق فى جـو انسانى رحيب ، قوامه فكرة الوجود والعدم ، وفلسفة الحياة والموت فى الكون(٥٠) .

* * *

وقـد ظهر تحيز حكومة الانتداب ضـد الفلسطينيين ، فلم تستجب لموجة الاستعطاف للمندوب السامى من أجـل تخفيف الحكم عن هؤلاء الثلاثة من الاعـدام الى السجن ، والتى تجلت فى برقيات الاستعطاف التى انهالت على المندوب السامى من الهند والحجـاز ومصر واليمـن والعراق ، ومن الجاليات العربية والاسلامية فى امريكا وأوروبا ووراء البحار(٥١) .

هـذا فى الوقت الذى خفف حكم الاعـدام الى السجن عشر سنوات عن شرطى يهـودى كان على رأس جمـاعة اقتحمت منزل امام مسجد فى مدينة يافا ، وقتلوه مع أفراد أسرته الستة ، ومثلوا بجثثهم(٥٢) .

وكانت انتفاضة ١٩٣٣ موجهة ضـد حكومة الانتداب مباشرة بعـد أن ثبت بالدليل القاطع عـدم جـدوى سياسة التعاون التى كان ينادى بها البعض من القيادات الوطنية الفلسطينية ... فأعلن مؤتمر يافا فى مارس ١٩٣٣ سياسة اللاتعاون مع حكومة الانتداب ، وبدات مظاهرات سلمية ، سرعان ما تحولت الى مظاهرات دامية لمحاولة حكومة الانتداب تفريقهـا بالعنف . وسرعان ما شملت المظاهرات كل المدن الفلسطينية(٥٣) .

ثم كان ما يعرف تاريخيا « بثورة فلسطين الكبرى » سنة ١٩٣٦ ، وقد

(٥٠) عمر الدقاق : الاتجاه القومى فى الشعر المعاصر ٣٨٦ .

(٥١) د. عواطف عبد الرحمن : مصر وفلسطين ٢٤٠ .

(٥٢) أنظر السوافيرى : الشعر العربى الحديث فى فلسطين ١٤٣ ـ ١٤٤ .

(٥٣) أنظر : مصر وفلسطين ٢٤٨ .

بدأت هـــذه الثورة باضراب عام شمل كل المدن الفلسطينية ومرافق البلاد ، كما امتنع المواطنون عن دفع الضرائب ، ورفع المواطنون السلاح فقتلوا كثيرا من الانجليز واليهود ، ونسفوا اعمدة البرق والهاتف والسكك الحديدية .. .. وبلغت بعض المعارك بين الفلسطينيين والانجليز حـــدا بعيدا من الضراوة والقساوة واتساع النطاق ، مما دفع الطيران الانجليزى الى الاشتراك فى بعض هـــذه المعارك ، واسقط المواطنون بعضها ، مما يدل على ارتفـــاع مستوى المقاتلين الفلسطينيين بعـــد ان كونوا فرقا من الفدائيين ، وتدفقت اعـــداد غير قليلة من الشام والاردن ومصر للاشتراك فى الثورة الفلسطينية .

واستمر العصيان المدنى والكفاح المسلح فى فلسطين على اختلاف فى الدرجة على الرغم من قانون الطوارىء الذى ســـنته حـــكومة الانتـــداب « فاصبح الاعـــدام او السجن المؤبد جزاء لمن يحمل اى نوع من الأســـلحة او بضع رصاصات .٠. وبلغ عـــدد الذين اعـــدموا شنقا من العرب ١٤٦ ، وعـــدد الذين حكم عليهم بالسجن المؤبد ٢٠٠٠ ، وعـــدد المنازل والحوانيت التى نسفت وهـــدمت ٢٠٠٠ »[٥٤] .

اما بداية حركة المقاومة الفدائية المنظمة فترتبط تاريخيا باسم « عز الدين القســـــام »[٥٥] .

---

(٥٤) السوافيرى : السابق ١٧٠ .

(٥٥) هـــو محمد عز الدين بن عبد القادر القسام (١٨٨٢ – ١٩٣٥) من اسرة كريمة فى جبلة من اعمال اللاذقية ، تعلم فى الأزهر بمصر ، والتقى بالشيخ محمد عبده ، وتاثر به ، واشتغل فى بلده بالتعليم والوعظ ، فلما احتل الفرنسيون ساحل سوريا سنة ١٩١٨ ثار ضدهم فى جماعة من تلاميذه ومريديه ، وطارده الفرنسيون فقصد دمشق ، ثم غادرها سنة ١٩٢٠ بعـــد استيلاء الفرنسيين عليها ، واقام فى حيفا اماما لأحـــد المساجد ورئيسا لجمعية الشبان المسلمين ، وقـــد اتخـــذ من كل ذلك منطلقا للدعوة الى الجهاد ، وكون اول جماعة فدائية للقتال ضـــد حكومة الانتداب واليهود ، وفى ٢٠ من نوفمبر سنة ١٩٣٥ كان القسام هـــو وثمانية من رجاله فى احـــد الكهوف بجانب قرية « يعبد » غرب جنين ، وحاصر البوليس الانجليزى الكهف ، ودعا القسام ورجاله الى الاستسلام ، ولكنه رفض ، وأمر رجاله بالقتال الى النهاية ، وظل القتال ضاريا لأربع ساعات متواصلة الى أن استشهد هـــو وثلاثة من رجاله ، وأسر الانجليز البـــاقى .

[أنظر الأعلام للزركلى ٦/٢٦٨ و ZIONISM and ARABISM p. 71.] .

والذى يقرأ تاريخ الرجل يخرج بانطباع صادق يكشف لنا عن مفتاح شخصيته وهو « عشق الجهاد » ، فالجهاد والتطلع اليه لا يقف عند مرحلة واحـــدة فى حياته ، بل ان الجهاد تطلعا ونزوعا وممارسة يستغرق اغلب حياته ابتداء من شبابه وهـــو يطلب العلم ، وانتهاء باستشهاده سنة ١٩٣٥ ، ففى سنة ١٩١٢ حينما هاجم الايطاليون ليبيا — وكان القسام آنذاك فى سوريا — استطاع ان يجند ٢٥٠ متطوعا ، وتجمعوا للذهاب الى ليبيـــا للاشتراك فى مقاومة الغزو الايطالى ، ولكن لم يقـــدر لهـــذه المحاولة أن تنجح لعـــدم توفر وسيلة مواصلات(٥٦) .

وقاوم الاستعمار الفرنسى هـــو وبعض تلاميذه حين نزل بسوريا سنة ١٩١٨ . وفى سنة ١٩٣٠ انشأ جماعة سرية باسم اليد السوداء كان هدفها الرئيسى « قتل اليهود » وزرع الرعب فى قلوبهم بوجه عام(٥٧) .

وكان مقتنعا بأن تحرير فلسطين لن يتم من خلال الأفندية — على حـــد قوله — وان أصحاب المصلحة فى تحرير فلسطين هم اقل الطبقات ثراء أو أكثرها فقرا ، ويتكون منهم الفلاحون الذين طردوا من أراضيهم التى بيعت للصهيونيين والعمال الذين أخرجوا من أعمالهم كى يشغلها عمال اليهود . . . ولذلك توجـــه الشيخ القسام مباشرة الى هـــذه الفئات يبث فيها الوعى ، ويرسم لهـــا طريق الخلاص : كتاب الله فى يد ، والبندقية فى يد أخرى(٥٨) .

ومما سبق تستطيع أن نقرر ان المسلك الجهادى لعز الدين القســـام لم يكن كالأنماط الحزبية التقليدية التى تعطى اهتمامها الأكبر للشخصيات المشهورة اللامعة مع التركيز على الجانب القومى .

كما خالف الاتجاه الشعبى التلقائى فى الكفاح ومواجهة العدو الصهيونى والعـــدو الانجليزى . فمنهج القسام الجهادى كان ذا ملامح جـــديدة لافتة للنظر ومن أهم هـــذه الملامح :

---

(٥٦) ZIONISM and ARABISM p. 59.

(٥٧) Ibid p. 63

(٥٨) د. عواطف عبد الرحمن : مصر وفلسطين ٢٥٦ .

وانظر كذلك : الخولى : سياسة الاستعمار والصهيونية ٥٨٥ .

١ — انه افاد من تجاربه وتجارب غيره فى النضال ، فلم يعتمد على الشعارات ، بل اتجه اتجاها عمليا يعتمد على الكتمان دون اعلان .

٢ — انه اتجه الى اصحاب الولاء الحقيقى للارض ، والذين يمكن أن نسميهم « الضحايا الحقيقيين » للسياسة الانجليزية والغــدر الصهيونى .

٣ — انه بايمان حقيقى عميق استطاع أن يستغل المشاعر الدينية لأصحابه ، ويربط الجهاد دائما بالله . ولا شك أن الشعور الدينى هــو أقوى البواعث والدوافع للتضحية والفــداء .

٤ — انه — وهو السورى الجنسية — قــدم بنفسه المثل العملى والدليل الواقعى على أن قضية فلسطين لا تخص الفلسطينيين وحــدهم ، ولكنها قضية عربية ، بل اسلامية فى المقام الأول[٥٩] .

ولو قــدر للقسام أن يعيش ، وقــدر لحركته الجهادية المحــدودة أن تتسع معتمدة على الايمان والنقاء — كما بدأت — لتغير مجرى التاريخ ، لا أقول تاريخ فلسطين فحسب ، ولكن تاريخ المنطقة كلها .

ومضى القسام مثلا أعلى للكفاح العملى الصادق الذى يسترفد قــوة الايمان والتصميم والثبات ، وكان نهجه السوى فى الكفاح ، وثباته الحازم واستشهاده البطولى منبعا لا ينفــذ ... نهل منه الشعراء ، فصاغوا شعرا يمجــد الشهادة والشهيد والبطولات الفــذة ، ويرون أن هــذا هــو النهج السديد لاحراز النصر ، وتخليص الأرض . يقول عبد الرحيم محمود مخاطبا العربى بعامة ، والفلسطينى بخاصة :

قل لا واتبعها الفعــال ولا تخف	**وانظر هنالك كيف تحنى الهام**
اصهر بنارك غــل عنقك ينصهر	**فعلى الجماجم تركز الأعــلام**
واقم على الأشلاء صرحك انمــا	**من فوقه تبنى العــلا وتقــام**

(٥٩) كان الرأى العام الفلسطينى ممثلا فى أحزابه وخطبائه ورجال الدين وغيرهم يرى ضم فلسطين الى سوريا ، ويطلق عليها اسم سوريا الجنوبية ... وكان هـذا الصوت هـو أعلى الأصوات فى الساحة الفلسطينية قبل سنة ١٩٤٨ .

واغصب حقوقك قط لا تستجدها | **ان الأولى سلبوا الحقوق لئام**
هذى طريقك للحياة فلا تحـد | **قد سارها من قبلك القسام**[60]

اما الشاعر صادق عرنوس فيعطى صورة أكثر تفصيلا للقسام وطبيعته النفسية والخلقية ومنهجه فى الحيـاة والجهاد ومعـه « عصبة بدرية » آثروا الموت العزيز على الحياة المهينة . يقول عرنوس فى قصيدته :

من شاء فلياخـذ عن القسام | **أنمـوذج الجندى فى الاسـلام**
وليتخـذه اذا أراد تخلصـا | **من ذله الموروث خـير امام**
ترك الكلام ورصـفه لهـواته | **وبضاعة الضعفاء محض كلام**
ما كنت أعرفه ولم أسمع به | **حتى تضوع طيبه فى الشـام**
لم يلهه عرض الحياة وان حـلا | **كلا ولم يشغف بنيل وسام**
ما زال يعمل ساترا مجهـوده | **كالبدر مستترا وراء غمـام**
حتى بدا فى عصـبة بدرية | **فتكشفت عن مؤثرين كـرام**
قـل للشهيد وصـحبه اديتم | **حق الرسالة فاذهبوا بسلام**[61]

ويمجـد « أبو سلمى » القسام فى داليته المشهورة « لهب القصيد » التى نظمها سنة ١٩٣٦ ، ويحمل فيها حملة شعواء على ملوك العرب ، ويحملهم مسئولية النكبات التى حلت آنذاك بشعب فلسطين ، ومنها قوله مخاطبا هـؤلاء الملـوك :

قـوموا اسمعوا من كل ناحية يصيح دم الشهيد
قـوموا انظروا القسام يشرق نوره فوق الصرود
يوحى الى الدنيا ومن فيهـا بأسرار الخلود[62]

---

(٦٠) ديوان عبد الرحيم محمود ١٤٣ .
(٦١) مجلة الفتح العدد ٤٧٤ من السنة العاشرة .
(٦٢) ديوان ابى سلمى (الأعمال الكاملة) ٢٣ .

ويرثى ابو سلمى الشهيد أبا خالــد محمد صالح الحمد الذى استشهد سنة ١٩٣٨ وكان واحــدا من رجال القسام ورفيقا له فى الكفاح المسلح فيقول عنـــه :

يمت الى القسام بالنور والهدى ولمـا يزل فينا اماما وهاديا[٦٣]

وينظم أبو سلمى كذلك سنة ١٩٣٦ — أى بعــد استشهاد القسام بعام واحــد — مسرحية شعرية بعنوان « الثورة » . وقــد بعث بهـا مخطوطة لابراهيم عبد القادر المـازنى ، فرد عليه برسالة يبدى فيهـا رأيه ، ويقول فيها « ... ان جملة ما يخرج به القارىء من المشاهد جميعا لا يعطى فكرة كافية عن الثورة ، ولا يرسم فى ذهن المرء صورة تامة ، لأنه ليس هناك الا تصوير حادثة الشيخ القسام — وهى أوفى ما فى الكتاب وأبرعه ، ثم بضــعة مشـــاهد للثـــورة لا تكفى ولا تغنى ، واستثنى ما يتعـــلق بالقسام ... »[٦٤] .

وهــذا يعنى أن القسام كان يشغل حيزا ضخما فى ضمير الشعراء ، وأنه كان أهم ملمح من ملامح الثورة الفلسطينية . واصبح القسام وكفاحــه موضوعا لأعمال فنية روائية[٦٥] . كما أصبح عنوانا لدواوين شعرية كاملة مثل ديوان (رياح عز الدين القسام) لمحمد القيسى الذى نظم وصـــدر بعــد استشهاد القسام بقرابة اربعين سنة ، ولعل أوفى قصائد الديوان واجملها قصيدة « عز الدين القسام : جزء من حديث ذات ليلة باردة »[٦٦] وهى قصيدة ملحمية حـــوارية طويلة .

* * *

---

(٦٣) الســـابق ٦٧ .

(٦٤) الأسد : الشعر الحديث فى فلسطين ٢١٧ .

(٦٥) مثل الرواية التاريخية التى كتبها « عاصم الجندى » بعنوان « عز الدين القسام (المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت . فبراير ١٩٧٥) .

كما قامت دائرة الاعلام والثقافة السورية ودولة قطر بانتاج مسلسل تلفازى طويل عن عز الدين القسام يحكى قصة كفاحه من سنة ١٩٢٢ الى سنة ١٩٣٥ .

(انظر مجلة : فلسطين الثورة العدد ٤٠٩ الاثنين ١٩٨٢/٢/٨) .

(٦٦) ديوان القيسى من ٦٣ – ٧٧ .

وبعـــد استشهاد القسام ســـنة ١٩٣٥ ، واســـتجابة الفلسطينيين لنداءات ملوك العرب فى انهاء الثورة وانهاء الاضراب على أمل أن تغير حكومة الانتداب سياستها شكلت الحكومة الانجليزية ما يسمى « لجنة بيل » للتحقيق فيما حـــدث ، وأوصت اللجنة بتقسيم فلسطين ، ورفع الفلسطينيون السلاح من جـــديد ، وكان هناك شبه اجماع على رفض التقسيم(٦٧) .

وكان أهم حـــدث عالمى بعـــد ذلك هـــو قيام الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ — ١٩٤٥) وقد انتهز اليهود سنى هـــذه الحرب فى تدريب رجالهم ، واعـــداد أنفسهم ، متظاهرين بتأييدهم للحلفاء ، وتعاطفهم معهم ، بل الاشتراك الفعلى معهم فى القتال ضـــد الألمـــان والايطاليين ، ثم وسعوا من نطاق جهودهم السياسية على المستوى العالمى ، وخصوصا الولايات المتحدة الأمريكيـــة ٠

* * *

ولم يتوقف النضال الفلسطينى خلال الحرب العالمية الثانية ضـــــد اليهود وضـــد حكومة الانتداب ، ولم يخف الفلسطينيون فرحتهم وشماتتهم لمـــا كان ينزل بالانجليز والحلفاء من هزائم ، وتعـــــاطفهم مع الألمـــان ، وحماستهم لمـــا يحرزونه من انتصارات ٠ ففى قصيدة تعنوان « هتلر » يقول الشاعر الفلسطينى برهان الدين العبوشى :

أذل فرنسا فى ثمان وهـــذه   نساء فرنسا بالزعيم تحامينا

اقض منام الانجليز وقـــد غدا   جلالته أنى استفاث فلاعونا

تهل عليه السابحات قـــذائفا   لهـــا غنة فى الجو اما تدانينا

---

(٦٧) انظر تفصيل مشروع « لجنة بيل » وموقف الفلسطينيين والعرب منه ص ٧١٤ وما بعـدها من كتاب صبرى الخولى : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ٠ ومن عجب أن الملك عبد الله أمير شرق الاردن خرج على الاجماع العربى ، واعلن عـدم اعتراضه على مشروع التقسيم الذى اقترحته لجنة بيل بحيث يتم تعيينه ملكا على الدولة العربية الحديدة ٠
أنظر السابق ٧١٥ ٠ وانظر كتاب « الحصـــــاد المـــر » ١٠٤ — ١٣٣ ٠ وانظر كذلك The Palestine Diary p. 247-274.

....

خطيئتكم فى القدس هذا جزاؤها	**تركتم بها عماتنا يتباكينـــــا**
هتكتم شعار الله فى القدس ويلكم	**فذوقوا عذاب الله ويلكم جونا[٦٨]**

وكثرت سخرية الشعراء من الانجليز والحلفاء وقـــد نزلت عليهم الهزائم تترى ، وكان العرب يعلقون آمالا كبارا على الالمــان اذا ما انتصروا فى الحرب[٦٩] .

* * *

وكان أهم حـــدث على المستوى العربى هـــو انشاء الجامعة العربية ، وقـــد تم التوقيع على ميثاقها فى ٢٢ من مارس سنة ١٩٤٥ · وأعطت الجامعة العربية اهتماما كبيرا لمشكلة فلسطين ، وقـــد نص ميثاق انشاء الجامعة فى ملحقه الأول على حـــق فلسطين فى الاستقلال ، واختيار مجلس الجامعة « لمندوب عربى من فلسطين للاشتراك فى أعماله » .

وقـــد لهج الشعر بهـــذه المناسبة العظيمة على امل أن يكون ميلاد الجامعة العربية ميلادا لنهج عملى جـــديد لتحرير أرض فلسطين وأوطان العرب جميعا . فالشاعر محمد العـــدنانى يرى فى ميلاد الجامعة العربية عيدا للعروبة كلها لانها لمت شتات العرب ، واحيت مواتهم بالأمل ، فيقول :

ليهنىء العرب هذا العيد مؤتلقـــا	**كالصبح حف به يمـــن واجـــلال**
ويا رجالاتنــــــا دامت مراجـــلكم	**تغلى بهـــاهمم شم وأعمـــال**
بكم فلسطين قلب العرب قد حليت	**فانتم الصحب والأنصار والآل[٧٠]**

(٦٨) العبوشى : ديوان : جبل النار ٩٦ .

(٦٩) كشفت وثائق الخارجية البريطانية عن الاتصالات التى دارت بين الحاج أمين الحسينى والهيئة العربية التى كان يرأسها وبين دول المحور ، وهى الاتصالات التى أسفرت عن تعهد صريح منها بدعم استقلال فلسطين والدول العربية من قبل المانيا وايطاليا ، ومعارضة اقامة الدولة اليهودية [انظر مجلة العالم العدد ٨٧ من السنة الثانية] .

(٧٠) عن : السوافيرى : الشعر العربى الحديث فى مأساة فلسطين ٣٤١ .

ومن اطول القصائد فى هـــذه المناسبة قصيدة الشـاعر الشهيد عبد الرحيم محمود(٧١) التى مطلعها :

عيد بأحناء الصـــدور يقـــام   من وحيه الأشعار والالهـــام

حلم لقد لابت عليه نفوسنا   اجمل بأن تتحقق الأحــــلام

* * *

وتوالت المؤتمرات على المستويين العالمى والعربى بدعوى حل القضية ، ومن جـــديد احيى مشروع التقسيم فيما سمى بمشروع « مدرسون » ســـنة ١٩٤٦ ، وقـــد رفضه الفلسطينيون والعرب .

وفى ٢٩ من نوفمبر سنة ١٩٤٧ اتخـــذت الأمم المتحدة قرار التقسيم بأغلبية ساحقة كان قطباها الدولتين الكبيرتين امريكا وروسيا ، وكان ذلك مفجرا لثورة فلسطينية عاتية خاضها أبناء فلسطين وكثير من المتطوعين العـــرب(٧٢) .

وظهرت بطولات فـــذة أعادت الى الأذهان ذكرى بطولة عز الدين القسام ، واتسع سجل الشهداء لشخصيات جادت بنفسها عن رضا وطواعية، ونالت شرف الشهادة مثل عبد القادر الحسينى الـــذى استشهد فى معركة القسطل ، وشاعرنا عبد الرحيم محمود شهيد معركة الشجرة .

ثم كان اعلان ميلاد اسرائيل ، ودخول الجيوش العربية فلســـطين ، وبعدها توالت النكبات ، وما زالت تتوالى حتى الآن مما لا يجهله أحد(٧٣) .

وكان للشعر صولاته وجولاته فى هـــذه المناسبات ، ومنه تلك القصيدة

---

(٧١) انظر القصيدة فى ديوان : عبد الرحيم محمود ١٤١ ــ ١٤٢ .

(٧٢) انظر : « الحصاد المر » من ص ١٠٤ الى ص ١٠٤ الى ص ١٣٢ . وانظر كذلك : The Palestine Diary p. 247-274.

(٧٣) انظر فى مولد اسرائيل وصـدامها مع الجيوش الرسمية Ibid p. 275-303.

التى نظمها الشاعر محمود الحوت فى ديسمبر سنة ١٩٤٧ بعـــد صدور قرار التقسيم ، أو « متفق التقطيع » كما يسميه . وفى هـــذه القصيدة يقول :

وهب شعب على صيحات صخرته — يستل من عـــذبات الله ممتشقا

وراح يضرمها حربا مقـــــدسة — شرقية بضمير الغرب لن تثقـــا

كم حدثونا عن العدل المقيت وكم — كانت لهم حلبات الظلم مستبقا

لن نستقر ولن تهدأ مراجلنــــــا — والحق فى عالم الاطماع قد خنقا

سيعلمون وفى التاريخ موعظـــــة — كيف استمدوا من التقطيع متفقا(٧٤)

* * *

تلك هى قضية فلسطين او قضية العصر التى ستظل شاهدا ابد الدهر على الظلم الفادح فى عالمنا المنكوس الموكوس ، والتى ستظل على مدار القرون وصمة عار تجلل جبين الانسانية وتؤرق ضمائرها : أرض انتهبت ، وشعب تشرد ، وعشرات من آلاف القتلى الأبرياء ، ودولة من الاخســـاء الآفاقين زرعت بليل فى أرض عربية دون وجه حق ...

هـــذا هـــو الحصاد المر الذى تمخضت عنه قضية العصر ، وما زال للحصاد بقية ، وما زال للمرارة امتدادات ... ما بقى اصحاب الارض غرباء ... وما بقى الغاصبون ثابتى الوجود ، راسخى الأقـــدام فى ارض كانت مهـــد رسالات ، ومشهد نبوات .

وقـــد واكب الشعر هـــذه القضية بكل أبعادها ومناحيها ... واكبها صرخة ودمعة وتأبينا ، وواكبها انذارا ووعيدا ، وواكبها تحميسا وتشجيعا ، وواكبها زغرودة وتأميلا ، وواكبها تعظيما وتمجيدا ... نعم لقـــد عايش هـــذا الشعر الأحـــداث والوقائع والناس والقادة والخنادق والنار والدم :

ــ لقـــد ذكر الفلسطينيين بأمجاد أمتهم ، وأصالة وجودهم حتى يكونوا حربا

(٧٤) عن ناصر الدين الأسـد : الشعر الحـديث فى فلسطين والاردن ٢٤٦ .

على الغاصب الناهب الدخيل الذى دنس سحر الوجود وعبق التاريخ .

— ورسم لأبناء الوطن طريق التحرير والخلاص ، وطريق البناء والنجاح والخلـــود .

— وتغنى بالقيم العليا ، وانتصر للمستضعفين المنهوبين فى الأرض الذين كانوا هـــدفا وطعمة للمستعمر ، ومن نهج نهجه من النفعيين وادعياء الوطنيـــــة .

— ودعا الى وحـــدة الصفوف والأهـــداف فى مواجهة اعـــداء لا يرحمـــون ولا يقنعون .. ولا يتوقفون .

— وبكى الشهداء الذين كتبوا بدمائهم وثيقة الولاء السرمدى الذى لا يمـــوت ولا يهون ، ودعا الرجال والشباب ان يتخـــذوا منهم القـــدوة فى طريق التأسى والاحتذاء .

— وفضح المخططات والقرارات التى نسجت بليل فى المحافل الدولية ، تلك المحافل التى تسيطر عليها الصهيونية والامبريالية العالمية .

— وشد على النوام ، وذم الكسالى ، وحمل على كل غادر خوان .

وقـــد اجتزانا بأقل القليل من هـــذا الشعر على سبيل الاشارة والتمثيل للتدليل على معايشة الشعر لقضية الوطن . وكل ذلك كان يمثل عناصر من الرسالة الوطنية الانسانية التى اضطلع بها الشعر الفلسطينى لعشرات من الســـــنين .

وفى مصطخب هـــذه الغمرات كان لشاعرنا عبد الرحيم محمود جولات وصولات ، وكانت عـــدته الوافية : الشعر والبندقية ، فعاش شاعرا مقاتلا ، وكان تاريخه ملحمة خالدة مخطوطة بالكلمة والدم .

وكما عايشنا القضية تاريخا وشعرا فى الصفحات السابقة .. سنعيش فى الفصل التالى « مسيرة الحياة » لشاعرنا الذى كان واحـــدا من أنبـــل ابنائها وأكرم شـــهدائها .

الفصل الثاني

مسيرة الحياة وأبعاد الشخصية



أيام الدراسة

فى أحـــد أيام الربيع من سنة ١٩١٣ ولد عبد الرحيم محمود فى قرية « عنبتا » من قرى « طولكرم » ، وتلقى تعليمه الابتدائى فى مدرسة القرية (١٩٢١ — ١٩٢٥) ، ثم انتقل الى « طولكرم » ، ودرس بها المرحـــــلة الاستعدادية (الثانوية) المتوسطة فى مدرستها لمدة اربع سنوات ، واتم الصف الرابع الاستعدادى فيها فى العام الدراسى (١٩٢٨ — ١٩٢٩) . وفى نابلس اكمـــل دراسته الاستعدادية العالية فى كلية النجاح الوطنية ، حيث قضى فيهـــــا عامين (١٩٢٩ — ١٩٣١) درس فيهما الخامس والسادس الاســـتعداديين[١] .

وكانت مدرسة النجاح التى يطلق عليها اسم كلية[٢] تختلف عن غالبية المدارس فى فلسطين ، اذ لم يكن للحكومة ممثلة فى ادارة المعارف سلطان عليها ، ومن ثم كانت تتمتع بقـــدر كبير من الحرية فى برامجهـــا ، واختيـــار

---

(١) انظر : نافع عبد الله : الشاعر عبد الرحيم محمود ٤١ ـ ٤٢ ·

(٢) بدات كلية النجاح كمدرسة ابتدائية فى عام ١٩١٨ على يد مجموعة من شباب مدينة نابلس ، واطلق عليها آنذاك اسم مدرسة النجاح الوطنية النابلسية · وفى عام ١٩٤١ أصبح اسمها « كلية النجاح الوطنية » ، وفى عام ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦ افتتح فى الكلية معهد لاعـــــداد المعلمين ، وتحولت سنة ١٩٧٦ الى « جامعة النجاح الوطنية » ، وفيها الآن اربع كليات بها ٣٥٠٠ طالب وطالبة ·

[انظر : عصام شريح : جامعات الأرض المحتلة قلاع تؤرق اسرائيل : مجلة الدوحة القطرية ، العـدد ١١٣ مايو (آيار) ١٩٨٥ ·

اساتذتها ، او كما يقول الدكتور السوافيرى « كانت تلقن طلابها الى جانب فروع المعرفة المختلفة حب العرب والعروبة ، وتشعل فى نفوسهم جذوة الوطنية ، وتضع البرامج التى تغذى فيهم الجانب القومى والاعتزاز بالأمجاد العربية »(٣) .

وربما كان اشهر من عمل فى مدرسة النجاح هو الشاعر ابراهيم طوقان خلال العام الدراسى (١٩٢٩ — ١٩٣٠) نزولا على رغبة أبيه على الرغم من كراهية ابراهيم لمهنة التعليم(٤) . تقول شقيقته فدوى طوقان :

« زاول ابراهيم مهنة التعليم فى مدرسة النجاح سنة واحدة ، وكان له تأثير فى بعض طلابه من الصفوف العالية ، فحبب اليهم الشعر والأدب ، ولا ازال اذكر ذلك اليوم الذى اقبل فيه يحدثنا مبتهجا بأن بعض تلاميذه النجب قد بدءوا ينظمون الشعر على يده .. »(٥) .

ولا شك انه كان من هؤلاء التلاميذ عبد الرحيم محمود الذى سنجد فيما بعد كثيرا من بصمات ابراهيم طوقان فى شعره — لا فى الاتجاه الوطنى فحسب ولكن فى الأسلوب والمضامين الفكرية أيضا . وكان عبد الرحيم فى ذلك العام ... عام ١٩٢٩ — ١٩٣٠ فى الصف الخامس الاستعدادى العالى وهو العام الذى كان ابراهيم طوقان فيه معلما فى مدرسة النجاح .

---

(٣) ديوان عبد الرحيم محمود ٢٢ (الدراسة التى كتبها السوافيرى عن الشاعر فى صدر ديوانه .

وقد ظلت كلية النجاح هذه معقلا وطنيا ومصدر قلاقل وقلق لاسرئيل ، وخصوصا بعد أن نمت وتحولت الى جامعة تضم فى سنة ١٩٨٥ الفى طالب . وكثيرا ما لجات الحكومة الاسرائيلية الى اغلاقها لأشهر طويلة : فقد اغلقتها من ٥ يونيو سنة ١٩٨٢ الى اول سبتمبر ١٩٨٣ لاحتجاج طلابها فى مظاهرة ضخمة بمناسبة الذكرى الأولى للغزو الصهيونى للبنان . كما اغلقت ايضا بتاريخ ٢٩ يوليو سنة ١٩٨٤ بضعة اشهر ، وفى أوائل اغسطس سنة ١٩٨٥ اقتحمتها سلطات الاحتلال الاسرائيلى ، ومنعت جميع الطلاب من دخولها ضمن حملة مكثفة يشنها الكيان الصهيونى ضد المواطنين العرب فى الأراضى العربية المحتلة [انظر مجلة العالم العدد ٧٨ السنة الثانية : السبت ١٩٨٥/٨/١٠] .

(٤) انظر فدوى طوقان : اخى ابراهيم (فى صدر ديوان ابراهيم طوقان) ٢٣ .

(٥) السابق : نفس الصفحة .

وكان هـــذا العام عاما متوهجا لافتا فى تاريخ فلسطين اذ هبت فيه ثورة ١٩٢٩ على اثر « حادث البراق » . ثم كانت المحاكمات الظالمـــة على يد قوات الاحتلال وشنق ثلاثة المجاهدين حجازى وجمجوم والزير فى يوم الثلاثاء ١٧ من حزيران سنة ١٩٣٠ . وينظم طوقان فيهم اروع قصـــائده « الثلاثاء الحمراء » ويلقيها فى حفل مدرسة النجاح السنوية بعـــد تنفيذ حكم الاعـــدام بعشرة ايام ، ممـــا اثار حمية الناس والطلاب حتى عـــلا نشيجهم وبكاؤهم(٦) .

هـــذه الجراة ، وتلك الحماسة النابعتان من ايمان عميق بقضية الوطن وعـــدالتها فى مواجهة المستعمر الغاشم تركتا ـــ ولا شك ـــ آثارا عميقـــة فى نفس الفتى الذى كان يتلقى العلم والوطنية على يد هـــذا الأستاذ العظيم ، وخصوصا اذا كان الأستاذ ممن « يعتزون بتلاميذهم النجب الذين بدءوا ينظمون الشعر على يده » .

كان الطالب عبد الرحيم محمود ابن السابعة عشرة واحـــدا من هـــؤلاء على الراجح ... فالأحـــداث الدامية فى فلسطين آنذاك تلهب المشاعر ، وتفتق شاعرية من وهب بواكير هـــذه الملكة ، وان كان ديوان الشاعر يحدد بداياته الشعرية سنة ١٩٣٥ ، أى بعـــد تخرجه فى مدرسة النجاح بثلاث سنين ، واغلب هـــذه القصائد ـــ والوطنى منها بصفة خاصة ـــ يقطع بأنها لا يمكن ان تكون « بدايات » مثل قصيدة « نجم السعود »(٧) ففيها من النضج والشفافية وسلامة الأسلوب وبراعته ما يقطع بأنها مسبوقة بمحـــاولات وبدايات قام بها الشاعر وهـــو طالب فى مدرسة النجاح ، ولا يستبعد أن يكون ابراهيم طوقان قـــد اطلع على بعضها ، وأبدى اعجابه وتشجيعه للشاعر المبتدىء . ولم تخـــل هـــذه البدايات ـــ ولا شك ـــ من عثرات المبتدئين الذين يرودون طريقا جـــديدة لأول مرة ، وهى محاولات لم ينشرها الشاعر غالبا ، وربما عثرت اللجنة التى جمعت ديوانه على بعضها وأنكرته ، ولم تضمه لشعره الذى جمعته بين دفتى ديوان ، لأنها آثرت ـــ كما تقول

(٦) انظر فـدوى طـوقان : السابق ٢٤ .

(٧) الديوان ١٢٥ . وقـد أورد وليد جوار ابياتا للشاعر قبل ذلك فى كتابه : شاعران من جبل النار منها بيتان فى فاطمة رشدى ص ٣٢٧ .

فى تقريرها « ان تترك ما تجـــده ضـعيف الصياغة أو المعنى سواء اكان ذلك الضـعف فى قصيدة كاملة او فى اجزاء او ابيات من قصيدة »(٨) .

فى الشرطة

ويلفت نظرنا فى تاريخ الشاعر انه بعـــد ان تخرج فى مدرسة النجاح — وكانت سنة اذ ذاك قرابة العشرين — عين شرطيا فى حكومة الانتداب(٩) ، فكيف يقبل الفتى الوطنى الذى تتلمذ على يد ابراهيم طوقان ، وراى من وطنيته ما رأى ، وسمع من شـعره الحماسى ما سمع ، وشهد من ظلم حكومة الانتداب وبطشـها بالمواطنين ما شـهد ... أقول : كيف يقبل الفتى هـــــذه الوظيفة التى تثير الشبهة ، وتضع صاحبها مباشرة فى مواجهة المواطنين من ابناء جنسه ووطنه ؟

واجابة هـــذا السؤال تحوجنا الى التعرف على بعض جوانب الواقع التاريخى فى هـــذه الفترة : لقـــد عين عبد ارلحيم فى هـــذه الوظيفة بعـــد تخرجه فى مدرسة النجاح أواخر سنة ١٩٣٢ أو بعيدها ، وهى السنة التى زاد فيها نشاط جماعة اليد السوداء التى انشأها عز الدين القســـام سنة ١٩٣٠(١٠) وقتلت عـــددا من اليهود فى ٢٢ من ديسمبر سنة ١٩٣٢(١١) . ترى هل كان عبد الرحيم محمود واحـــدا من هـــذه الجماعة السرية ؟ وهل كان قبـــوله لهـــذه الوظيفة لمهمة محـــددة وهى أن يكون عينا للجمـــاعة على سلطات الانتداب من موقعه القريب هـــذا ؟

ان اعجاب الشاعر بعز الدين القسام ونهجه فى الحياة والجهاد — وهو ما صرح به فى شعره(١٢) — قـــد يرجح مثل هـــذا الافتراض . وسواء اصح

---

(٨) انظر تقرير اللجنة بالكامل صـ ١٧٢ وما بعـدها من كتـــاب الشعر الحـــديث فى فلسطين والاردن لناصر الدين الأســد .

(٩) انظر السابق ١٧١ ونافع ٤٤ .

(١٠) ZIONISM and ARABISM p. 63.

(١١) Ibid p. 65.

(١٢) انظر ديوان عبد الرحيم محمود ١٤٣ (قصيدة : طريق الحياة) .

هـــذا التقـــدير أم لم يصح فمن المقطوع به أنه لم يأت فى أثناء وظيفته هـــذه القصيرة الأمد ما يسىء الى وطنيته ، أو يلحق الأذى بواحـــد من مواطنيه ، بل على العكس من ذلك — ظهرت وطنيته فى أروع صورها ، فاستقال من عمله وتركه « حين طلب منه مطاردة أحـــد المجاهدين الثوار »(١٣) .

المعـــــــلم

ثم عمل بعـــد ذلك مدرسا بكلية النجاح بعـــد استقالته من عمله السابق لمدة أربع سنوات دراسية (١٩٣٣ — ١٩٣٧)(١٤) ولا شك أنه سلك سبيل استاذه ابراهيم طوقان فى غرس القيم الوطنية ، واشعال روح الثورة فى نفوس تلاميذه ، وقـــد كتب واحـــد من هؤلاء مقالا بمناسبة الذكرى الأولى لاستشهاده يقول فيه « درس المرحوم الأدب العربى فى كلية النجاح الوطنية ، وكان يلقن تلاميذه — وحسبى أن أكون أحـــدهم — دروسا فى الوطنية والقومية ، وكان فى أثناء تلك المدة مثال المعلم الصادق المخلص لأمته وبلاده »(١٥) .

القســـام والثـــورة

استشهد القسام واربعة من رجاله فى ملحمة بطولية سنة ١٩٣٥ كما عرفنا ، وكان استشهاده وما تبعه من حماقة حكومة الانتداب هـــو الشرارة

---

(١٣) الأســد : السابق ١٧١ · ومن المعروف ان حكومة الانتداب هى التى كانت تملك حـق تعيين الموظفين وعزلهم ، يستوى فى ذلك المناصب الصغرى والكبرى ، ويصدق ذلك على المناصب الدينية الكبرى كمنصب المفتى [انظر الخولى : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ٥٧٨] ·

(١٤) نافع السابق ٤٦ ، وقـد حقق الباحث ذلك اعتمادا على محاضر اجتماعات وجلسات المعلمين فى كلية النجاح ، وهـو بذلك أصح مما ذكره الزركلى فى الأعلام ٣٤٨/٣ من أن الشاعر ترك العمل بكلية النجاح سنة ١٩٣٦ ·

(١٥) عن السوافيرى : ديوان عبد الرحيم محمود (الدراسة) ٢٥ ·

التى استفحلت وتحـــولت الى نار مستعرة اسمها ثـــورة ١٩٣٦ أو الثـــورة الفلسطينية الكبرى . لقـــد وصـــفت حكومة الانتـــداب القسام ورجـــاله (بالأشقياء) ، وكان الرجل موضع اعتزاز الناس وحبهم واحترامهم(١٦) ، مما دفع عشرات الألوف من الناس أن تشيعه الى مقره الأخير ، وتحرش البوليس الانجليزى بمشيعى الجنازة ، فدحرهم المشيعون ، وتبعوهم الى مركز البوليس الذى دمروا أبوابه ونوافـــذه(١٧) .

وتفجرت ثورة ١٩٣٦ فى كـــل مكان ، فـــكان من الطبيعى أن يهرول عبد الرحيم محمود الى ميدان الثورة والجهاد « وانخرط فى كتائب الجهاد تحت قيادة القائد عبد الرحيم الحاج محمد ، واخذ يستهين بالمخاطر ، ويندفع نحو الموت ليظفر بنعمة الشهادة ، ولكنه لم يظفر بها فى تلك الثورة »(١٨) .

وانطلق بشعره يسعر من نار الثورة ، ويضرم عزيمة الشعب الذى « تمرس فى الصعاب فلم تنل منه الصعاب » ويسجل بطولاته فى مواجهـــة العـــدو الغاشم ، فيخاطبه فى قصيدته المشهورة « شعب فلسطين » ، وفيها يقـــول :

حييت من شــــــعب تخلـــ	ـــد ليس يعـــروه ذهـــــــاب
لفت الورى منــــك الزئيـــ	ـر مزمجرا من حـــــــول غاب
وأرى العـــدا ما أذهــل الدنـــ	ـيــا وشـــاب لـــه الغـــراب
عـــرف الطـــريق لحقـــه ..	ومشى لـــه الجـــدد الصـــواب

(١٦) يدل على ذلك ان الأحزاب الفلسطينية كانت تتنازع نسبة القسام اليها فى حياته ، فادعى الحزب العربى – وهو اكبر الأحزاب الفلسطينية – انه عضو فى اللجنة التنفيذية للحزب ، وادعى نفس الادعاء أحزاب اخرى ، مع أن الرجل لم يكن حزبيا على الاطلاق ، وكان هذا التنازع ، وذاك الادعاء بهدف كسب ود الجماهير التى كانت تعتز بالرجل وتحبه [انظر مجلة شئون فلسطينية مارس أبريل ١٩٨٥ . ص ٣٨ .

(١٧) الخولى : السابق ٥٨٥ .

(١٨) السوافيرى : السابق ٢٥ .

الحـــق ليس براجـــع ... لـــذويه الا بالحــــراب
والصرخـــه النـــكراء تجـــــدى لا التلطف والعتـــاب(١٩)

لقـــد كان الشاعر يؤمن ايمانا راسخا بأن الحق لا يرجع « لذويه الا بالحراب » ، وأن منطق القـــوة هـــو المنطق الوحيد الذى يجب أن يجابه به الأعـــداء لتخليص الأرض من الانجليز واليهود . وهـــو معنى كان يلح عليه كثيرا فى شعره كقوله :

واقم على الأشلاء صرحك انما من فوقه تبنى العـــلا وتقـــام
واغصب حقوقك قط لا تستجدها ان الألى سلبوا الحقوق لئام(٢٠)

ونظم فى هـــذه الفترة أشهر قصائده ، وهى التى كانت وما زالت نشيدا وطنيا رائعا يلهج به الكبار والصغار ، واعنى بها قصيدة « الشهيد »(٢١) التى يقول فى مطلعها :

ســـاحمل روحى على راحتى والقى بهـــا فى مهاوى الردى
فاما حيـــاة تسر الصـــديق واما ممـــات يغيظ العــــدى
ونفس الشريف لهـــا غايتان ورود المنـــايا ونيـــل المنى

ويرفض الشاعر مهادنة أعـــداء الوطن والتسليم بالحلول السلمية ، فالحق لا يؤخـــذ الا انتزاعا واغتصابا من سالبيه اللئام . وحينما تشـــكلت لجنة « اللورد بيل » التى شكلتها الحكومة البريطانية للتحقيق فى أســـباب الثورة ، ونشرت اللجنة تقريرها فى السابع من يوليو سنة ١٩٤٧ ، وكان من ضمن مقترحاتها « انشاء مجلس تشريعى فى فلسطين » ، ووجـــدت

---

(١٩) الديوان ١٢٨ .
(٢٠) الديوان ١٤٣ .
(٢١) الديوان ١٣١ .

مقترحاتها أو بعضها هــوى فى نفوس بعض الكبار والزعماء الذين لم يكونوا على مستوى المسئولية والقيادة يفزع الشاعر الى الشعب راثيا لحاله ، فهو منكوب بأمثال هؤلاء نكبته بالاستعمار الغاشم بوجهيه الانجليزى والصهيونى . يقــول عبد الرحيم :

يا شــــعب يا مســــكين لم	**تنكــب بنكبتــك الشــــعوب**
قلـــدت أمرك مـــن بهم	**لا يرجــع الحــق الغصــيب**
لهفــى عليـــك الا ترى	**يا شعب حولك ما يريب ؟[٢٢]**

وظــل عبد الرحيم يناضل أعــداء الوطن تحت راية القائد المؤمن التقى عبد الرحيم الحاج محمد ، فلما استشهد فى آذار ١٩٣٩ رثاه بقصيدة طويلة بلغت ستة وثلاثين بيتا ... لم يجــد فيها المرثى فحسب ، بل اتخــذ منها منطلقا لتمجيد البطولة والأبطال والشهادة والشهداء ، وقــد وصفهم وصفا رائعــا فى قــوله :

هم تعاويذ الحمى يقصى بهم	**عنه مكر السوء أوكيد الحسود**
تحــرق العــانى أنفــــاسهم	**ويذيبــون بهـا غــل القيود**
وعلى أكتـــافهم تجنى المنى	**ويشاد الصرح للعيش الحميد[٢٣]**

فى العــراق

وبعــد أن توقفت الثورة سنة ١٩٣٩ بدأت حكومة الانتداب تصفى حساباتها مع المجاهــدين والمواطنين الذين رفعوا سلاح الثورة والمقاومة ،

(٢٢) الديوان ١٢٩ .

(٢٣) الديوان ١٣٥ .

واخـــذت الحكومة تطاردهم فى كل مكان ، فأحس شاعرنا بالخطر يحيق به ، فتسلل الى العراق ، وعاش هناك قرابة ثلاث سنوات ٠

وفى العراق لم يخلــد الشاعر الى الراحــة ، بل حرص على أن يستكمل ثقافته العسكرية ، فالتحق بالكلية الحربية فى بغــداد ، وتخرج فيها ضابطا . ثم عين بعــد ذلك مديرا لاحــدى المدارس الابتدائية فى البصرة(٢٤) ، ولا شك أنه كان كعهدنا به ــ نموذجا طيبا فى عمله ، ومثالا يحتذى فى هــذا المجال ، وأنه ــ كما كان يفعل وهــو معلم فى كلية النجاح ــ كان همه الأول تربية تلاميذه على القيم الوطنية والأخــلاق ، وكراهيــة الاستعمار والذلة والخنوع .

وكشأن المجاهــد المتوثب الروح الذى طبعت نفسه على عشق الحرية ورفض الــذل أيا كان لونه وشــكله ، ما أن رأى شاعرنا هبة رشيد عالى الكيلانى وثورته فى وجــه الاستعمار الانجليزى حتى انضم الى الثورة سنة ١٩٤١(٢٥) ، فهو لم ينس أن الانجليز هم السبب الأول فى نكبة شعبه ، وأن دماء الأحرار سالت على أيديهم ، وبأيديهم ثبت اليهود أقــدامهم فى فلسطين ، وأنهم هم الذين طاردوه فترك وطنه الحبيب الى هــذا القطر الشقيق ، فليؤد اذن ضريبة الجهاد هنا فى العراق ، وقــد قامت الموانع ــ وهــو خارج وطنه ــ أن يؤديها على أرضه الحبيبة ... فالعــدو واحــد ، والوطن

(٢٤) كذا ذكر ناصر الدين الأســد فى كتابه ص ١٧١ ٠ وذكر الزركلى فى الأعلام ٣٤٨/٣ أنه عمل بالبصرة مدرسا ٠ ويذكر السوافيرى فى دراسته التى صــدر بها ديوان عبد الرحيم محمود ٠ أن حكومة العراق ، اختارته « لتدريس الأدب العربى فى مدارس بغـداد والبصرة ٠ وعلى اية حال يلتقى الكتاب الثلاثة على حقيقة تاريخية أساسية وهى أنه اثناء اقامته فى العراق ، وبعـد تخرجه فى الكلية الحربية ظـل مدة يؤدى مهمة تعليمية فى حقل التربية والتعليم مديرا أو مدرسا ، وربما جمع بين العملين فى مدرسة واحـدة ٠

(٢٥) كان مفتى فلسطين يومئذ لاجئا الى العراق ، ومعه عـدد من المجاهـدين وعلى رأسهم عبد القادر الحسينى (١٩٠٨ ــ ١٩٤٨) وقـد اشترك هؤلاء الفلسطينيون فى المعارك التى خاضها الجيش العراقى ضـد القوات البريطانية ٠ [أنظر السوافيرى : الشعر العربى الحديث فى مأساة فلسطين ١٨٧ ٠ والأعلام للزركلى ٤٧/٤ ٠ والشاعر عبد الرحيم محمود بطل معركة الشجرة : رشيد جبر الأســعد ٤١ ٠

العربى واحـد مهما تعـددت الأسماء والتقسيمات ، وكا ايمانه بالعروبة ايمانا قـويا راسخا بلا حـدود وهو القائل :

أبغير مجـد بنى نزار ويعرب ... يزهى عراقى ويفخر شامى[٢٦]

ان تسـألوا عنى الى من أنتمى ... فالى رعاة النوق والأغنـام

وهنا لابد من وقفة أمام هـذه الفترة التى قضاها الشاعر المجاهـد فى العراق ، لقـد كانت هـذه السنوات الثلاث « **عامرة بالاعداد والعمل** » :

ففيها التقى ببغـداد مع رجال المعرفة والشعر والأدب فكان لـه مساجلات ثقافية وادبية مع أدباء وشعراء فى بغـداد ، مع الشاعر معروف الرصافى ، والشاعر محمد مهدى الجواهرى ، والشاعر جميل صدقى الزهاوى وادباء من القطر الشقيق[٢٧] .

وفيها استكمل الشاعر — على مستوى عال — دراسـته الحربية واعـداده العسكرى . وفيها عمل فى حقل التعليم مديرا أو معلما ، وهـو مجال آخر يتسع للجهاد بالكلمة والتوجيه لاعـداد الأبناء لمستقبل مناضل ٠

وفيها اشترك اشتراكا فعليا فى أشهر ثورة فى تاريخ العراق وهى ثورة رشيد عالى الكيلانى (١٨٩٢ — ١٩٦٥)[٢٨] .

---

(٢٦) ديوان عبد الرحيم محمود ١٢٣ ٠

(٢٧) رشيد جبر : السابق ٤٣ ٠

(٢٨) عمل الكيلانى محاميا ، وشارك فى ثورة العراق سنة ١٩٢٠ ، ثم عمل وزيرا للعدل وتولى رياسة الوزارة العراقية أربع مرات اولها سنة ١٩٣٠ ، وفى سنة ١٩٤١ قام أربعة من الضباط بثورة على أوضاع الدولة بالاتفاق معه ، وأقاموه رئيسا لحكومة الدفاع الوطنى ، وحاربه الانجليز مستعينين بالجيش الاردنى بقيادة جلوب باشا ، وكانت معركة الكاظمية هى الحاسمة اذ هزم فيها الجيش العراقى وأخفقت الثورة ، وهرب رشيد الى فرنسا وبيروت ودمشق والرياض ومصر الى أن توفى فى بيروت سنة ١٩٦٥ [انظر الأعلام للزركلى ٢٣/٣ ٠ وراجـع كذلك : د٠ زكى صالح : مقـدمة فى دراسة العراق المعاصر ١١٠ ـ ١١٥ ٠ والسيد عبد القـادر الحسنى : تاريخ العراق السياسى لحـديث الحزء الثالث من ص ٢٢٣ الى ص ٢٢٥ ٠

ولا نشك أن الشاعر كان قلبه يتدفق بالحنين الى ارضـــه الحبيبة فلسطين ليواصل الجهاد المسلح مرة اخرى ، وقـــد نظم قصيدة طويلة بعنوان « حنين الى الوطن »[٢٩] ختمها بقوله :

يا بلادى ارشـــفينى قطرة ... كل ماء غير ما فيـــك كدر

ليت من ذاك الثرى لى حفنه ... أتملى من شـــذا الترب العطر

وهنـــاك قصيدة أخرى كانت من وحى الغربة أيضا املاها الشـــعور الحاد بالوحشة ، وهـــو شريد طريد ، وعنوانها « حجر فى كثبان رمل »[٣٠] : وقـــد صدرت القصيدة بالعبارة الآتية « بين تدمر والعراق مهمة (صحراء) قـــدر للشاعر أن يقطعه طريدا ، ووجـــد نفسه غريبا غربة حجر هناك ، فأسند ايه راسه ، وراح يفكر فيه ، وهـــو يؤكد أن الحجر دله أخيرا على الطريق » ، وفى مطالعها يقول مخاطبا هـــذا الحجر المتفرد فى الصحراء :

فيم انفـــــرادك لا أنيـ ... ـس تراه فى القفـــر المخيـــف

فى ربقـــــة الوهـــج الحـــرو ... ر وغـــل عاصـــفة عصـــوف

وصـــبرت للهـــوج اللـــوا ... فح فى الضحى صبر الأنوف

وطلبت وحـــــدة راهـــــب ... فيهـــــا وعـــزلة فيلســـوف

....

تعلـــو على نغـــــم الأنيـــ ... ـن ونشـــجة القلب الكســـير

---

(٢٩) الديوان ١٤٠ .

(٣٠) الديوان ١٦٦ . ويرى الدكتور السوافيرى ناشر ديوان عبد الرحيم محمود فى طبعته الثانية أن الشاعر ليس له فى الغربة والحنين الا قصيدة واحـدة هى التى أوردنا منها البيتين السابقين . والغريب انه لم يشر الى هـذه القصيدة . قصيدة « حجر فى كثبان رمل ، مع أنها احـدى قصائد الديوان .

أم كنت شاهد مصرع الأخـــــلاق فى البيت الكبير

فهـربت انك فى الجمـــا د اذن لـــذو اسمى شـــعور

لقــد اسقط الشاعر عبد الرحيم محمود غربته على حجر ، جاعلا منه رمزا للانفراد والغربة كما يحسها الشاعر(٣١) .

وكأنى بالشاعر — برؤية شفيفة يرمز أو يلخص — وهو بعيد عن أرضه فى طريقه الى مغتربه — مأساة الانسان الفلسطينى الذى « انفرد » يناضل . وحوله « تفر » من الضمائر الخراب ، و « عواصف » من المؤامرات ، و « لوافح » من أسنة شحذت بليل ، ومدى تقطر بالدم والويل والعــذاب ، اما الأخلاق فصريعة فى عالم منكوس منكود . وعلى الرغم من كل أولئك ، فما زال هــذا الانسان أشم شامخا ، لأنه تعالى على « نغم الأنين » وانتصر على « نشجة القلب الكسير »(٣٢) .

والمعروف أن ديوان الشعر العربى من اول نشأته وعلى امتداد عمره الطويل غاص بآلاف القصائد التى تتدفق بآهات الأشواق وزفرات الحنين الى الوطن والأرض والأهل ومرابع الصبا والطفولة والذكريات ، وهـــو ما نسميه بشعر الاغتراب والحنين ، وهـــو « لون واضح القسمات فى أدبنـــا العربى مثل شعر الغزل ، وشعر الرثاء وشعر المديح وشعر الفخر ، بل لعله يتميز بملامح قلما تكاملت فى لون من الألوان الأخرى »(٣٣) .

---

(٣١) خالد على مصطفى : الشعر الفلسطينى الحديث ٤٥ .

(٣٢) جابر قميحة : قمة لا تنحنى ، وقدوة لا تحيد : مقال عن الشاعر عبد الرحيم محمود : مجلة الرائد الكويتية . العدد ١٦٦ السنة الخامسة ٧ ـ ٢ ـ ١٩٧٤ .

(٣٣) د. ماهر حسن فهمى : « الحنين والغربة فى الشعر العربى الحديث » .

وانظر كتاب « الحنين الى الوطن للجاحظ » ، وقد عرض فيه ضمن ما عرض ما قيل شعرا ونثرا فى حب الوطن والتشوق اليه ، كما عرض صورا عملية لهذا الحب ، ومنهـا على سبيل التمثيل أن العرب كانت « اذا غزت وسافرت حملت معها من تربة بلادها رملا وعفرا تستنشقه عند نزلة أو زكام أو صداع .

ومن عجب أن يغيب الشاعر عن وطنه ثلاث سنوات كانت من احفــل سنى حياته بالاعـــداد والعمل والجهاد ضـــد الانجليز فى صـــف الشـــعب العراقى فى ثورة الكيلانى ، ولا نقف الا على قصيدتين فقط من شعر الغربة والحنين الى الوطن . وقـــد حاولنا البحث عن تفسير لهـــذه الظاهرة التى تكاد تكون عـــديمة النظير أو على الأقل نادرة فى ديوان الشعر العربى[٣٤] .

ليس هـــذا فحسب ، بل من حقنا ان نسأل كذلك « اين العراق فى شعر الشاعر ؟ » لقـــد اشترك فى ثورة الكيلانى بحماسة وعن رضى واقتناع ، فأين ثورة الكيلانى فى شعره ؟ . واذا كان العراق كمهجر ومغترب لم يلهمه قصيدة واحـــدة أو بيتا واحـــدا من الشعر ، ألم تهز ثورة الكيلانى وجدانه ومشاعره لتجود قريحته بقصيدة او قصائد ؟

وحتى لو افترضنا ان الشاعر عبد الرحيم محمود كان مقـــلا فى نظمـــه فاننا نجـــد من الصعب — ان لم يكن المستحيل — ان نسلم بأن اهم حدث فى تاريخ العراق فى النصف الأول من القرن العشرين — يمضى دون وقفة من الشاعر ، ودون أن ينظم فيه قصيدة واحـــدة .

عـــودة الى الوطـــن

على اية حال عاد الشاعر الى وطنه سنة ١٩٤١ ، لم يعـــد متسللا مستترا كما غادره من ثلاث سنوات ، ولكنه عاد فى وضح النهار ، بعـــد أن هـــدأت الأحوال فى فلسطين الى حـــد ما ، وشغلت بريطانيا بحربهـــا الضروس ضـــد دول المحور ، وبدا انها أغمضت عينيها ، وخففت من وطأة ضغطها عن الشعب الفلسطينى طمعا فى تعاطفه معها فى حربها ، أو على الأقـــل تهـــدينا لثائرته . عاد الشاعر ، وهـــو نهب لشعورين متعارضين : شعور بالأسى والمرارة لاخفاق ثورة الكيلانى التى لو قـــدر لهـــا أن تنتصر

---

(٣٤) انظر الفصل الذى عقـدناه فى هـذا الكتاب بعنوان « قصة الديوان المظلوم » .

لأمدت شعوب المنطقة بطاقة نفسية هائلة ، ولكان العراق ركيزة ومنطلقا لثورات أخرى فى المنطقة العربية .

ويقابل شعوره هـذا شعور بالفرح لعودته الى أهله ووطنه ، وعودته الى مهنته التعليم فى كلية النجاح التى تخرج فيها ، وعمل فيها معلما من قبل لمـدة سنوات بعـد تخرجه ، واستقالته من عمله شرطيا فى حـكومة الانتـداب .

« وفى خلال هـذه الفترة (من ١٩٤١ — ١٩٤٨) نظم عبد الرحيم أكثر قصائده ، ونشر الجزء الأكبر من شعره فى صحف فلسطين »(٣٥) وعاش الشاعر يقـدس عمله فى كلية النجاح ويعتبره نضالا صادقا فى سبيل امته ، وكان ينتهز الفرص والمناسبات المختلفة فيلقى قصـائده الوطنية والدينية على طلابه ومنها على سبيل التمثيل قصيدة « كتاب أضاء دياجى الظـلم » التى ألقاها على خريجى كلية النجاح بنابلس ١٩٤٣/١٩٤٤(٣٦) ، وقصيدة « القرآن الكريم » التى ألقـاها فى أحـد مهرجانات كلية النجـاح ١٩٤٤/ ١٩٤٥(٣٧) وقصيدة « روض وانى عندليبه » التى القاها على الطلاب كذلك سنة ١٩٤٥(٣٨) أما أطول قصائده (احاجى فى ذكرى وعـد بلفور — وقـد ألقاها فى فندق فلسطين سنة ١٩٤٧) فقـد أشرك معه واحـدا من طـلابه ليجيب على هـذه الأحاجى)(٣٩) .

وبعـد عودة الشاعر من العراق سنة ١٩٤١ تزوج ابنة خاله وكـان ثمرة زواجهما ثلاثة أولاد : الطيب سنة ١٩٤٣(٤٠) ، ورقيـة سنة ١٩٤٥ ،

---

(٣٥) السوافيرى : ديوان عبد الرحيم محمود (الدراسة) ٣١ .

(٣٦) جرار : شاعران من جبل النار ٢٦٧ .

(٣٧) السـابق ٢٧٢ .

(٣٨) السـابق ٢٩٨ .

(٣٩) السـابق ٢٥٧ .

(٤٠) وهـو يعمل حاليا (١٩٨٦) ممثلا دائما لمنظمة التحرير الفلسطينية بالقـاهرة وقـد أمدنى بمراجع قيمة عن والده الشهيد .

وطـــلال سنة ١٩٤٧[٤١] .

لقـــد عاش الشاعر حياته يحمل روحـــه على راحته ــ كما يقول ــ ، وباحساس غيبى شفيف عاش يتغزل فى الاستشهاد ، ويتعاطف مع صوت الموت والفـــداء ، وكان المعنى الذى يلح عليه فى بعض قصائده ــ كتصيدة الشهيد ــ انه سائر الى النهاية ، وأنه يرى بعينيه مصرعه ، وأن الاستشهاد غاية أمثاله من المناضلين الشرفاء :

روحى عبء مثقـــــل عاتقى ... أيان ألقى العبء عن عاتقى[٤٢]

متى أرانى بت طـــى الثرى ... يسحقنى بالكلكل الساحق[٤٣]

ســأحمل روحى على راحتى ... وألقى بهـــا فى مهاوى الردى[٤٤]

حملت على يدى روحى وقلبى[٤٥]

غايتى ألقى المنـــايا عاجـــلا[٤٦]

يا ليتنى أشـــلاء فى مهمـــه ... مناشة الناعب والناعـــق[٤٧]

لعمـــرك ها قـــد دنا مصرعى ... وانى أغـــذ أليـــه الخطى[٤٨]

لا أخال العمر الا لحظـــــة ... ثم تمضى حيث تمضى هـــربا[٤٩]

---

(٤١) نافع عبد الله : الشاعر عبد الرحيم محمود ٥٢ . والأسـعد : عبد الرحيم محمود بطل معركة الشجرة ٨٠ .

(٤٢) ديوان عبد الرحيم محمود ١٦٣ .

(٤٣) الســـابق ١٦٣ .

(٤٤) الســـابق ١٣١ .

(٤٥) الســـابق ١٤٧ .

(٤٦) الســـابق ١٣٢ .

(٤٧) الســـابق ١٦٣ .

(٤٨) السابق . وانظر قميحة فى مجلة الرائد المشار اليها سابقا .

(٤٩) جرار : شاعران من جبل النار ٢٧٨ .

وشاء القــدر أن يكون قرار التقسيم فى ٢٩ من نوفمبر سنة ١٩٤٧ ايذانا ببداية السير نحو تحقيق الغاية المثلى التى رآها الشاعر باحساس ايمانى شفيف ، فقــد التحق بجيش الانقاذ برتبة ملازم ، واشترك فى معارك متعــددة كان فيها جميعا مثالا للثبات والبطولة .

وكانت آخر المعارك التى اشترك فيها الشاعر هى معركة الشجرة التى نشبت بين العرب واليهود فى ١٣ من تموز سنة ١٩٤٨ ، وأصيب الشاعر بشظية مدفع ، فحمله رفاقـــه فى ســيارة جيب يريدون به المستشفى فى الناصرة ، ولكن السيارة هــوت به فى واد سحيق ، ففاضت روحه(٥٠) ، وجاءت نهاية كما تمناها وهــو فى بواكير كفاحه ، من اجل تخليص الوطن ، وتحقيق حريته ، بل كما رآها بحاسه المؤمن من سنوات بعيدة ، وكأنه ينظر الى الغيب من ستر رقيق .

الشــعر والخــبر

هــذه هى مسيرة حياة الشاعر التى استغرقت خمسة وثلاثين عاما كانت مشحونة بالكفاح والمعاناة والآمال والآلام . وقــد تعمدنا أن نصحب الشاعر فى مسيرة حياته من الخارج ابتداء ، وان كان لنا وقفات لم تطل امام تفاعله مع الأحــداث والواقع القومى الذى عاصره بكل ما فيه من متاعب وآلام وآمال ، ولكن كل أولئك لا يغنى عن « مسيرة استبطانية » فى أعمــاق

---

(٥٠) الأعلام للزركلى ٣٤٨/٣ ، ولكن الأستاذ عارف العارف فى كتابه : النكبه : الجزء الثالث (٦٢١ – ٦٢٧) ، وقــد كتب كتابة وافية عن هــذه المرحلة الأخيرة من حيــاة عبد الرحيم لم يشر الى هــذه الواقعة ، وذكر انه اصيب فى هــذه المعركة برصاصة لا بشظية مدفع . وأصح هــذه الروايات ما ذكره أحــد رفاق عبد الرحيم فى موقعة الشجرة وهــو الملازم عبد الرازق المــالكى من ضباط جيش الانقــاذ يقول « ... وتقــدم ابو الطيب (عبد الرحيم) بأفراد سريته وأدار المعركة وكسر الطوق عن العرب المحاصرين ، وقــد أصيب بقنبلة « سلبند » خلال الزحف ... وفارق الحياة بعــد أقــل من ربع ساعة ، وسحبناه على الأرض وسط رصاص المعركة الكثيف الى قرية « طرعان » القريبة ومنها نقلناه فى سيارة عسكرية الى الناصرة ... وشيعجثمانه من المستشفى الى المقبرة الاسلامية فيها [انظر نافع : الشاعر عبد الحيم ٥٠] .

الشاعر نخلص منها الى صورة نفسية اخلاقية له معتمدين على ما عرف من اخبار حياته ، ودلالات هـــذه الأخبار ، ومعتمدين كذلك على شعر الشاعر الذى يعتبره العقاد اصـــدق ترجمه لحياته الباطنية(٥١) ، فان اصـــدق الشعراء فنا وحياة لمن تعرفه بديوانه ، وتعرفه لديوانه(٥٢) . ولكن الاعتماد فى استخلاص ابعاد شخصية الشاعر من شعره فحسب قـــد يؤدى بنـــا الى نتائج غالطة ، فمن الشعراء من ينظم الشعر بداعية الانفعال الصـــادق الأمين ، والوجـــدان المتوهج ، ومن الشعراء من ينظم الشعر تقية دون أن يؤمن بما نظم على حـــد قول القائل :

دعـــوا باطـــلا وجلوا صارما وقالـــوا صـــدقنا فقلنـــا نعم

ومن الشعراء من ينظم قصيده او بعضه على سبيل « اثبات الوجود » ولشد أنظار الآخرين اليه ، بغض النظر عن الموضـــــوع الشعرى والقيمة الفنيـــــة .

وقـــد كان العقاد على حـــق فى نقـــده لأنطـــون الجميل فى كتـــابه « شوقى شاعر الأمراء » حين استنبط صورة اخلاقية نفسية لشوقى من شعره الذى يطرى فيه الصفات الطيبة والقيم الوطنية والانسانية ، وهـــو يتفق معه فى المنطلق الأساسى وهـــو صحة الاستدلال على الشاعر من شعره ، ولكنه يخالفه فى التطبيق الخاطىء الذى اخـــل بالقاعـــدة الصحيحة كـــل الاخلال حيث لا يلزم من الثناء على الفضائل اتصاف الشاعر بها : فالشاعر قـــد يثنى عليها لاتصافه بهـــا ، أو لأنه يحب أن يشتهر بالثناء عليهـــا ، او لحرصه على مجاراة العرف السائد وارضاء الجماهير »(٥٣) .

وامام هـــذه المواقف والأحوال لابد أن تستند دراسة هـــذا الشعر — لمعرفة أبعاد شخصية الشاعر — الى العامل أو « العوامل المساعدة » كما

---

(٥١) العقاد : أبو نواس ١٤٢ .

(٥٢) العقاد : شاعر الغزل ٧ .

(٥٣) جريدة الجهاد ١٩٣٣/١/١٧ ، واعيد نشره فى : آراء فى الآداب والفنون ٢٩ .

يقـول التجريبيون ، والتى تتمثل فى شـهود العصر ، والظروف الاجتماعية والسياسية وبواعث النفس وقرائن الأحـوال ، حتى نستطيع أن نرى صورة الشاعر بكل ملامحها حية بيننا منتفضة نابضة(٥٤) .

فمن هـذين المصدرين : الخبر وشعر الشاعر نستخلص ابعاد هـذه الشخصية التى أرى انها لم تاخـذ حقها فى التاريخ والتاريخ الأدبى . على أننا يجب أن نتنبه — بادىء ذى بدء — الى أن الاشكال الذى أثاره العقاد ، أو المـاخـذ الذى سجله العقاد على انطون الجميل فى منهجه الذى اعتمـد فيه على الايمـان المطلق بشعر الشاعر . لاستخلاص سماته الشخصية مع أن حياته فى واقعها قـد تختلف بل تتناقض مع ما نظمه فى شعره ، اقـول ان هذه المشكلة لا تقابلنا ونحن نحاول استبطان شخصية شاعرنا عبد الرحيم محمود ، لأننا من البداية الى النهاية لن نجـد غالبا تعارضا فى حياته بين « الموقف » و « الشعر » .... بين « الواقع » و « الكلمة » ، اذ أن شـعره فى مجموعة ، وخاصة الوطنى القومى كان انعكاسا لمواقف شامخة أو تعبيرا عن واقع شريف ، أو معاناة دامية . ومواقفه فى مجموعها كانت تجسيدا لقيم عليا عبر عنها فى شعره ، ومن ثم كان « الموقف » متلاحما مع الكلمة المنظومة ، وكان كذلك متسقا متناغمامتوافقا معها دون ما تنافر أو اختلاف . فاستخلاصنا « سمة » للشاعر من « موقف » يستوى فى القـدرة والابانة مع استخلاصنا « سمة » للشاعر من « كلمـة » أو « بيت » أو « قصـيدة » ... فكلاهمـا « تعبير مفعول » وكلاهما « موقف منطوق » ان صح هـذان التعبيران ، وحسب الشاعر أن يكون « الموقف » مرادفا « للكلمة » فى حياته .

الشـاعر المؤمـن

والذى يقرأ شعر الشاعر — على قلته النسبية — ويتتبع اخبـاره فى صفحات حياته — على قلتها ايضا .. يخرج بانطباع قوى مؤداه انه شاعر

(٥٤) جابر قميحة : منهج العقاد فى التراجم الأدبية ٤٤١ ، وانظر عرض القضـية ومناقشتها بكل جوانبها ٤٣٢ — ٤٥٠ .

مؤمن صادق الايمان ، سليم التدين ، قوى العقيدة . فلا عجب ان يرى أن الايمان بمفهومه الشامل هـــو الوسيلة المثلى لتحقيق النصر ، فيقول :

غير أن الايمان بالحـــق والرو ح جـــدير بالنصر جد جـــدير[٥٥]

وفى حياة الشاعر — غير أستاذه ابراهيم طوقان — شخصيتان تأثر بهما ، وآمن بمنهجهما فى الحياة ، وكلاهما كان على مستوى رفيع من التدين والايمان بالله ، وهما : عبد الرحيم الحاج محمد الذى جاهـــد عبد الرحيم محمود تحت لوائه « وتذكر المصادر التى تناولته أنه كان قائدا مظفرا ، تقيا ، مؤمنا بربه ، وأنه ضم حوله نفرا من المثقفين كانوا له بمثابة المستشارين والأعـــوان المخلصين ، وكان الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود واحـــدا منهم »[٥٦] . وقـــد استشهد عبد الرحيم الحاج محمد فى قرية « سانور » فى ٢٦ آذار سنة ١٩٣٩[٥٧] .

وفى عبد الرحيم الحاج نظم عبد الرحيم أطول مرثية لـــه ، وفيها يعتز بأن عبد الرحيم الحاج هـــو المثل الأعلى الذى سيظل خالدا أبد الدهر ، لأنه مات ميتة الشرفاء ، ورفض ذل العبيد وحياة الأسر . يقـــول الشاعر مخاطبا القـــائد الشهيد :

يا شهيدا قـــد تخـــذنا قبسا منه يهدينا الى النهج السديد

مثـــــل انت وما أن تنتسى لانثنى ترويك أفـــواه الوجـــود

مت فى الحرب شريفا لم تطق ربقـــــة الأسر ولا ذل العبيد[٥٨]

وقبل عبد الرحيم الحاج كان هناك عز الدين القسام رجل الدين الذى ملأ الأسماع والأبصار فى الساحة الفلسطينية ، والذى بدأ أولى خطـــوات

---

(٥٥) الديوان ١٤٥ .

(٥٦) السوافيرى : ديوان عبد الرحيم محمود : هامش ١٢٩ .

(٥٧) السابق نفس الصفحة .

(٥٨) الديوان ١٣٥ .

الجهاد العملى سنة ١٩٣٠ بتنظيمه المسمى « باليد السوداء » ، وقــد ذكرنا من قبل اننا لا نستبعد ، بل نرجح اتصال عبد الرحيم بالقسام وتعاونه معه ، وربما كان انخراطه فى سلك الشرطة بدافع وطنى وهو أن يكون عينا لتنظيم القسام وللمجاهــدين على سلطات حكومة الانتداب . وكان القسام يرى أن وسيلة الخلاص ، وعــدة التحرير تتلخص فى : « جعل كتاب الله فى يد ، والبندقية فى يد أخرى »(٥٩) . فمفهوم الجهاد عنده يرتكز على أساس من الدين الذى يدعو الى مقاتلة الغاصبين والمعتدين . وكما وصف عبد الرحيم محمود نهج عبد الرحيم الحاج محمد بانه « النهج السديد » وصف كذلك نهج القسام بأنه النهج الوحيد للحياة العزيزة الكريمة ... نهج القوة والكفاح واغتصاب الحقوق من سالبيها اللئام :

هذى طريقك للحياة فلا تحـد قــد سارها من قبلك القسام(٦٠)

وعلى هــذا النهج القويم استشهد الثلاثة : عز الدين القسام سنة ١٩٣٥ ، وعبد الرحيم الحاج محمد سنة ١٩٣٩ وعبد الرحيم محمود سنة ١٩٤٨ .

وغير هؤلاء الثلاثة : طوقان والقسام وعبد الرحيم الحاج هناك شخصية رابعة كان لها تأثيرها فى حياة الشاعر وسلوكه — وان كان ذلك على نحــو اقــل عمقا — وهــو الشيخ « محمود حنون » وهــو احــد علماء نابلس وشيوخها الأفاضل ، وفيه نظم الشاعر قصيدة المدح الوحيدة فى ديوانه(٦١) .

وقــد تعمق الشاعر دراسة الأدب العربى : شعره ونثره دراســة أهلته لأن يقوم بتدريس مادة الأدب العربى فى كلية النجاح وفى العراق ، كما أنه قرأ القرآن وعايشه تلاوة وحفظا ودراسة . وقارىء ديوانه يلاحظ فى وضوح كثرة الالفاظ والتراكيب القرآنية والدينية فى شعره مما سنفصله فى

---

(٥٩) د. عواطف عبد الرحمن : مصر وفلسطين ٢٥٦ .

(٦٠) الديوان ١٤٣ .

(٦١) جرار : شاعران من جبل النار ٣٠٧ .

صفحات قادمات[٦٢] ، وهــذه الطوابع القرآنية والدينية لا تتــأتى الا لمــن كان يحفظ القرآن حفظا جيدا ... حفظ حب واعتزاز نابعين من عقيدة عميقة ، وسلوك دينى سليم .

وقــد عاش الشاعر طيلة حياته سليم التدين ، يدل على ذلك سلوكه العملى الذى لم تشبه شائبة من فساد او انحراف وتهتك . وقــد تعجــل احــد الكتاب الذين كتبوا عن مسيرة الشعر الفلسطينى[٦٣] فحكم على عبد الرحيم « بأنه كان اذا غلبه الأسى لا يجــد مهربا منه الا الخمر » .

وهــو ــ ولا شك ــ حكم جائر جانبه الصواب ، فليس فى حيــاة الشاعر ما يدل على انه كان يشرب الخمر أو على الأقــل ما يدل على ادمانها فالشاعر الذى رصــد نفسه للجهاد طيلة حياته لا يسقط مثل هــذا السقوط ، وما أرى الا أن الكــاتب قــد خــدع « بالخمرية » الوحيدة التى نظمهــا عبد الرحيم بعنوان « جفت على شفتى الأمانى »[٦٤] والتى يقول فيها :

هات اســقنى كأســا لأنسى	**فــوق أرضك ما كيــانى**
هات اســقنى حتى أحــلـ	**ـق من سمائى فى العنــان**
وافر من شرك الزمــا	**ن ومن أحابيــل المــكان**

والنص ــ أى نص ــ لا يمكن ان ينفرد بتفسير شخصية الشــاعر واستبطان أعماقه ودروبه ، بل لابد من أن يكون وراءه « توثيق » من أخبار الشاعر ووقائع حياته ، كما ذكرنا من قبل ، وخصوصا اذا كان الشاعر مثلا مثل عبد الرحيم محمود .

واعتقد ان الشاعر قــد نظم هــذه القصيدة على سبيل التقليد ،

---

(٦٢) انظر ديوان الشاعر الصفحات ١٢٦ ، ٣٢ ،١ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤٧ ، ١٦٣ ، ١٨٦ .

(٦٣) خالد على مصطفى : الشعر الفلسطينى الحديث ٥٢ .

(٦٤) الديوان ١٦٨ .

وترسم خطى الأقــدمين مثل أبى نواس وغيره . عى أننــا نكتشف بعــد عــدة أبيات ان الخمر التى يحرص الشاعر عليها هى « خمر الجمال » لا « خمر الدنان » ... جمال العيون والنحور والورود والأقحوان :

هات اسـقنى واجعـل كئو	**س الراح أفـواه الحسـان**
فاذوقهــا ممزوجــة	**بشذا الهـوى ولغى الحسـان**
أو فاسـقنيها فى العيـو	**ن الموحيـات لى المعــانى**
أو فى النحـور البيض تفـ	**رى فـوق اغصـان لـدان**
او فى كمـام الورد ريــا	**أو ثغــور الأقحــوان**

وهـو معنى تردد مئات المرات فى الشعر العربى قـديمه وحـديثه ، وأذكر منه قصيدة خليل مطران التى قالها فى « الكسندرا دى أفرينوه » ومطلعهــا :

يا عيونا تسقى العيون الرحيقـا	**واصلى مدمنا أبى ان يفيقـا**
اسكرينى على الدوام وأفنى	**مهجتى أدمعـا وعزمى حريقـا**
تلك خمر الحياة من لم يذقها	**مرة ليس بالحياة خليقـا(٦٥)**

وان من يقرأ شعر عبد الرحيم ويتابع تفاصيل حياته يشعر بل يؤمن أنه لم يخلق لمثل هـذا العبث وذاك التهتك ، ويرى ان هـواه لغير ابنة العنب وأن نشوته بشىء آخر غير الكأس فهو يقول :

لغير فؤادى بابنة الكرم سـكرة	**وسلوى،وغيرى هام فى عطر الريق**
وما سكرى الا دم الظلم مهـدرا	**ومن لحمه نقلى وفى الصحف ابريقى**
ولم يكن الظـل الظليل بمقعـد	**لنفسى فنصل السيف يعلو مجاميقى(٦٦)**

(٦٥) ديوان الخليل ٤٧/١ .

(٦٦) جرار : شاعران من جبل النار ٣٢٥ . والنقل (بضم النون) ما يؤكل على مائدة الشراب . ولعل الصحيح : الصفح (بضم الصاد) جمـع صفيحة وهى السيف العريض ، لا الصحف .

ويندرج تحت هـــذه السمة ـــ سمة الايمان بمفهومه العقدى والسلوكى ـــ ايمان شاعرنا بوطنه ، وقضية خلاصه من الطغاة والبغـــاة مهمـــا كانت التضحيات ، وهـــو ايمان يحكمه نقـــاء ثورى عتيد ، يتلخص فى أن يكون الوطن هـــو الأيديولوجية الاولى والأخيرة بل الوحيدة للمناضل . والوطن فى ايديولوجية عبد الرحيم محمود مفهوم له شقان :

الأول : مادى : ويعنى الأرض التى يعيش عليها أصحابها .

والثانى : معنوى : ويعنى الفكر والعقائد والتراث الانسانى الـــذى نشأ على هـــذه الأرض على مدى قرون طـــويلة نتيجة الجهـــد والجهاد والمعاناة . وهما شقان يمثلان وجهين لعملة واحـــدة ، بحيث تصبح محاولة الفصل بينهما عملا مناقضا لطبائع الأشياء ، وانسلاخا من النضال والثورية .

والعقل لا يستسيغ ، ولا يستطيع أن يؤمن « بمناضل » يدعى الايمان بالأرض ، ويكفر بما قام عليها من تراث ، وأشرق عليها من رســـالات ، وارتبط بها من قيم فكرية .

ولعـــل آفة النضال الفلسطينى فى وقتنا الحاضر هـــو ارتباط هـــذا النضال ـــ بالنسبة لبعض المنظمات والأفراد ـــ بأيديولوجيات وافدة غريبة . . . غريبة على تراثنا وأرضنا وديننا ، وغريبة على مزاجنا النفسى ، وتكويننا الفكرى ، واسوأ ما فى الأمر أن يكون لهـــذه الأيديولوجيات شعراء يرفعون أصواتهم بالدعوة لهـــا ، وبثها على كل المستويات بحيث يمتزج صوت الكفاح الفلسطينى ، وخصوصا بعـــد نكسة ١٩٦٧ بهـــذه النزعة الوافدة الغريبة . وخطورة هـــذا المزج تتضح اذا ما نظرنا الى الملامح والحقائق الآتية :

١ ـــ المزج بين المســـيرة النضاليـــة وهـــذه الأيديولوجيات ـــ وهى يسارية ماركسية فى طابعها العام ـــ يعـــد صراحة أو ضمنا انفصاما فادحا عن التراث الدينى والفكرى ، لأن ثمة نوعا من الالتزام الفكرى المناقض لهذا

التراث فى مناحيه وفروعه المختلفة ، وخصوصا اذا تلبست هذه الأيديولوجيات بطـوابع الحـادية .

٢ — أصحاب هـذه الأصوات فى شعرهم وانتاجهم الأدبى ينسون أو يتناسون أن جريمة اليسار الشيوعى العالمى لا تقل عن جريمة المعسكر الرأسمالى فى خلق اسرائيل وتدعيمها ، فهى اذن أصوات تتسم بالغفـلة أو التغـافل .

٣ — على أن اهم مخاطر هـذا الاتجاه أنه يبدد جانبا من الطـاقة الثورية فى صورتها الفنية والنضالية ، ويسوقه فى درب غير درب القضية القـومية .

٤ — وأخيرا يفقد هـذا المسلك القضية الفلسطينية قوامها وشخصيتها وملامحها القومية الخاصة الأصيلة ، لأنه يربطها بفكرية بعيدة غريبة تمخضت عن مفاهيم ممسوخة مشوهة للعـدل والأرض والقومية والسلام والانسان .

وتلك كانت السقطة الكبرى التى سجلت على الثلاثى : محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد مما يفتح الباب لكلام كثير جـدا فى تقييم الطبيعة الثورية لهؤلاء(٦٧) ، اذ أن شعرهم لم يكن معرضا للفكر المـاركسى الحـاد فحسب ، ولكنه كان كذلك معرضا للسخرية من الذات الالهية والسـخرية من النبوات(٦٨) .

كان لابد من هـذا الاستطراد لنتبين فى وضوح حـدود الايمان الوطنى الثورى عند عبد الرحيم محمود بعـد أن أصبح صوت الثلاثى الفلسطينى : درويش والقاسم وزياد هـو أرفع الأصوات واعلاها رنينا وصـدى فى

(٦٧) أنظر مقالنا عن عبد الرحيم محمود فى مجلة الرائد الكويتية .

(٦٨) أنظر د. عبده بدوى : « وجهة نظر فى الشعر الفلسطينى المعاصر » وهـو مقال فى مجلة الشعر . العـدد ٢٧ يوليو ١٩٨٢) .

وانظر : جابر قميحة « لكى لا تحرثوا فى البحر » مقال فى مجلة الرائد الكويتية . العـدد : ١٥٩ السنة الرابعة (١٣ من ديسمبر ١٩٧٣) .

الستينيات والسبعينيات بصفة خاصة ، ونؤكد في يقين أن ايمان الشـــاعر بالوطن كان ايمان الثائر العربى النقى فى ثورتيه ، فالوطن — فى منظوره — كما الحت سابقا — ارض وتراث وفكر ومعاناة ، وعظمتنا على مدار التاريخ ، ونبل قضيتنا وحقنا الذى ندافع عنه ينبعان بصفة أساسية من أننا أصحاب رسالة : قامت لتحق الحق ، وتبطل الباطل ، وتنشر النور ، وتنصر الضعيف ، وتجبر الكسير :

نحن لم نحمل السيوف لهدر	**بل لاحقـــاق ضائع مهـــدور**
نحن لم نرفع المشاعل للحر	**ق .ولكن لهـــدى والتنـــوير**
نحن لم نطعن الضمير ولكن	**بقنانا احتمى طعين الضمـــير**
كان فينا نصر الضعيف المعنى	**وانجبار المحطم المكســـور(٦٩)**

وتأسيسا على هـــذه الرسالة الانسانية التى تضرب بجـــذورها فى أعماق التاريخ ، والتى انقـــذت العالم من الجهل والظلام يجب أن يكون للعربى شخصيته المستقلة ، وكيانه المميز فى فكره وعمله ولغته ، فلا يتمرغ فى تراب الغرب ، ولا يلغى شخصيته بالتقليد الأعمى ، لأن هـــذا التقليـــد لطمة للأصالة ، واعتراف ضمنى بالنقص الذاتى . ومثل هـــذه الشخصية المرعوشة المنكوسة اضاعت بالتقليد الأعمى هويتها : فلا هى عربية تعتز بأصالتها ، ولا هى غربية الوجود والثقافة والكيان على نحو مميز ، انمـــا هى نسخة مهزوزة ممسوخة من مشارب متناقضة ليس بينها اتساق وانتظام ، وقـــد رسم الشاعر صورة هؤلاء منكرا على العرب هـــذا الضياع الارادى بالتقليـــد الأعمى :

ابناء عمى من نزار ويعـــرب	**ليسوا بأعراب ولا أعجـــــام**
يترسمون الغرب حتى يوشكوا	**أن يعبدوه عبادة الأصـــــنام**
ما قلدوهم مبصرين وانمـــــا	**تبعوا نظامهم بغير نظام(٧٠)**

---

(٦٩) ديوان عبد الرحيم محمود ١٤٦ .

(٧٠) الديوان ١٣٣ .

والشاعر هنا لا يتعصب للعرب والعروبة تعصبا يعميه عما فى الغرب من محاسن ومظاهر طيبة فى المجالات العلمية مثلا ، فملاحقتنا للغرب فى ذلك ، وتقليدنا اياه مطلب حيوى يجب أن نحرص عليه ، وهـــذا هو « التقليـــد المبصر » الذى لم يجـــده الشاعر عند « بنى عمومته » . انما يشدد الشاعر نكيره على التقليد الأعمى ... تقليد الغرب فى المظاهر الجوفاء ، وقشور المدنية ، ومفاسد الأخلاق ... ظنا منهم ان هذا هو جوهر المدنية والتقدم ، وهـــذه هى آفـــة الشرق التى لم يتخلص منها حتى الآن ، ومثل هـــذا التقليد الأعمى يلغى الشخصية العربية ، بفصلها عن جـــذورها الأصيلة ، لذلك كان الشاعر دائما يعتز بعروبته ، ويفخر بأجـــداده العرب ، بل يجـــد فى هـــذا النسب مفخرته الكبرى :

فأنا الفخـــور باننى لا ينتمى ... للعجم اخـــوالى ولا اعمـــامى

ان تسألوا عنى الى من انتمى ... فالى رعاة النـــوق والأغنـــام

أبغير مجد بنى نزار ويعرب .. ... يزهى عراقى ويفخـــر شامى[71]

ولا عجب فى ذلك فنجر التاريخ العربى كان فجر العزة والاباء ، وهى حقيقة تاريخية يؤكدها الشاعر فى احـــدى بواكير قصائده اذ يقول :

العرب ما خضعوا لسلطة قيصر ... يومـــا ولا هانوا امام تجـــبر

لا يصبرون على اذى مهمـــا يكن ... والحر ان يسم الأذى لم يصبر[72]

اللغـــة المظـــلومة

والعربية الفصحى هى تراث المـــاضى ومجـــد الحاضر ، بقيت على الدهر ، وسارت مع الزمن ، بحيث أضحت لغة قـــديمة وحـــديثة ، تجمع

(71) الديوان : نفس الصفحة .
(72) الديوان ١٣٦ .

بين التليد والطارف وتربط الناطقين بها بأوثق رباط ، وقل أن تلتقى معها فى هـــذا لغة اخرى(٧٣) فعاشت طوال القرون ركيزة قوية لوحـــدة الفكـــر والعقيدة ، وترسيخ الحضارة الاسلامية والقيم الأخلاقية وحفظ التراث العربى والاسلامى .

لذلك كانت العربية هـــدفا للمستعمر دائما ، يحاول أن يزيحها ليحـــل لغته مكانها ، ومن أهم وسائله فى ذلك الدعوة الى احياء « العامية » لأن القضاء على الفصحى لا يعنى قضاء على لغة قومية فحسب ، ولكنه يعنى خلق انفصام منكود بين العربى وبين دينه وكتابه الـــذى نزل بلسان عربى مبين ، ويعنى كذلك فصل العرى عن تراثه المحفوظ بهـــذه اللغة .

وكان المستعمر من الذكاء بحيث جعل اعلان الحرب على الفصحى يتم بوساطة « عرب » يتكلمون العربية ويتهمونها بالفقر والقصور والصعوبة والتعقيد « مع ان القصور فى الواقع هـــو قصور العرب لا قصور العربية ، فقـــد استطاع اجـــدادنا أن يؤدوا بلغتهم ثقافة استرعت الأنظار ، وكانت موضع تقـــدير واعجاب فى الشرق والغرب(٧٤) ، وعاشت العربية على مدار الزمن لغة الدين والدنيا والعبادة والسياسة(٧٥) .

وفى هـــذا الفلك سبحت دعوات منكرة تدعـــو الى كتابة العربيـــة بالحروف اللاتينية ، وأخرى تناصر العاميات وتدعو لاحيائها واتخاذها لغـــة أدب وخطابة وكتابة ، ولكن كـــل هـــذه الدعوات لم يكتب لهـــا النجاح ، وثبت ضعفها وتهافتها واخفاقها مع الأيام .

وانطلاقا من ايمان الشاعر بوطنه وعروبته يؤكد أن العرب لــــن يستردوا مجـــدهم الأثيل ومكانتهم المرموقة الا اذا انتصر العرب للغتهم ،

---

(٧٣) د. ابراهيم بيومى مدكور : فى اللغة والأدب ٥٤ .

(٧٤) الســـابق ٥٦ .

(٧٥) أنظر السابق ٥٩ .

ورفعوا بناءها ، وكشفوا عن كنـــــوزها الدفينة ، وانتفعوا بها فى ادبهم وحـــديثهم ، ففيها الغناء كل الغناء(٧٦) .

ميدان القتال وساحة العلم

الايمان بالله ، والايمان بالدين ، والجهاد فريضة فيه ، والايمان بالوطن أرضا وتراثا وانسانا وعروبة ولغة كان أيديولوجية هـــذا « الثائر النقى » . ومن البدهى أن تكون مثل هـــذه الشخصية متوثبة الروح ، مطبوعة على التمرد ورفض كل ما يتعارض مع هـــذا الطابع الايمانى العميق بمفهومه الواســـع الشامل · أما الموت فلا يمثل فى نظرها عائقا ، ولا يوحى برهبة ، بل رأينا الشاعر يستحث الموت ، ويطلب الشهادة ، ويلح فى نشدانها ، فهو ــ كما يقول ــ غايته التى يسعى للقائها « فى مجالى العـــــلم أو ســـــاح النضـــــال »(٧٧) .

وحرص الشاعر على أن يلقى المنايا فى ساح النضال وميادين الوغى أمر لا يدعو للغرابة من مجاهد صادق مثله ، ولكن الذى يدعو الى الاستغراب حقا هو نشدانه الموت « فى مجالى العلم » . ولكن استغرابنا يزول اذا ما استعدنا ما ذكرناه من قبل من منهجه فى تدريس اللغة العربية والأدب العربى لطلابه ، فهو لم يكن « معلما تقليديا » من أولئك الذين يؤدون مهمتهم التعليمية فى حـــدود « الدرس المقرر » و « المنهج الرسمى » ، بل كان يتخـــذ من درسه منطلقا لبث روح الثورة فى نفوس طلابه ، وخصوصا فى مدرسة النجاح التى كانت تتمتع بحرية فى وضع مناهجها وبرامجها ، وكان ــ كما كتب احـــد طلابه عنه « يلقن تلاميذه دروسا فى الوطنية والقومية ، وكان فى أثناء تلك المدة مثال المعلم الصادق المخلص لأمته وبلاده »(٧٨) .

---

(٧٦) راجع قصيدة الشاعر « بين الشرق والغرب » ص ١٣٣ من الديوان ·

(٧٧) الديوان ١٣٢ ·

(٧٨) عن السوافيرى : ديوان عبد الرحيم محمود (الدراسة) ٢٤ ·

فحقل التعليم فى نظره مجال من مجالات النضال ، والمدرسة فى نظره « معهد اعـداد وتهيىء » للجهاد والكفاح المسلح ، وذلك بزرع بذور الوطنية والثورة فى نفوس الطلاب استعدادا لكفاح دائب ضد اليهود وحكومة الانتداب . ولا شك أن مسلك عبد الرحيم محمود ، ومنهجه الثورى فى التعليم لم يكن خافيا على حكومة الانتداب ، وربما هـدد فى عيشه وربما هـدد — بسبب منهجه هـذا — بلسان الحال أو لسان المقال — فى حياته ، فجاء قوله هـذا ردا على واقع عاشه أو شعر به :

غايتى ألقى المنـايا عاجلا ... فى مجالى العلم أو ساح النضال

ولا عجب فى ذلك فقـد جعل الشاعر من مدرسة النجاح « حقل علم وساحة نضال » ، فبعـد عودته للمرة الثانية الى كلية النجاح اخـذ يعلم طلابه فيها مادة اللغة العربية وتاريخ الحضارة العربية بالاضافة الى التربية الرياضية البدنية ، ولا غرابة فى ذلك ، فقـد لقنت الجنـدية والعسكرية شـاعرنا مهارات بدنية وقـوة رياضية أحب أن يستغلهما فى تدريب طلبته للدفاع عن انفسهم بتربية اجسامهم بالاضافة الى عقولهم(٧٩) .

الثـائر المتمـرد

لقـد كان من أعلى الأصوات وأقواها فى شعره صوت التمرد والنقـد المر لكل ما يتعارض مع القيم الانسانية والخلقية والوطنية . فهو يقول فى مرارة ونقمة وسخرية لمن يقعد عن الجهاد ، وأداء ضريبة الدم فى سـبيل تحرير الوطن :

أتقعد والحمى يرجـوك عـونا ... وتجبن عن مصاولة الأعـادى

فـدونك خدر أمك فاقتحمـه ... وحسبك خسة هـذا التهـادى

فليس أحط من شـعب قعيد ... عن الجلى وموطنه ينادى(٨٠)

---

(٧٩) جرار : شاعران من جبل النار ٢٣٣ .

(٨٠) الديوان ١٤٣ .

ويحمل حملة شعواء فى قصيدته « عيد الجامعة العربية »[81] وهى من اقوى قصائده على الاطلاق — على الزعماء والقواد العرب الذين تفرقوا وتخاصموا ، وتقطعت منهم الأرحام ، وملئوا الدنيا بالتهويش والايهام ، ويرى أن مسئولية الضعف والضياع تقع علينا لا على المستعمر الغازى :

انا بأيدينــا جرحنــا قلبنــا ... وبنــا الينا جــاءت الآلام

فينا عن الحب المجمع جفــوة ... ولنا بصحراء الخصام هيــام

والخطب فرقنــا قبائل جمــة ... والخطب عند عــداتنا لمــام

يا قادة الا الذين اجــلهم ... عما يذم وقــد عداهم ذام

نحن الضحايا لا نريد مثــوبة ... واقلهــا التعريف والاعــلام

أو ليس مــن دور نلهى به ... الا وداع حافــل وســلام

وهذا النزوع الثورى التمردى لم يكن فى مواجهة المستعمر الانجليزى أو الصهيونى فحسب ، بل فى مواجهة كل ظالم ايا كان ، كما أنه لم يكن فى نطاق وطنه فلسطين فحسب ، بل كل مكان ينزل به ، ولننظر الى الأبيــات التالية من قصيدة مفقودة نظمها فى العراق سنة ١٩٤١ يحمل فيها على هؤلاء الذين يستأثرون بتمور العراق على حساب الفقراء المطحونين ، ويتمنى الشاعر ثورة كثورة الزنج تقضى على هــذا الاستغلال :

يقال البصرة اشتهرت بتمــر ... سلوا هل يملك الفقراء تمره

هناك على جنــاح العز ناس ... وناس من معــاوزهم بغمــره

فهل أمر الزنوج لــه معــاد ... وكم شىء كرهت حمدت أمره[82]

---

(٨١) الديوان ١٤١ .

(٨٢) الديوان ١٥٣ .

ويقرر الشاعر أنه يعيش حياته وهمه الأكبر فيها ان يكون حربا على الظلم والظالمين واللصوص والمستغلين ، ولو كلفـــه الاضطلاع بهذه الرسالة حيـــــاته :

جعلت نضال الظلم همـــا وديدنا — لأن به حلت لدى المعاضـــل

فأحببته حبى الحياة لفضـــله — على ، ولا تنسى لدى المفاضـــل

فان عاث فى أرضى لصوص وزمرة — فانى فدى أرضى أعود أناضل[83]

وقـــد رأينا كيف كان اعتزازه بالعربية الفصحى ، وكيف كانت نظرته اليها نظرة تمجيد وتقـــديس حتى أنه يرى أن استعادة العرب قـــــوتهم وامجادهم ومكانتهم المفقودة لن تتحقق الا باحياء الفصحى ، والحفاظ عليها ، والاعتزاز بها ، من اجل ذلك يحمل أيضا فى تهكم وسخرية على هؤلاء الذين يطعمون حـــديثهم العربى بكلمات اجنبية ، يلوون بها السنتهم ، اعتقادا منهم أن ذلك مظهر من مظاهر المدنية والتحضر . . . بل تبلغ نقمة الشاعر على أمثال هؤلاء الى حـــد انه يجردهم من انتمائهم للعرب والعروبة فيقول :

لا أعـــرف العـــربى يلوى فكه — ان هم يومـــا فـــكه بـــكلام

ان فاه تسمع لكنـــة ممقـــوتة — من فيه سكسونية الأنغـــــام

لفظا من الفصحى وآخر نابيا — كالغاز ممزوجا بكاس مدام[84]

حيـــاة بلا وســـطية

ومثل هـــذه الروح المتوثبة المتمردة لا تعترف فى الحيـــاة بمـــا يسمى «الوسطية» أو الحلول الوسط ، فهى دائما تنشد الكمال فى كل شىء ، وتحرص

---

(٨٣) جرار : شاعران من جبل النار ٣٢٣ .

(٨٤) الديوان ١٣٣ .

على تحقيق « الصورة المثالية » فى كل مجالات الحياة مهما كان الثمن ، ومهما كانت التضحيات . وقــد رأينا كيف كان الموت هــو « تسبيحة » الشاعر وترنيمته التى يتغنى بها ويتغياها أبدا ، لا يطلبه فى ساح النضال فحسب ، بل يا حبذا الموت أيضا فى مجالى العلم .

وطلب الموت هنا لا يمثل هروبا باليأس ، أو استسلاما لضعف أو انهيار نفسى أمام مصاعب الحياة ومصائبها ، ولكنه نشدان للكمال النفسى والروحى بالاستشهاد ، ورفض لحياة لا يرى فيها الشاعر « المثالى المنشود » ، فمفهوم السعادة عنده لا يتحقق الا بتحقق جوهرها الانسانى من الاحساس الحقيقى بقيمة الوجود ، وتحقيق امانينا و « رغائبنا الحائرة » ، ولا يكون ذلك الا بتحقيق أهم قيمة انسانية لا يكون الآدمى انسانا الا بها ، ولا تكون الأمة أمة لهــا وجود حقيقى وكيان محترم بين الشعوب الأخرى الا اذا تمتعت بهــا ... انها الحرية ... الحرية الكاملة التى يكون لها وجودها الفعلى :

اذا ما صهرنا قيــود العبيد بنار من القــوة القاهرة[٨٥]

وهــو يؤثر الموت الساحق الزؤام على حياة تختل فيها المعايير ، وتغيب فيها القيم والعــدل الاجتماعى ، وتكون السيادة فيها للصوص والفجرة والأمافين . وتبدو روح هــذا الرفض فى قصيدته التى يقول فيها :

متى أرانى بت طــــى الثرى يسحقنى بالكلكل الســـــاحق
وأغمض العينين عن عــــالم لا يعتلى فيه ســـوى الفاســـق
يحظى به الكذاب بالمشـــتهى والتعس للمخلص والصـــــادق
الخبز والخبز غـــدا حـــكرة لبعضـــهم والويل للســـــارق
هم أوجدوا السارق من حاجة وقيل هـــذى قسمة الخـــالق
يا منطقا لم يرو عن عاقـــــل العى خــير منــه للناطـــق
قد محق العــدل فلا عـــادل أما لأهـــل الأرض من ماحـــق[٨٦]

---

(٨٥) الديوان ١٥٩ .
(٨٦) الديوان ١٦٣ .

ويرى الشاعر حمالا ميتا وبجانبه سله وحبله على قارعة الطريق فى مدينة حيفا ، والناس يمرون به فلا يأبهون لمنظره(٨٧) ، فيروعه ما يرى ، ويتخــذ من هــذه الواقعة منفــذا لنقــد المجتمع كله فى قيمه المهترئة ، حيث يضيع فيه الفقير البائس ، ولا قيمة فيه الا لكل قوى ذى غلبة وسلطان :

والناس مـــذ كانوا ذوو قسوة وليس للبائس فيهم نصــيب

لو كنت فى حبــلك شــناقهم لولولوا حزنا وشــقوا الجيوب

أو كنت من ســـــلك رزاقهم لقــام عند السل ألفــا خطيب

وتبلغ نقمة الشاعر على هــذا الاختلال الاجتماعى حــدا يزهــده فى « أثواب الحرير القشيب » ويكره « الغصن الطرى الرطيب » ويضـــيق « بالصوت الحنون الطروب » ، ويزهــد فى هــذا المجتمع الذى تعرى من الرحمة ، وعاش بقلب « جاف جــديب » ، ويأتى حكمه أو قراره الحاسم فى نهاية القصيدة :

انى من النـــــاس ولكننى فى رقتى عنهم بعيــد جنيب

انه الشعور الحاد بالغربة النفسية التى عبر عنها ابن الرومى بقوله :

أعاذك انس المجد من كل وحشة فانك فى هــــذا الأنام غريب(٨٨)

والاغتراب هنا ليس اغترابا عن طريق الرحيل وانما هــو اغتراب روحى يتمثل اكثر ما يتمثل فى عــدم التكيف الاجتماعى والنفسى(٨٩) أى ان الاغتراب

---

(٨٧) أنظر القصيدة ص ١٦١ من الديوان .

(٨٨) ديوان ابن الرومى ١٥٨/١ .

(٨٩) ماهر حسن فهمى : الحنين والغربة فى الشعر الحديث ١١٠ .

هنا « شعور » وليس « سلوكا » ... شعور مصدره ما يصطدم به الشاعر من مفارقة هائلة بين الموجود والمنشود ... بين الواقـــع والمثال ... بين ما هـــو كائن ، وما يجب أن يكون ، وخصوصا أن الفترة التى عاشـــــها الشاعر تمثل مرحلة ساد فيها « الاهتزاز والتبدل فى كل اتجـــاه : فى الملبس فهو شرقى وغربى ، وفى الأطعمة والأشربة ، وأسلوب تناولها ، وفى الاتيكيت أو فن المعاملة والتصرف ، وفى سماحة الحياة وتكلفها ، وفى القيم الدينية واللادينية وفى التقاليد من محافظة وانطلاق ، وفى المدارس من دينية ومدنية وأوربية ، وما يستتبع ذلك من أنماط مختلفة فى الثقافة وفى التفكير »[90] ، ومن ثم كان هـــذا الشعور بالغربة النفسية فى ذاته يمثل لونا من الاحتجاج على كل ما يراه من اهتراءات فى المجالات الاجتماعية والسياسية ، جسدها الشاعر فى نقـــده الغاضب الناقم على مثل هـــذه الأوضاع ، ولم يتجسد هـــذا الشعور فى هروب واقعى من دنيا الناس شأن المتصوفة الذين يهربون الى الصوامع والمحابس ، فرسالته النضالية التى اضطلع بها تلزمه أن يعيش مع الناس ويعايشهم فى شتى مجالات الحياة .

ولم تنعكس هـــذه الروح الرافضة فى شعر الشاعر فحسب ، بل فى كتاباته أيضا « فكان يدون مشاهداته فى مذكرات داب على تدوينها يوما فيوما ، وكان فيها كما كان فى غيرها من الحالات صريحا للغاية ، تقيا ، وكثيرا ما وجه سهام لومه وتقريعه للرؤساء الذين شغلوا أنفسهم بالقشور »[91] .

منهـــج فى النقـــد

ونلاحظ ـــ وهـــذه حسنة من الحسنات الفنية للشاعر ـــ انه فى تنـــديده بالأوضاع الاجتماعية ، وتشديده النكير على القيم الفاســـدة يلجـــأ أحيانا الى أسلوب التعريض والتعبير غير المباشر ، كما رأينا فى قصيدته عن الحمال التى نقـــد فيها النفاق والنفعية والأثرة والظلم الطبقى ، وكما نرى

(٩٠) الســـابق ١٠٨ .

(٩١) نقلا عن السوافيرى : ديوان عبد الرحيم (الدراسة) ٣٢ .

فى قصيدته التى نظمها على ألسنة العمال بعنوان « نحن المصادر والموارد »[٩٢] ومنهـــــا :

ان اسمنا العمــــال لا نلــــهو بلغـــو عن مقاصـــد	
نقضى على حـــد الأســـنة لا النمـــارق والوســـائد	
لسنا كمــن يهــذى على الــلأعــواد بالخطــب الرواعــد	

ففى الأبيـــات تعريض قارع باللاهـــين الذين يعيشـــون بالأصـــوات الا الأفعال ، والكلمات لا الأعمال ، وهـــؤلاء الذين اتخـــذوا الحيـــاة لهـــوا وزينة ، وراحة واسترخاء ، واكتسب هـــذا التعريض قـــوة بهـــذه المقابلات التى أبرزت المفارقة الفادحة بين من يعملون ويعيشون للوطن ، وبين من يتكلمون ويعيشون بالوطن ، وفى هـــذا النقـــد المر تجنب الشاعر الأسلوب التصريحى المباشر ، « فالتصريح ووضوح الذاتية عـــدوان من اعـــداء الفن ، والجرى وراء التعبير بالآهات والتعجب أو الأوصاف المباشرة يخرج بالعمل الشعرى عن نطاق الجمال ، ويجعله تقريريا ، ويذهب بأثره »[٩٣] ٠

الحـــب فى حيـــاته

ونحن وان كنا نؤمن أن الشاعر ليس فى حياته قصة حب كبيرة شأن كثير من الشعراء ٠٠٠ قصة حب تتعمق مشاعره ، ويفيض بها وجـــدانه بما فيها من معاناة وآلام وآمال . . . ومع ايماننا بانه نظم أغلب غزله — ان لم يكن كله — على سبيل التقليد — مما سنعرض له فيما بعـــد — الا أننا نلحظ أنه فى أغلب هـــذه الغزليات . . . أو هـــذه الوجـــدانيات الغزليـــة لا نعـــدم فيه سمة « الثائر الرافض » ، بل لا أغلو اذا قلت انهـــا النغمـــة

(٩٢) الديوان ١٥٦ ٠

(٩٣) د٠ محمد غنيمى هلال : قضايا معاصرة فى الأدب والنقد ٦٠ ٠

العالية الغالبة على أغلب هـــذه الغزليات ، فـد عجب ان تكثر فيها « الأوامر » الصارمة الموجهة الى « حبيبته » !! ، ومنها على سبيل التمثيل :

دعيني فلا قلبي عليك بعاطف ... حنانا ولا دمعي لدى فرقة هامي(٩٤)

روحي فقد راح الذي بيننـــا ... كالبارح السالف ما ان يعـــود

روحي ولا تأسي على حالتي ... وانسي مواثيقي وخوني العهود(٩٥)

روحي فمـــا الاشراك من مذهبي ... ولست أرضى في حبيبي الشريك(٩٦)

روحي فقد راح الذي بيننــــا ... ولهفة الحب وقلبي عليـــك(٩٧)

اسمعي يا من ــ لقـــد خنت عهـــد الهـــوى ونسيت او تناسيت الودادا(٩٨)

اسمعي لا تذكري المـــاضي فلا ... رجع المـــاضي ولا البارح عـــادا

ودعي ــ لا تقرئي من صفحة ... قد جعلنا أبيض الماضي سوادا(٩٩)

فنحن لا نلتقي في هـــذه الأبيات ــ وغيرها كثير ــ بشاعر محب ، تشرب الحب كيانه ، واستغرق نفسه شعورا وتعبيرا ، ولكننا أمام انسان تحكمه « كبرياء الجندي » و « تمرد الثائر » الذي يعصف بكل ما يتعارض مع كرامته ، ويخـــدش شموخه ، انها مشاعر يحكمها منطق الرفض الحاد في شدة وصرامة ، وليست مشاعر المحب الحاني الذي « يذوق ظلم الحبيب كظلمه حلوا » .

---

(٩٤) الديوان ١٨٥ .
(٩٥) الديوان ١٧٤ .
(٩٦) الديوان ١٧٤ .
(٩٧) الديوان ١٧٥ .
(٩٨) الديوان ١٨١ .
(٩٩) الديوان ١٨١ .

هـــذه الروح المتوثبة الثائرة ليست بدعا فى محيط الأسرة ، فالشاعر يصدق عليه المثل المشهور « من شابه اباه فما ظلم » ، لقـــد كان أبوه عالمـــا شاعرا ، نقادا جريئا فى نقـــده ... صريحا فى اقواله ، « وقـــد عرف عنه حبه للحق ودفاعه عنه »(١٠٠) ، وله مواقف تدل على قـــوة شكيمته ، وقـــوة عارضته وشدته فى نقـــده ، من ذلك خصومته الشديدة لمعاصره الشاعر الشيخ يوسف النبهانى (ت ١٩٣٢) ، والسبب فيها انتقاد الأخير لبعض علماء الحنابلة بقسوة وتناولهم بالتجريح ، وقـــد هب الشيخ محمود يدفع الهجوم عن علماء مذهبه ، فقال فى الشيخ يوسف هجاء مرا لاذعا .

ومن قصصه المشهورة هجاؤه للقضاة والمسئولين وبعض الوجهاء فى فلسطين ابان حكم الأتراك ، وقصيدتاه الشينية عن احـــد القضـــــاة فى بنى صعب ، والرائية فى أهل الناصرة تشهدان على ذلك .

كما نقـــد أهـــل نابلس وهجاهم بسبب تعصبهم لسكان المدينـــة وتقليلهم من شأن أهل القرية اى الفلاحين(١٠١) .

فشخصية الوالد الذى توفى سنة ١٩١٩ كانت شخصية فاعلة ذات حاســـة قـــوية ناقـــدة لا ترضى بالخنـــا ، ولا تغض الطرف عن عيب أو نقيصة . ولا شك أن الأب قـــد ترك بصمات هـــذه الروح القـــوية — فى حياته وبعـــد مماته — فى نفس ابنه عبد الرحيم فصار له نفس الطابع فى نقـــده المر للأوضاع الفاسدة والزعامات والقيادات المهترئة ممـــا عرضنا — ونعرض له — فى دراستنا هـــذه عن الشاعر .

---

(١٠٠) جرار : شاعران من جبل النار ٢٣١ .

(١٠١) أنظر فى تفصيل ذلك وشواهده كتاب نافع عبد الله عن الشاعر من ص ٣٩ الى ص ٤١ .

ثقـافته وأبعـادها

واستكمالا لملامح شخصية الشاعر نختم الفصل بعجاله عن البعـــد العقلى والعلمى والحـدود الثقافية للشاعر . وقـد كثر الكلام فى هـذا المجال ما بين موجز يمر مرور الكرام كالدكتور السوافيرى الذى يذكر أن عبد الرحيم « قـد أتيح له أن يعب من معين الثقافة الصافى فى مدرسـة النجاح الوطنية .. »(١٠٢) ، ويحـدد الكاتب هـذا المطلق العام بأنه « قسط من علوم العربية نحوها وصرفها وبلاغتها ، وتفهم نصوصا مختارة أحسن اختيارها مدرسو اللغة العربية بالمدرسة .. »(١٠٣) وبعـد ذلك ـ كما يبدو من آثاره ـ « قرأ كثيرا من مؤلفات أعلام الأدب ودواوين فحول الشعراء فى العصور المختلفة(١٠٤) .

فالدكتور السوافيرى يرى أن ثقافة الشاعر ، أو القـدر الأكبر منها يكاد يكون محصورا فى نطاق الثقافة العربية وخاصـة الكلاسيكى منها ، ولا تكاد تتعـدى هـذا النطاق ، وهـذا طبعا زيادة على حفظه القرآن الكريم ، « فقـد كان الشاعر مفتونا ـ منذ طفولته ـ ببيان هـذا الكتاب العظيم وبلاغته ، فاستخدم فى شعره كثيرا من ألفاظه وتعبيراته »(١٠٥) .

ونضيف الى ذلك أيضا ما اطلع عليه الشاعر مما نظمه الشعراء فى الوطن العربى ، فى مصر والشام والعراق والمهاجر ، ومتابعته ـ بقـدر ما تصل اليه يداه ويتسع له وقته ـ للكتابات النقـدية والمعارك والمساجلات الأدبية فى البلاد العربية .

* * *

---

(١٠٢) السوافيرى : ديوان عبد الرحيم محمود (الدراسة) ٣٧ .

(١٠٣) السـابق ٣٨ .

(١٠٤) السـابق ٣٩ .

(١٠٥) جرار : شاعران من جبل النار ٢٣٦ .

لاخلاف فى كل اولئك ، فشعره يؤكد فعلا أن ما ذكر يمثل أهم منابع ثقافته ، ولكن وليد جرار فيما كتبه عن الشاعر يذكر ان عبد لارحيم « تأثر كذلك — الى حـد قليل — بنفحات من الأدب الانجليزى الذى قرأ فيه ، واطلع من خلاله على كثير من الشعر الانجليزى ، غير ن هـذا التأثر بقى محصورا فى قليل من القصائد الذى حاول ن يعارض بها بعض ما قره وتمثله من الشعر الغربى لبايرون وويردز ويرث وغيرهما » ٠

ويؤكد الكاتب ما ذكره آنفا بأن عبد الرحيم نظم قصيدة باللغة الانجليزية بعنـوان London shall Perish على غرار قصيدة « بايرون » التى عنوانها Rome shall Perish (١٠٧) ، ولكن الكاتب لم يعرضها ، ولم يعرض نماذج منها منفردة أو معارضة على الأصل المحتذى ٠ ولو صح أن لعبد الرحيم قصيدة بالانجليزية بهـذا العنوان فهى لا تقطع بضـلاعة مطردة فى هـذه اللغة لأنها لو حـدثت فعلا فهى تجربة لم تتكرر من ناحية ٠ ومن ناحية اخرى يبقى حظ الابداع فيها قليلا لأنها تحتذى نموذجا أمامها وهو قصيدة « بايرون » أى أنها أدخل فى باب الاتباعات أو المعارضات المعروفة فى الشعر العربى ، ومن ثم نرى أن الكاتب على حق حين ذيل حكمه بضميمة صحيحة وهى أن عبد الرحيم « لم يتنفس تلك التيارات الأدبية الغربيـة بعمق ، ولم يمش على هـدى منها فى قصائده العربية ، وانما بقى وفيا لمـا قرأ من شعرنا العربى فى عصوره الأدبية المختلفة »(١٠٨) .

غير أن الباحث « نافع عبد الله » فى أطروحته عن الشاعر يفقد حياده ، ويتحمس لشاعره تحمسا واضحا فيرى أن عبد الرحيم كان له فى هـذا المجال اطـلاع على الشعر الانجليزى بلغته الأصلية ، وعلى الأساطير اليونانيـة المنقولة الى الانجليزية نفسها ، والتقط من هـذا البعض أفكاره ومعانيه ، وأوجـده فى نظمه ، مع اضافة معان جـديدة بأسلوب جـديد يحتفظ باللازمة الأصلية بترجمتها حرفيا(١٠٩) .

---

(١٠٦) السـابق ٣٦٢ ٠

(١٠٧) السابق : نفس الصفحة ٠

(١٠٨) السابق نفس الصفحة ٠

(١٠٩) نافع عبد الله : الشاعر عبد الرحيم محمود ٧٠ ٠

ونحن نرى أن هـــذا الحكم لا يخلو من التهويل الذى يجانب الواقع ، ويجافى الصواب :

١ — لأن الكاتب لم يقـــدم من الانجليزية ممـــا اعتبره من المقروءات او المؤثرات فى شعر عبد الرحيم الا قصيدة لشـاعر مجهول منشورة فى الكتب المدرسية فى المرحلة الثانوية وهى قصيدة Try Smiling ، وهى لا تكفى للحكم باطلاعه على الشعر الانجليزى بلغته الأصلية فضلا عن تأثره به .

٢ — وعبد الرحيم لم يحتفظ باللازمة الأصلية بترجمتها حرفيا فهى قـــد جاءت فى صورتين هما Try Smiling و Just Smiling بينما جاءت عند عبد الرحيم فى صور ثلاث : فتبسم ، فتبسم يا عزيزى ، يا عزيزى وليس ذلك ترجمة حرفية للازمة الانجليزية كما هو واضح(١١٠) .

٣ — وعبد الرحيم قـــد يلتقى مع النص الانجليزى فى الفكرة العامة وروح التفاؤل ، ولكنه يختلف عنه فى كثير من الصور والمعانى الجزئية(١١١) .

٤ — والأقرب الى العقل والمنطق والواقع أن يكون الشاعر فى هـــذه القصيدة متأثرا بروح التفاؤل وبكثير من الأفكار والمعانى والصور الجزئية عند ايليا أبى ماضى فى قصـــيدته المشهورة « فلسفة الحيـــاة »(١١٢) وقصـــيدته « ابتسم »(١١٣) .

٥ — وكذلك لا أدرى لمـــاذا يصر الباحث على ان عبد الرحيم محمود قـــد « اطلع على الأساطير اليونانية المنقوله الى الانجليزية نفسها »(١١٤) ،

---

(١١٠) فى الديوان الملحق بالدراسة السابقة جاءت القصيدة فى عشرة ابيات غير اللوازم بينما اوردها وليد جرار فى كتابه : شاعران من جبل النار فى ثمانية وعشرين بيتا غير اللوازم وقـد جاءت فى الصور الثلاث التى ذكرتها آنفا (أنظر ٣٠٢ – ٣٠٤) .

(١١١) أنظر النص الانجليزى ص ٧١ وقصيدة عبد الرحيم ص ١٦٠ من كتاب نافع السابق .

(١١٢) ديوان ايليا أبى ماضى (الأعمال الكاملة) ٦٠٤ .

(١١٣) الســـابق ٦٥٥ .

(١١٤) نافع السابق ٧٠ .

ولــاذا لا يكون قـــد اطلع على هـــذه الأساطير مترجمة الى العربية ، وذلك كان متوفرا وميسرا فى عهـــد الشـــاعر بعـــد ان ترجم سليمان البستانى (١٨٥٦ — ١٩٢٥) اعظم ملحمة فى تاريخ البشرية وهى الياذة هوميروس ، اذ ترجمها شعرا فى ١٢٦٠ صفحة ، وظهرت هـــذه الترجمة العربية للالياذة سنة ١٩٠٤ بمنظومها وشرحها ومقـــدمتها وفهارسها ، وهى تعتبر أهم المترجمات وانسهرها فى الربع الأول من القرن العشرين[١١٥] ٠

٦ — وأخيرا نرى من الاسراف والشطط الزعم بتأثير الأدب الانجليزى والأساطير اليونانية بصورة ملحوظة فى شعر عبد الرحيم لأن ذلك لم يتعـــد — كما سنرى — مجرد اشارات الى أعلام ووقائع وصور جزئية ٠ وشتان ما ابراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود فى هـــذا المجال ٠ ويقول نافـــع عبد الله فى دراسته عن الشاعر « واما اطلاعه على الأسطورة اليونانية المترجمة والتى هى من عناصر التراث اليونانى البارزة فقـــد كان يجعله عند قراءته لهـــا يتخيل نفسه سائحا فى أعماق الكون بحثا عن المعرفة ، ويرى شخصه انسانا مثاليا ، يصبو الى الكمال ، ويستكشف كنه الحياة المثلى التى يجب أن يهتدى البشر الى معرفتها والاستئناس بها لتخرج نفوسهم من ظلمة الجسد الى نور الصفاء والاشراق ، وقد استمد هذا الشعور من أرفوس Orpheus بدليل ذكره له فى شعره :

أرفـــوس ليس بمســـــــــتطيـــع أن يهدهد لى جنانى[١١٦]

فكأن ارفوس الذى استطاع أن يؤثر فى كل شىء بما فيه الكائن الحى والجماد بموسيقاه الساحرة بعـــد فقـــده لزوجته « يوريدس » كأنه لم يقـــدر أن يؤثر فى الشاعر عبد الرحيم ، ولم يهدهد له جنانه ، بل فر منه ومن شراك زمانه ، واحابيل مكانه الى الأعالى :

---

(١١٥) انظر جورج غريب فى كتابه : « سليمان البستانى فى مقدمة الالياذة » ٧ ٠

(١١٦) الديوان (نافع) ١٦٨ ٠

وأفـــــر من شرك الزمــــــا ن ومن احابيـــــل المــــكان
أتنســـــاق النــــــور الشعا ع الى كواكــب لى روان(١١٧)

ونقول مرة أخرى ان ما ذهب اليه الكتاب يعــد من قبيل تحمسه غير العلمى للشاعر ، وتضخيما لدور « الأسطورة اليونانية المترجمة » فى شعره ، فعبد الرحيم لم يوظف أيا من هــذه الأساطير فى شعره ولو على ســبيل الاشارة ، ولم يلمع الى أية شخصية أسطورية فى شعره ما عدا « أرفوس » ، ومن عجب أن يكون استخدامه له استخداما سلبيا وعلى سبيل الالمــاع ، بمعنى أن عبد الرحيم سلب هــذا الشاعر الأسطورى الموسيقار الســاحر قــدرته فى أن « يهدهد له جنانه » ، فهمومه اكبر من قــدرته الأسطورية ، لذلك فهو يشرب حتى ينسى همومه وواقعه الأرضى وكيانه الطينى ، ثم يرقى الشاعر بمفهوم الخمر فاذا بها خمر الهوى والجمال يتملاها فى العيون والنحور وسحر الطبيعة حتى تخف روحه فيتحرر من أسر الزمان والمكان .

وهى معان مطروقة فى الشعر العربى الحــديث ، وتعــد من آثار الاستجابة للتيار الرومانسى الذى سيطر على كثير من شعراء العربيـــة وخصوصا شعراء المهجر(١١٨) .

وامتدادا لهــذه الحماسة اللاعلمية فى تلمس التأثير وتضخيمه يذهب الكاتب الى أن قراءة عبد الرحيم للملهاة الالهية لنابغة الطليان دانتى مترجمة ، وتأثره بذلك المشهد الذى تقود فيه « بياترس » الشاعر « فيرجيل » صاحب ملحمة الانيادة وتأخــذ بيده مخترقة حجب الظلام الى دائرة النور والضياء هــو الذى الهم الشاعر فكرة البيتين التاليين :

سلمى : لقد تهت فهذى يدى سلمى فقودينى عبر الظـــلام
أنت بصيص النور فى ناظرى والخافق الثائر بين العظام(١١٩)

(١١٧) نافع السابق : الدراسة ٧٣ والديوان الملحق بها ١٦٨ .

(١١٨) من هــذا القبيل قصيدة مطران « الى جميلة ادبية » ديوان الخليل ٤٧/١ وقــد قــدمنا ابياتا منها ص ٨٢ من هــذا البحث .

(١١٩) نافع : السابق ٧٤ والبيتان فى الديوان الملحق ١٧٢ .

مع أن استنجاد العاشق بمحبوبته لتأخـذ بيده فى معترك الحياة عبر ظلماتها ومتلاطمها معنى مطروق بل مستهلك فى الشعر العربى : قـديمه وحـديثه ولا يكاد ديوان شاعر يخلو من هـذه الفكرة المتاعة ، ولنفتح ديوان شاعر مثل ابراهيم ناجى لنسمعه وهو يستصرخ حبيبته :

أدركى زورقى فقـد عبث اليم به والعواصف الهوجـاء

والعباب العريض والأفق الموحش والنهاية الخرساء(١٢٠)

وتشبيهه المحبوبة بالنور أو بالضوء أو بالنجم أو ما شابه ذلك يرد فى شعره عشرات المرات من ذلك قوله :

ذلك الكوكب قـد كان لعينى السموات وكان الشـهبا

هـذه الأنوار ما اضـيعها صرن فى جنبى جراحا وظبـا(١٢١)

وقـوله :

كنت فى برج من النـور على قمة شاهقة تغزو السحابا(١٢٢)

فالفكرة اذن لا تدل — بصورة مباشرة أو غير مباشرة — على ملمـح واضح فارق من ملامح الكوميديا الالهية . والكاتب لا يملك أى دليل — مباشر أو غير مباشر — يقطع بأن الشاعر قـد قرأ الكوميديا الالهية ، فهو لم يذكر انه قرأها ، وليس فى شعره بصمة من بصماتها تدل عليها .

* * *

(١٢٠) ديوان ابراهيم ناجى (الأعمال الكاملة) ٣٥٩ .

(١٢١) السـابق ٥٧٦ .

(١٢٢) السـابق ٥٨٠ .

وقصارى القول فى ثقافة عبد الرحيم محمود :

١ — لم تزد ثقافته الرسمية — ان صح هـذا التعبير — عما حصله فى كلية النجاح ، وهى مرحلة تعليمية متوسطة ، اى دون المرحلة الجامعية .

٢ — أما مصادره الثقافية الأخرى فهى فى مجموعها عربية يقف على قمتها القرآن الكريم ، ثم الآداب العربية القـديمة والحـديثة ، زيادة على خبراته وممارساته ورحلاته الى العراق والشام واتصالاته بالشعراء والأدباء والمجاهـدين والقـادة .

٣ — وأعتقد ان معرفته بالانجيزية لم تكن بالقـدر الذى يمكنه من تعمق آداب هـذه اللغة والانشغال بها كأستاذه وصديقه ابراهيم طوقان ، وان مكنته هـذه المعرفة من الفهم والالمـام والتفاهم .

* * *

وكما كان للقضية قصة مدادها دم ، وكما كان للشاعر قصة جوهرها الايمان والنضال ... كان لديوانه ايضا قصة ما زال لها امتدادات لا تنتهى ، وسنعيش فى الفصل التالى هـذه القصة من بدايتها .

الفصل الثالث

قصة الديوان المظلوم



المحـــاولات الأولى

كان عبد الرحيم محمود ينشر قصائده فى الصحف والمجلات الفلسطينية واللبنانية والعراقية ، ولم يكن له من الشهرة فى حياته مثلما كان لأستاذه وصديقه ابراهيم طوقان الذى عاش المع منه اسما ، وأبعـــد منه صيتا ٠

وقـــد استشهد الشاعر قبل أن يرى شعره مجموعا مطبوعا بين دفتى ديوان على الرغم من أنه كان يحتفظ بأصول قصائده ، وباستشهاده كادت هـــذه الأصول التى كتبها بخط يده تفقد مـــع مسودات بعض قصائده ٠ لولا تمكن اخوته من نقل تلك الدفاتر والأوراق التى تضم شعره مع اغراضه التى احضروها من الناصرة بعـــد سقوطها فى تموز سنة ١٩٤٨([1]) ٠

ولعل أول محاولة لجمع شعر عبد الرحيم فى ديوان هى تلك التى حكاها الشـــاعر الأديب عبد الرحيم اســـــعد ... يقـــول « كنت أحتفظ بأوراق عبد الرحيم وشعره الذى لدى سواء اكان مكتوبا بخط يده أم مكتوبا من قبلى شخصيا فى اثناء حياة الشاعر نفسه ، وهـــو كثير . وبين سنة ١٩٤٨ و ١٩٥٢ قام بعض زملاء الشاعر واصدقائه بزيارة اهله فى عنبتا ، واثاروا موضوع جمع القصائد فى ديوان ، وأبدوا استعدادهم للاسهام فى اخراجه الى حيز الوجود ، وفعلا هم اشقاؤه بتحقيق المشروع ، واوكلوا أمره الى

(١) أنظر : نافع عبد الله : الشاعر عبد الرحيم محمود ٧٩ ٠

أصغرهم سنا ، فاطمأن الى الفكرة ،ثم فترت العزائم ، وتوقفوا عن العمل .... ان هـــذا الذى حفظناه قـــد طرأت عليه بعض الظروف ، فتوزع قسم منه هنا وهناك ، أو كنا مضطرين للتخلص من بعضه فحرقناه أو خبـــــأناه »(٢) .

ومن الروايتين السابقتين نستخلص حقيقتين مهمتين :

الأولى : ان الأصول التى كانت عند آل عبد الرحيم لا تمثل شعره كله بدليل أن عبد الرحيم اسعد كان يحتفظ بأصول لقصائد بخط يد عبد الرحيم محمود نفسه ، ولم يعرف عن شاعرنا الشهيد أنه كان يكتب بخط يده أكثر من أصل واحـــد لقصائده .

الثانية : ان ما بقى عند آل عبد الرحيم وعند عبد الرحيم اســـعد لا يمثل كل شعر الشاعر بعـــد أن « توزع هنـــا وهناك » وبعـــد ان حكمت الظروف بالتخلص من بعضه « بالحرق أو الاخفاء » .

وهكذا باءت المحاولة الأولى بالاخفاق على الرغم من صدق النوايا ، فقـــد كانت الظروف أقـــوى من النوايا والارادات . وربما تلت هـــذه المحاولة محاولات اخر انتهت كذلك بالاخفـــاق ، وهـــذا أمر طبعى لأسباب متعـــددة أهمها :

١ ـ أن الشاعر قـــد نظم شعره فى فترات كان فيها دائم الترحال والتنقل سواء أكان ذلك فى جبال فلسطين ووديانها ثائرا ، أم فى ربوع العراق وسوريا منفيا ، وكان استشهاده بعـــد ذلك بداية لمـــأساة شغلت الناس عن غيرهم بأنفسهم ، مما جعل كثيرا من شعره موزعا يصعب الحصـــول عليـــــه .

٢ ـ أن أكثر الصحف الفلسطينية التى نشر الشاعر معظم قصـــائده

(٢) انظر : الســابق ٨٠ .

على صفحاتها قد شملتها الكارثة مع ما شملت من ضياع حين تعرضت كبرى المكتبات العامة والخاصة فى القدس للنهب والحرق ، فضاع بذلك ثروة ادبية وفكرية ضخمة .

٣ ــ أن كثيرا من أبناء فلسطين ممن كانوا تلاميذ للشاعر او أصدقاء ، وممن يحتفظون بجزء كبير من شعره قد شردتهم النكبة ، فانتشروا فى الأرض يطلبون الرزق ، فخفى بانتشارهم الكثير مما يحفظون من شعر الشاعر ، ومما يحتفظون به من قصاصات المجلات والجرائد التى كان ينشر فيها شعره[٣] .

٤ ــ ولعل من أهم هذه العوامل ايضا ان شهرة الشاعر بعد استشهاده كانت أقوى وأبعد منها فى حياته ، فقد كان استشهاده فى موقعة الشجرة ايذانا بانخراطه فى زمرة الأمجاد العظماء ، فبدأ الناس والدارسون والنقاد يلتفتون لشعره بعد استشهاده أكثر من التفاتهم له فى حياته ، ولكن بعد ان تفرق منه ما تفرق ، وفقد منه ما فقد .

الطبعة الأولى

ولم يقدر لشعر الشاعر الشهيد أن يرى النور مجموعا فى ديوان الا بعد استشهاده بعشر سنوات . وقد طبع ديوان الشاعر طبعتين :

الطبعة الأولى : صدرت فى عمان سنة ١٩٥٨ .

والطبعة الثانية : صدرت فى بيروت سنة ١٩٧٤ .

وللطبعة الأولى قصة ذكرتها بالتفصيل فى صدر الديوان اللجنة التى تصدت لجمع شعر الشاعر وطبعه ، وهى مكونة من الأساتذة : توفيق أبو شريف ، وعادل الزواتى ، وعيسى الناعورى . وتبين كلمة اللجنة عن

(٣) انظر : وليد صادق سعيد جرار : شاعران من جبل النار ٣٤٧ .

طبيعة المعاناة التى مرت بها ، وعن منهجها فى جمع شعر الشاعر ونشره ونص الكلمة :

فى منتصف عام ١٩٥٦ تنادت فئة كريمة من رجال الأدب والفكر والوطنية فى هذا البلد : عمان — ممن يعرفون الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود ، ويقدرون شاعريته وجهاده فى سبيل شعبه ووطنه الى احياء ذكراه باقامة حفل تأبين له .

وفى الرابع عشر من سبتمبر (أيلول) ١٩٥٦ أقيمت الحفلة فى قاعة كلية الحسين فى عمان ، وتكلم فيها عدد غير قليل من الخطباء والشعراء من المقيمين فى الاردن ، وممن يقيمون فى اقطار عربية اخرى مشيدين بذكرى الشاعر الشهيد الذى وقف قلمه وحياته وشاعريته على تحرير وطنه وشعبه من ربقة الاستعمار ، ثم قضى شهيدا ، وهو يذود عن وطنه فى معركة الشجرة سنة ١٩٤٨ .

وفى تلك الحفلة أعلنت اللجنة أنها ستتولى طبع ديوان الشاعر الشهيد تخليدا لذكراه ، واشادة بفضله ، واعترافاً بما قدمه لوطنه من التضحية العظيمة حينما جاد بروحه فى سبيله .

غير أن الأيام تطاولت قبل أن تتمكن اللجنة المنتدبة لهذا الغرض من تحقيق ذلك الوعد ، لقد كان عليها أن تبحث عن قصائده بحثا طويلا لدى ذويه وأصدقائه ، وفى الصحف التى كان ينشر فيها شعره ، وكان عليها كذلك أن تدرس تلك القصائد كلها لتختار منها ما يكفى لديوان جدير بعبد الرحيم.

ولم تكن المهمة سهلة ، فقد كانت تقع فى أيدى أعضاء اللجنة عدة نسخ من القصيدة الواحدة أحيانا ، وكثيرا ما كانت الأبيات تختلف بين كل نسخة وأخرى من حيث عدد الأبيات وترتيبها وعباراتها ، وكان على اللجنة أن تأخذ من بينها ما تراه أصوب من سواه .

ونود أن نعترف هنا ان اللجنة لم تر من الصواب أن تجمع فى هـذا الديوان كل قصائد الشاعر الشهيد ، ولا حتى القسم الأكبر منها ، ولم تر كذلك أن تنشر كل قصيدة له بأكملها ، بل آثرت ان تترك ما تجـده ضعيف الصياغة أو المعنى سواء أكان ذلك الضعف فى قصيدة كاملة أو فى أجزاء أو أبيات من القصيدة .

وهكذا اجتمع فى هـذا الديوان أحسن القصائد التى نظمها عبد الرحيم ، وأمتنها صياغة وأجودها معانى ، وأدلها على روح عبد الرحيم القوية المجاهدة المحبة للجمال وللعـدالة والانسانية .

وان اللجنة اذ تفى بوعـدها ، وتتقـدم الى الشعب العربى الكريم هـذه المجموعة من شعر عبد الرحيم محمود لا تفعل ذلك الا لتقوم ببعض الواجب نحو اخ عربى مجاهـد عاش شاعرا مجاهـدا ، ومات مجاهـدا شاعرا ، وكان أعظم قصائده استشهاده فى ميدان الشرف والكرامة والحرية ، وانسان مثل هـذا جـدير بكل تكريم ، فليس فى كل ما تحوبه الكتب ، ولا ما تخطه الأقلام ، ولا ما يقوله الخطباء والشعراء مما يعادل الدم الزكى الذى يراق فـدى للوطن والروح الغالية التى يجـود بهـا الشهيد لتحرير الشـعب .

ولقـد رات اللجنة أن تجمع فى نهاية هـذا الديوان بعض الكلمـات والقصائد التى ألقيت فى حفلة احياء ذكرى الشاعر الشهيد لأن فيها تعريفا بحياته وجهاده ، واشادة بشعره وفضله ، وبذلك تقـدمه للأمة العربيـة بشعره وحياته ، ومزاياه وأخلاقه فى آن واحـد .

والرحمة والخلود للشاعر الشهيد ، والبقاء والسعادة لأسرته وذويه .

عمان : فى ١٩٥٨/٥/٦

اللجنـة

توفيق أبو شريف ــ عادل الزواتى ــ عيسى الناعورى(٤) .

---

(٤) نشر فى صـدر الديوان فى طبعته الأولى سنة ١٩٥٨ . وفى دراسة كامل السوافيرى للشاعر ص ٥٨ ــ ٦٢ من ديوان عبد الرحيم محمود فى طبعته الثانيـة ــ وكتاب ناصر الدين الأسـد : محاضرات فى الشعر الحـديث فى فلسطين والاردن ص ١٧٣ .

ومن كلمة اللجنة الثــلاثية التى جاءت فى الديوان فى طبعتـــه الأولى تستخلص ما يأتى :

١ — أن اللجنة قبل قيامها بجمع الديوان ونشره جعلت أمامها هــدفا محـــددا يتلخص فى البحث عن شعر الشاعر « لدى ذويه واصدقائه ، وفى الصحف التى كان ينشر فيها شعره » وبعــد ذلك دراسة تلك القصائد كلها لتختار منها « ما يكفى لديوان جـــدير بعبد الرحيم » .

٢ — أن كثيرا من القصائد الى وقعت فى يد اللجنة كانت مختلفة فى الصياغة وترتيب الأبيات بالنسبة للقصيدة الواحـــدة .

٣ — أن اللجنة لم تنشر فى الديوان كل ما اجتمع لديها من شعر الشاعر ، ولا حتى القسم الأكبر منه ، بل حكمت ذوقها ، ونشرت احسن قصائده — من وجهة نظرها — وأمتنهاصياغة ، وأجـــودها معانى . وحـــدث ذلك ايضـــا بالنسبة للقصيدة الواحـــدة ، فاختارت من ابيات القصيدة ما تراه « اصوب من سواه » ، وأغفلت ما وجـــدته فى القصيدة الواحـــدة « من ضعيف الصياغة أو المعنى » . ونخلص من كل أولئك فى النهاية الى ان ما جمع فى الديوان أقل مما أغفلته اللجنة ولم تسمح بنشره .

وقـــد علق الدكتور ناصر الدين الأســـد على عمل اللجنة بقوله(٥) :

« ولا شك أن للجنة هـــدفا توخته فوفقت به ، ولكننا مع ذلك لا نملك أنفسنا من التساؤل : هل من حـــق من يتصدى لجمع ديوان شاعر أن يحكم ذوقه ورأيه فى شعره ؟ فيحـــذف منه ما يستضعفه ، ويثبت منـــه ما يراه جـــديرا بالاثبات ؟ ثم ما هى المقاييس النقـــدية التى وزن بها اعضاء اللجنة هـــذا الشعر ؟ وعلى أى أساس حكموا على بعضه بأنه ضعيف الصياغة

(٥) المرجع السابق ١٧٣ .

أو المعنى ؟ سواء اكان هــذا الضعف فى قصيدة كاملة أو فى أجزاء أو أبيات من قصيدة » .

* * *

والدكتور الأســد فى تعليقه السابق ، وهــو يلمح فى رفق وهوادة الى هــذه القضية انما يفتح أمامنا الباب الى القول بأن اللجنة كان يجب عليها أن تفرق بين عملين يختلف كل منهما عن الآخر :

العمل الأول : هــو جمع شعر الشاعر فى ديوان واحــد .

والعمل الثانى : تقييم هــذا الشعر ، وابداء الرأى ، وتحكيم الذوق فيـــه .

ومن البدهى أن اللجنة انما تشكلت للقيام بالعمل الأول فقط ، ومن ثم كان يجب ان تسلك سبيل الحياد ، فيقتصر عملها على جمع قصائد الشاعر كلها دون تحكيم الذوق الخاص .

أما القصائد التى تروى أبياتها أو بعض أبياتها بصيغ مختلفة ، فكان على اللجنة أن تثبت هــذه الصيغ المختلفة أيضا ، لأن عمل اللجنة فى هــذه الحال يشبه الى حــد كبير عمل المؤرخ الذى يرصد أخبـــار شخصية من الشخصيات ، أو يجمع الوثائق عن عصر من العصور ، انه لا يملك الحــق فى حــذف مرحلة من حيــاة هــذه الشخصية بحجة أن هــذه المرحلة « لم تعجبه » أو بحجة أنهــا لا تتسق مع ما للشخصية من ثقل وعظمة ورواء . وهــل الشعر الا الوثائق التى تمثل التاريخ النفسى والفكرى للشاعر ؟

وبهــذا المفهوم يكون هذا الشعر منطلقا ــ لا لفهم الشاعر وتضاريسه النفسية فحسب ــ بل للتعرف على طبيعة العصر والمجتمع ، ومكان هــذا الشاعر فيهما .

وانتاج الشاعر — بغض النظر عن اختلاف مستواه الفنى من قصيدة الى اخرى — لا يصبح ملكا للناقــد ، وان ملك حــق الحكم عليه ، بل لا أغلو اذا قلت : لا يصبح ملكا للشاعر نفسه لانه بابداعه اياه وانفصاله عنــه يغــدو جزءا من التراث الانسانى ، ومن ثم لا يملك أحــد — حتى الشاعر نفسه — حق رفضه واسقاطه من قائمة انتاجـــه الفنى . ومن باب أولى لا يملك من يتصدى لجمع هــذا الشعر أن يسقط منه ما لا يعجبه محكما ذوقــه الخــاص .

والمعروف أن النقــد لا يعمتد على معيار رياضى أو حسابى صارم غير قابل للنقض ، بل ان النقــد — وان أخــذ بمقاييس موضوعية — يعتمد من جانب آخر على التذوق الذى يختلف من ناقــد الى آخر ومن عصر الى عصر . فالشعر الذى رفضت اللجنه ضمه لديوان الشاعر بحجة ضــعف الصياغة أو المعنى قــد يكون من وجهة نظر نقاد آخرين ذا مستوى فنى طيب كريم .

على أن اعمال مبدأ « الانتقاء » فى جمع قصائد الشاعر — أى شاعر — لا يعــد اساءة الى هــذا الشاعر فحسب — بل يعــد اساءة وخطيئة فى حــق من يتصدون لدراسة الشاعر بعــد ذلك : لأن الأخــذ بهــذا المبدأ — مبدأ الانتقاء — يعــد تزويرا بالحــذف كما يقول رجال القانون . والأمانة العلمية تقتضى تقــديم كل ما جادت به قريحــة الشاعر كمــا هــو ، لأنه يمثل — كما قلنا — مناخه الفكرى وتضاريسه النفسية ، وتطــوره الفنى المرحلى . والحكم بعــد ذلك على هــذا الشعر فى مستوياته المختلفة يكون للنقــاد والدارسين لا لجامعى الديوان .

* * *

ودعنا نسأل انفسنا : هل حقا كان ما اختارته اللجنة من شعر الشاعر وجمعته فى ديوان بين دفتين ... هل حقا كان هــذا الشعر هو « أحسن القصائد التى نظمها عبد الرحيم محمود وأمتنها صياغة واجودها معانى ،

وأدلها على روح عبد الرحيم القوية المجاهدة المحبـة للجمـال والعـدالة والانسانية » ؟(٦) .

ان من يقرأ الديوان يجـد غير قليل من النماذج المتهافتة معنى وصياغة وتصويرا ، وقـد لا يختلف اثنان فى ذلك لوضوح الضعف والتهافت فى هـذه الأبيات ، ومنها على سبيل التمثيل قول الشاعر :

ان يكن خانك الف فى الهوى وتذوقـت مريرا غـــدره

فهـو أعفـاك وأخلى عامـدا شقة فى القلب اسكن غيره(٧)

فما رأى اللجنة فى البيت الثانى بصفة خاصة ؟ ... ما رأيها فى صورة هـذه الشقة التى طرد منها المحب حبيبه الغادر ، وطلب منه الشاعر أن « يسكن غيره » فيها ؟ !! .

وما رأى اللجنة فى هـذه العاطفة الباردة والألفاظ السوقية المبتذلة التى استخدمها الشاعر مثل : اغمزينى ·· اذبحينى ··· الخ فى قوله :

انظرى لى واجعـلى العطف يسل من نظراتك

واغمزينى فلقـد طـال انتظـارى غمزاتك

......

انبحينى بلحـــاظ وادفنينى فى الجفـون(٨)

مما سنعرض له بالتفصيل عند تقييم شعر الشاعر .

---

(٦) من تقرير اللجنة الثلاثية الذى صدرت به الطبعة الأولى من الديوان ·

(٧) ديوان عبد الرحيم محمود – الطبعة الأولى : من قصيدة « تبسم » ص ٢٣ ·

(٨) الديوان ٣١ (الطبعة الأولى) ·

واخيرا اقول : ان من حسن حــظ الأدب ان جامعى اشـــعار الشعراء — قـــديما وحـــديثا — لم يحكموا ذوقهم فى هـــذا الجمع ، بل فتحوا صدورهم لغثه وسمينه ، ووضيعه ورفيعه ، وحصاه ودره ، فخـــدموا بذلك الأدب والتراث ، وأرسوا بذلك قواعـــد المنهج العلمى الأمين .

والخلاصة أن اللجنة الثلاثية ، وقـــد أعطت نفسها حـــق الرفض والاسقاط بالنسبة لأغلب شعر الشاعر — ما كان لهـــا أن تسمى ما جمعت « ديوان عبد الرحيم محمود » بل « المختار من شعر عبد الرحيم محمود » لان التسمية الأولى تقطع بأن المجموع هـــو شعر الشاعر كله ، أما التسمية الثانية فهى تدل بصدق ودون اسراف على ما أدته اللجنة بأمانة ، وهـــو انها اختارت من شعر الشاعر ما اختارت على اسس معينة أبدتها ، وهى أسس واعتبارات مستساغة ممن يتصدى لتسجيل مختارات ، ولكنهـــا مرفوضة غير مستساغة ممن نهضوا « لجمع شعر الشاعر » ، وخصوصا اذا ما كان ذلك يتم لأول مرة .

وهناك مأخـــذ منهجى سجله الدكتور السوافيرى(٩) على عمل اللجنة ، وهـــو أنها « لم تشر الى المصادر التى استقت منها الشعر ، وخاصة الصحف والمجلات ، واذا تعـــذر تحـــديد اليوم والشهر ، فلا اقـــل من تحـــديد السنة ، واذا كان من الجائز أن يحفظ بعض الناس بعض القصـــائد ، فليس من المقبول أن يؤخـــذ كل الشعر الذى نظمه الشاعر من أفواه الرواة والحفاظ ، والأدنى الى الحقيقة أن هناك صحفا ومجلات قـــد نشرت كثيرا من القصائد ، واحتفظ الأصدقاء بجزازات منها » .

ونحن نرى أن هـــذا المـــأخـــذ له قيمته وخاصة فيما يتعلق بتاريخ نظم القصائد لأنه يعيننا على معرفة التطور الفنى والنفسى والفكرى للشاعر ، واذا تعـــذر التحـــديد الزمنى الدقيق فلا أقل من معرفة ترتيب نظم القصائد أو اغلبها بصورة تقريبية . وقـــد يستدل على هـــذا الترتيب الزمنى بوسائل متعـــددة منها :

---

(٩) ص ٧٣ من الدراسة التى صدر بها الطبعة الثانية من ديوان الشاعر .

١ — المواقف والمناسبات التى نظم فيها الشاعر قصائده : كالانتصار فى معركة ، او وفاة عظيم ، أو وقوع حدث سياسى كبير ... الخ .

٢ — فاذا تعذر ذلك لم يبق الا دراسة كل قصيدة دراسة فنية تعتمد على الذوق المرهف ، والبصيرة الواعية ، مع الاحتكام الى معايير عصر الشاعر ، وطوابعه الفنية والفكرية ، وترتيب هذه القصائد على أساس حظها من الفجاجة أو النضج .

ولكن المعيار الأخير يجب أن يؤخذ بحذر لأنه على وجاهته قد يكون ذا بريق خداع فى بعض الأحيان : فقد ينظم الشاعر فى ابان نضجه الفنى والعقلى قصيدة ضحلة الأفكار ، ضيقة الخيال ، واهية المبانى ، لضعف الداعية النفسية ، وهوان الموقف على نفس الشاعر[10] .

ومن المآخذ التى سجلها بعض الباحثين أن الديوان فى طبعته الأولى لم يصدر بترجمة ولو موجزة للشاعر الشهيد حتى تكون مدخلا لفهم شعر الشاعر . كما أن الديوان لم يخل من الأخطاء سواء فى طباعة الحروف أو ترتيب الصفحات . كذلك لم ترتب القصائد ترتيبا سليما ، ولم تلتزم أساسا معينا فى هذا الترتيب . فلم ترتب على أساس الموضوعات والأغراض ، ولا أساس التسلسل التاريخى لنظمها ، كما جاءت معظم قصائد الديوان مبتورة وناقصة ، ووضع لبعضها عناوين غير عناوينها الأصلية ، وعلى سبيل التمثيل قصيدة عنوانها فى الديوان « رثاء بطل » ص ١٢ . وأصل العنوان « موت بطل » وقصيدة عنوانها فى الديوان « الشعب الباسل » ص ١٧ ، مع أن عنوانها الأصلى « شعب فلسطين » ...[11] .

هذا عن الديوان فى طبعته الأولى ، وما أثاره ويثيره عمل اللجنة

---

(١٠) أنظر فى تحقيق هذه المسالة : جابر قميحة « منهج العقاد فى التراجم الأدبية » ٢١٧ – ٢٢٠ .

(١١) أنظر فى تفصيل هذه المآخذ : نافع عبد الله : الشاعر عبد الرحيم محمود ٨٣ – ٨٤

الثلاثية من مآخــذ وقضايا بسبب منهجها فى جمع شعر الشاعر . فمــاذا عن الطبعة الثانية من الديوان ؟

الطبعــة الثانيــة

فى سنة ١٩٧٤ صدرت الطبعة الثانية من ديوان عبد الرحيم محمود ، وقــد جمع القصائد وقــدم للديوان الدكتور كامل السوافيرى . والديوان من مائتين واربعين صفحة من القطع الصغير ، وهــو مصدر بكلمة من اربع صفحات لناجى علوش ، تليها دراسة عن الشاعر وشعره من مائة صــفحة للدكتور كامل السوافيرى ، وذيل الديوان بمقال له من ثلاث عشرة صفحة بعنوان « شاعر من فلسطين » كان قــد نشره من قبل فى احــدى الصحف ، أما الشعر فيأتى فى قرابة مائة صفحة .

وقــد ذكر الباحث فى دراسته عن الشاعر أنه فى جمع شعره اعتمد على الصحف الفلسطينية التى كانت تصدر من سنة ١٩٣٠ الى سنة ١٩٤٨ ، واعتمد كذلك على المجلات الأدبية التى كانت تصدر فى القــدس وبيروت ودمشق وبغــداد والقاهرة ، وعلى شعراء فلسطين الذين عاشوا معه وكان بينه وبينهم مودة وصداقة ، وعلى أفراد اسرته وأصدقائه المخلصين الذين يحتفظون بطائفة من قصائده ، وعلى من كانوا طلابا له فى مدرســة النجاح الوطنية ، هــذا زيادة على الطبعة الأولى للديوان .

ومن عجب ألا يشير الباحث فى هــذا المقام الى مصدر من أهم مصادره التى استقى منها شعر الشاعر واعنى به بعض الكتب والدراسات الأدبيــة والتاريخية التى عرضت لقضــية فلسطين والأدب الفلسطينى مثل كتــاب « النكبة » لعارف العارف ، وقــد نقل منه السوافيرى اكثر من قصيدة لم ترد فى الديوان فى طبعته الأولى ، مثل قصيدة « أيام النضال »(١٢) ، ومقطوعة « احمــلونى »(١٣) .

---

(١٢) الديوان ١٥٤ (السوافيرى) .

(١٣) الديوان ١٥٧ (السوافيرى) .

وكان الجـــديد ، أو ما اعتقد الدكتور السوافيرى أنه جـــديد فى عمله هـــــذا :

١ ــ أنه أثبت جميع أبيات كل قصيدة من القصائد التى أورد الديوان ــ فى طبعته الأولى ــ بعض ابياتها .

٢ ــ أنه أضاف قصائد جـديدة عثر عليها .

٣ ــ أنه اشار ــ فى حـــدود ما وصل اليه ــ الى مصدر كل قصيدة من القصائد بوجـــه عام .

٤ ــ أنه قسم شعر الشاعر الى أغراض هى الشعر الوطنى والشعر الاجتماعى والانسانى ، والشعر التأملى والشعر الوجـــدانى الذاتى(١٤) .

* * *

ومن حقنا أن نتساءل ، هل كانت النتائج التى حققها الباحث اعتمادا على هـــذه المصادر العـــديدة تعتبر اضافة حقيقية لعمل اللجنة الثلاثية الذى طبع سنة ١٩٥٨ ؟

الواقع يقول لا ... والديوان فى طبعته الجـــديدة يقطع بأن فى ذكر هـذه المراجـــع العـــديدة نوعا من الاسراف والتهويل ، فكل ما أضافه الباحث الى ما ورد فى الديوان القـــديم هـــو ٦٨ بيتا ليقفز شعر الشاعر من ٤٢٨ بيتا ــ وهو القـــدر الذى ورد فى الديوان فى طبعته الأولى ــ الى ٤٩٦ بيتا ، وهو ما سجل فى الطبعة الجـــديدة ، وهى محصلة ضئيلة كما هو واضح .

ولا يستطيع أحـــد ــ كائنا من كان ــ أن يدعى أن الديوان ــ فى طبعته

---

(١٤) انظر دراسة السوافيرى ٧٤ ـ ٧٧ من الديوان فى طبعته الثانية .

الثانية ضم شعر الشاعر كله ، حتى لو لم ينطق بالشعر الا سنة ١٩٣٥ ، مما دفع ناجى علوش[١٥] الى وصف عمل السوافيرى بأنه محاولة « ... وان هـــذه المحاولة لم تتجاوز المحاولة الأولى الا قليلا » . بل نرى الباحث نفسه يعترف بأنه لا يستطيع أن يزعم انه قـــد توصل الى كل ما نظم الشاعر من شعر، ولا الى معظم ما ابدعت شاعريته »[١٦] .

وأقول ان الحصيلة ضئيلة ، ومجهود الباحث محـــدود ، وأنا على يقين أن للشاعر أضعاف هـــذا الشعر ، وخاصة ما نظمه فى مغتربه بالعراق من سنة ١٩٣٩ الى سنة ١٩٤٢ ، والذى لم ينشر منه الا قصيدة واحـــدة أو اثنتين ، مع ن فراق اوطن — وخصوصا اذا كان الطريد شاعرا عاشـــــقا لوطنه كعبد الرحيم محمود — يسعر فى الأعماق شدة الاحساس بالظـــلم والتشوق الى مرابع الأجـــداد والآباء ، ومدارج الطفولة والشباب ، ومن منا ينسى « روميات أبى فراس ، وسرنديبيات البارودى ، وأندلسيات شوقى ، وهى خير ما نظم هؤلاء الشعراء »[١٧] .

وكان من المفروض أن يكون شعر الحنين من اكثر شعر عبد الرحيم ، ومن أعمره بالالاحساس والعاطفـــة . فأين هـــذا الشـــعر ؟ لم يستطيع السوافيرى أن يعطى اجابة مقنعة عن هـــذا السؤال فى دراسته ، وأورد فى الديوان القصيدة اليتيمة التى نشرت فى الديوان القـــديم[١٨] ، وربما أمكن تعليل هـــذا النقص الواضح بواحـــد من الافتراضات الآتية :

١ — أن يكون الشاعر خلال مدة اقامته بالعراق قـــد أصيب بحالة احباط نفسى توقفت معها قريحته الشاعرة عن الانتاج ، وقـــد يستأنس فى هـــذا

---

(١٥) من كلمته التى صدر بها الديوان ص ٦ .

(١٦) الديوان ٧٧ .

(١٧) راجع د. ماهر حسن فهمى فى كتابه الحنين والغربة فى الشعر العربى الحـــديث وخصوصا الصفحات من ٤٠ الى ٤٦ .

(١٨) هى قصيدة « حنين الى الوطن » التى نشرت فى الديوان بطبعته الجـديدة ص ١٣٦ ، وقـد أشرنا من قبل الى أن هناك قصيدة أخرى من وحى الغربة أغفل الدكتور السوانيرى ذكرها مع انه نشرها فى الديوان ص ١٧٣ .

المقام بما نقله الجاحظ من قول بعضهم « الغريب كالغرس الذى زايل أرضه ، وفقــد شربه ، فهو ذاو لا يثمر ، وذابل لا ينضر »[19] . وليس هــذا بالأمر الغريب بالنسبة لبعض الشعراء ، ولعل من أشهر النماذج فى هــذا المجال شاعر النيل حافظ ابراهيم بعــد أن عين سنة ١٩١١ رئيسا للقسم الأدبى فى دار الكتب المصرية « فقــد كانت هــذه الفترة فى حياته — وما أطولها — فترة نضوب فى شعره ، وجمود فى قريحته الا نادرا ، فكان منصبه نعمــة عليه ونقمة على فنه ، ومنفعة له ، ومضرة على الناس »[20] ، اقول لعــل شاعرنا قــد اصيب فى العراق بمثل ذلك فعزف عن نظم الشعر ورأى أن يشغل نفسه بالاعــداد العسكرى العملى لخوض المعركة الكبرى فى فلسطين ضــد الصهيونية وحكومة الانتداب .

٢ — ان يكون الشاعر قــد نظم كثيرا من قصائد الحنين فى الصــحف العراقية وغيرها وأن هــذه الصحف لم تتوصل اليها اللجنة الثلاثية ، كما لم يتوصل اليها ناشر الديوان فى طبعته الأخيرة .

٣ — ان يكون الشاعر قــد نظم كثيرا من هــذه القصائد ، واحتفظ بها لنفســه دون أن تنشر ، وفقدت فى مغتربه ، أو عند عودته الى فلسطين سنة ١٩٤١ .

كل هــذه فروض واحتمالات كان على الثلاثة الذين جمعوا الديوان فى طبعته الأولى ، وعلى ناشر الديوان فى طبعته الثانية أن يحققوها ليخلصوا الى الراجح منها . وكم كنت اتمنى ان يكون تحت يدى من المراجع والوسائل ما يحقق لى هــذه الأمنية[21] .

---

(١٩) الجاحظ : حنين الى الوطن ٨ .

(٢٠) احمد امين : مقدمة ديوان حافظ ابراهيم ١٩ . وانظر كذلك صفحة ١٥ وانظر للدكتور عبد الحميد الجندى : حافظ ابراهيم شاعر النيل ٤٢ — ٤٤ .

(٢١) سنرى فى الطبعة الثالثة من الديوان التى حققها نافع عبد الله ، والحقها بدراسته عن الشاعر وطبعها سنة ١٩٧٩ ، وكذلك فى القصائد الجديدة التى أوردها جرار فى دراسته « شاعران من جبل النار » ما يؤيد أنه كان لعبد الرحيم محمود قصائد نظمها فى العراق ولم ترد

فالفرق اذن بين الديوان — فى طبعتـــه الثانية ، والديوان فى طبعتـــه الأولى فرق كمى ضئيل ، لأنه باستثناء عشرات الأبيات التى اضافها لم يقدم للقارىء كل شعر الشاعر أو معظمه باعتراف الباحث نفسه . ومن ثم كان يجب أن يستبدل بعنوان « ديوان عبد الرحيم محمود » العنوان الذى اقترحناه للطبعة الأولى من الديوان وهو « المختار من شعر عبد الرحيم محمود » اذ ان المشكلة بالنسبة لشعر الشاعر ما زالت قائمة .

هـــذا وكان من المفروض أن يتفادى الباحث الأخطاء التى وقعت فيها اللجنة ، والتى عرضنا لها فى الصفحات السابقة ، وعرض لبعضها الدكتور ناصر الدين الأســد ، وعرض لبعضها الباحث فى دراسته عن عبد الرحيم مجمود . فكان عليه مثلا أن يعرض القصيدة فى صيغها المختلفة ان كان لهـــا أكثر من صيغة او أكثر من شكل فى الترتيب ، فقـــد يكون الشاعر من هـــواة التنقيح الذين لا يقنعون بصورة واحـــدة لقصائدهم كما نرى عند كثير من شعراء العصر الحـــديث[٢٢] .

وكان عليه أن يورد الأشعار التى أسقطتها اللجنة الثلاثية ، ولم تنشرها فى الديوان لمـــا وجـــدته فيها — على حـــد قولها — « من ضعف الصياغة أو المعنى سواء أكان ذلك الضعف فى قصيدة كاملة أو فى أجزاء أو أبيـــات من القصيدة » ، وخصوصا أن هـــذا المسلك كان أهم ما أخـــذ عليها ممن قاموا بتقييم عملها ، ومنهم الدكتور ناصر الدين الأســد ، وتابعه فى ذلك الباحث نفســـــه .

وهـــذا يعنى أن ما توفر للجنة من شعر الشاعر — منشورا فى الصحف او مخطوطا — كان اكثر بكثير مما توفر للدكتور السوافيرى الذى أرى أنه

فى الديوان بطبيعته الأولى والثانية ، بعضها نشر ، وبعضها فقـد ، وبعضها لم يبق منه الا ابيات قليلة (انظر مثلا بقايا قصيدة نظمها الشاعر فى البصرة سنة ١٩٤١ ص ١٥٣ من دراسة نافـع عبد الله .

(٢٢) من أشهر الشعراء المنقحين فى العصر الحـديث خليل مطران وعباس العقاد وامل دنقـــــل .

اعتمد اعتمادا شبه كلى على الديوان فى طبعته الأولى ، ولم يجشم نفسه مشقة البحث الجاد عن أصول هـذا الشعر فى اشكاله او صياغاته المختلفة ، ولو فعل ذلك لفتح أمام الباحثين والدارسين بابا جـديدا فى البحث عن سر اختلاف الصيغ أو التفاوت الفنى واللغوى فى شعر الشاعر .

* * *

ومن عجب كذلك أن جامع الديوان الجـديد يأخـذ على اللجنة الثلاثية أنها لم تشر « الى المصـادر التى استقت منها الشعر وخاصـة الصحـف والمجلات »(٢٣) اقول : من عجب أن يسجل الباحث هـذا المـأخـذ على اللجنة ، ويقع هو فيه أيضا ، فلا يذكر المصادر التى استقى منها الأبيـات المزيدة فى الطبعة الجـديدة ، كما نرى فى قصيدة « البطل الشهيد » التى كانت فى الديوان القـديم احـد عشر بيتا ، فصارت فى الديوان الجـديد ستة وثلاين بيتا(٢٤) ، وقصيدة « حنين الى الوطن »(٢٥) التى ارتفع بها الشاعر من سبعة عشر بيتا الى تسعة عشر بيتا ، واللزوميـات (د) ، (هـ) ، (و)(٢٦) وقـد اكتفى الباحث فى شأنها بقوله « هـذه اللزوميات غير موجوده فى الديوان » اى فى طبعته الأولى ، ولا يذكر — كدابه فى القصائد السابقة — مصدرها على وجه التحـديد ، وواضح ان هـذا السلك يتجافى مع المنهج العلمى بعـد أن وقع الباحث فى نفس الخطأ المنهجى الذى سقط فيه ثلاثى الديوان فى طبعته الأولى ، وكان ذلك من المـآخـذ التى سجلها عليهم .

* * *

وفى هـذه الطبعة الثانية يصطدم القارىء بكثير من الكلمات المعجمية التى كانت فى حاجة الى تفسير ، ومنها على سبيل التمثيل : (أوكع — آبق)

---

(٢٣) الديوان (الدراسة) ٧٣ .

(٢٤) الديوان ١٢٩ (السوافيرى) .

(٢٥) الديوان ١٣٦ (السوافيرى) .

(٢٦) لاديوان ١٨٣ (السداوفيرى) .

ص ١١٤ — الظيم ص ١١٥ — (القنا — السمهرى — العجاج — الأكدر) ص ١١٧ (جدلوا — يخفر — وطر) ص ١١٨ — هصر ص ١١٩ — (الشرى — الدنا) ص ١١٢ ... الخ ، ولا تكاد صفحة من صفحات الديوان تخلو من مثل هـذه الكلمات المعجمية ، فقد كان الشاعر حريصا على اللفظ العربى الأصيل فى كثير من قصائده ، وبخاصة شعر الحماسة .

وكان على الباحث أن يقـدم تفسيرا لهـذه الكلمات وامثالها حتى لا يقطع على القارىء الجـو النفسى الذى يسيطر عليه وهـو يعـايش القصيدة ، وذلك بالتوقف عن القراءة والانفصال عن القصيدة ليأذا بالمعجم بحثا عن معنى كلمة عصية ، وقـد لا يلجأ القارىء الى المعجم فيعبر مثل هـذه الكلمة بلا فهم وذلك أيضا يسىء الى القصيدة من ناحية الحصـيلة الفكرية التى يخرج بها القارىء منها .

الطبعـة الثالثـة

وأمام هـذا النقص الفادح وتلك المـآخـذ الصارخة التى وصمت الديوان فى طبعته الثانية تصدى بعض من نهضوا لدراسة الشاعر الشهيد للوفاء بجمع شعر الشاعر مع محاولة تفادى السقطات والنقائص التى وصمت العملين السابقين .

وبجهود مستقلة نهض اثنان من الدارسين لجمع الديوان من جديد :

الأول : هـو نافع عبد الله صاحب الدراسة الأكاديمية عن الشاعر ، وقـد جمع شعر عبد الرحيم والحقه بهـذه الدراسة ، وأعلن فى دراسته انه قـد تمكن من جمـع ٧٤٢ بيتا لعبـد الرحيم محمـود ... جمعها من المخطوطات والكتب والصحافة الأدبية ، بعد نقص مستمر ، وبحث متواصل ، ومكابدة طويلة[٢٧] . وقـد شرح الأسس التى رتب عليها قصائد الديوان

(٢٧) نافع : الشاعر : عبد الرحيم محمود ٨٩ .

الملحق بدراسته(٢٨) . وهـــذا القـــدر الذى اعلن الدارس عن جمعه يزيد على ما ضمه الديوان فى طبعته الأولى بثلاثمائة واربعة عشر بيتا ، ويزيد على ابيات الطبعة الثانية بمائتين وستة واربعين بيتا . وقـــد طبعت الدراســـــة — ملحقا بها الديوان — سنة ١٩٧٩ .

أما الدارس الثانى : فهو وليد صادق سعيد جرار الذى بذل مجهـــودا مضنيا فى سبيل تحقيق طلبته ، فسافر الى عنبتا — بلد الشاعر ، ولكنه عاد بخفى حنين — كما يقول — اذ أعلمه أقارب الشاعر وذووه أن آثار الشاعر الأدبية وأوراقه بقيت محفوظة فى صندوق حـــديدى الى سنة ١٩٦٧ حيث تعرضت للحرق والاتلاف خوفا من تفتيش البوليس الاسرائيلى .

ومكث الباحث يفتش عن شعر عبد الرحيم محمود سنة كاملة راسل خلالها كثيرا من تلاميذ الشاعر ومعارفه ، حتى هيأ الله أحـــد تلاميذ الشاعر التـــدامى بكلية النجاح الوطنية وهـــو الأستاذ « بدران الطاهر » الذى أمده بقصاصات من أوراق الجرائد والمجلات اللبنانية والفلسطينية التى كان الشاعر ينشر فيها قصائده ، هـــذا بالاضـــافة الى كراســـتين مخطوطتين تشملان اشعارا كثيرة من ضمنها قصائد كاملة او مبتورة لعبد الرحيم محمود ، فعكف الدارس على هـــذه الأوراق يقارن بينها ويقابلها على ما نشر فى الديوان أو ما يحفظه بعض المهتمين بشعره ، وينقحها ، ويعيد كتابتها من جديد(٢٩) .

وقـــد استطاع الباحث — كما يقول — أن يجمع ديوان الشاعر من جـــديد ، وان يرتبه ترتيبا جـــديدا توخى فيه الناحية التطورية عند الشاعر فى الأغراض المختلفة التى نظم بها الشاعر شعره(٣٠) .

وما زال الديوان مخطوطا ، ولكن الباحث كان من الجرأة بحيث اعتمد فى دراسته للشاعر على هـــذا الديوان المخطوط الذى جمعه ويعـــده للنشر ،

(٢٨) أنظر : نافع : السابق ٨٩ — ٩٠ .

(٢٩) أنظر جرار : شاعران من جبل النار ص ١٠ وما بعدها .

(٣٠) أنظر : جرار : السابق ٣٤٩ .

واستبعد تماما الديوان فى طبعته الأولى الذى قامت بجمعه ونشره اللجنة الثلاثية سنة ١٩٥٨ وكذلك الديوان فى طبعته الثانية الذى أصدره السوافيرى سنة ١٩٧٤ ، كما استبعد تماما ما قامت به مكتبة بلدية نابلس من جمع لبعض قصائد الشاعر ونشرها سنة ١٩٧٥ لكثرة ما فيها من أخطاء وقعت بدون تحقيق أو تمحيص[٣١] .

ولنا على ما قام به الدارسان ملاحظات نوجزها فيما يأتى :

١ — من المقطوع به أن العمل الأخير الذى نهض به جرار لم يصدر بعد ، لأن الطبعة الأولى من كتابه « شاعران من جبل النار » صدرت سنة ١٩٨٥ ، وفيها يذكر أن الديوان ما زال مخطوطا ، وقد اعتمد اعتمادا كليا — فى دراسته عن عبد الرحيم على هذا الديوان المخطوط . ولكن يظهر أن هذا الديوان المخطوط قد ضم شعرا غزيرا ، ينم على ذلك الشواهد الكثيرة التى أوردها فى كتابه ، ولا وجود لها فى الديوان بطبعتيه السابقتين (١٩٥٨ ، ١٩٧٤) . وان كنا نأخذ عليه انه أغفل اغفالا تاما الاحالة الى الديوان فى طبعتيه فيما يتعلق بالشعر الذى سبقا الدارس اليه فهذا من حقهما لأن لهما فضل السبق فى جمعه ، وهذا ما لم يقع فيه الدارس الأول : نافع عبد الله ، وهذه مسألة نعود اليها بعد قليل .

٢ — ألحق نافع عبد الله الشعر الذى جمعه لعبد الرحيم محمود بالدراسة التى كتبها عنه[٣٢] ، وعدد الأبيات ٧٤٢ بيتا ، أى ما يزيد على أبيات الطبعة الأولى بـ ٣١٤ بيتا ، وعلى أبيات الطبعة الثانية بـ ٢٤٦ بيتا . وكان للدارس خطة واضحة الملامح فى معالجة هذا الشعر والتعامل معه ، وخلاصتها :

(أ) رتب القصائد ترتيبا موضوعيا ، فكان تصنيفه لهذا الشعر على النحو التالى : الوطنيات ص ١٢٥ : ١٨ قصيدة — الاسلاميات

---

(٣١) للأسف لم يقدر لنا أن نطلع على ما نشرته مكتبة بلدية نابلس ، وواضح أيضا أن سعيد جرار لم يطلع على الدراسة التى كتبها نافع عبد الله ، ومن ثم لم يطلع على ديوان عبد الرحيم محمود الملحق بالدراسة .

(٣٢) ملحق رقم (١) من ص ١٢٥ الى ص ١٨٦ .

ص ١٤٩ : ٣ قصائد — الاجتماعيات ص ١٥٣ : ٥ قصائد — الانسانيات ص ١٥٩ : ٣ قصائد — الوجـدانيات ص ١٦٣ : ٤ قصائد — الغزليات ص ١٧٠ : ١٣ قصيدة[٣٣] ٠

(ب) وفى نطاق قصائد الغرض الواحـد رتب الشاعر القصائد ترتيبا تاريخيا باعتبار نشرها ٠

(جـ) بين مناسبات القصائد ، وعـدد أبيات كل قصيدة وبحرها ، وميز ما اتفق من الأبيات مع الطبعتين السابقتين وما أضافه جديدا . مع النص على الروايات المختلفة للأبيات والعبارات ٠

(د) حرص الباحث على ذكر المصادر التى استقى منها شعر عبد الرحيم وهى تكاد تنحصر فى ثلاثة هى : الديوان بطبعتيه والمخطـوطات والصحافة الأدبية ٠

ولكننا نأخـذ عليه أنه ترك كثيرا من الكلمات دون تفسير ، وما فسر الا أقل القليل ، وكثير منه لا يحتاج الى تفسير ، مع أنه أعلن ابتداء فى دراسته انه وضـع للديوان « حاشية تشمل الألفـاظ التى تحتـاج الى تفسير أو توضيح[٣٤] .

كما أننا نأخـذ عليه أنه لم يف بما وعـد من ايراد الأبيات مشكولة مرقمة ، فجاءت الأبيات مرقمة ، ولكنها غير مشكولة .

كما نأخـذ عليه خطأه أحيانا فى النقل دون تثبت ، ومثال ذلك أنه كتب تحت عنوان « ذكرى المولد الشريف » : قصيدة مفقودة ألقاها فى نادى أنصار الفضيلة بمناسبة عيد المولد الشريف عام ١٣٦٥ هـ منها هـذا العجز :

.... **من رأى فجرين فى صبح معـا**[٣٥]

---

(٣٣) اطلقنا كلمـة « قصيدة » بشىء من التجاوز والتسامح ، فهى تتسع للمقطوعة ، وما تبقى من قصيدة مفقودة لو كان بيتا أو شطرا من بيت ٠

(٣٤) نافع : السابق ٩٠ ٠

(٣٥) نافع : السابق ١٥٢ ٠

وهـــو كلا لا معنى له ، وقـــد أورد جرار القصيدة كاملة(٣٦) ، وبيتها الأخير هـــو :

من رأى من قبـــل أسمى ليـــلة ذات فجرين ينيران الظـــلاما

ولكن يبقى ما قـــدمه نافع عبد الله ناما على مجهود صادق ومعـــاناة طويلة وعزم قـــوى ، ومع ذلك لا نستطيع أن نقطع — ولا الباحث نفسه — أن ما قـــدمه من شعر هـــو كل ما جادت به قريحة عبد الرحيم محمود . فلو افترضنا أن عمره الأدبى قرابة خمسة عشر عاما لكان معنى هـــذا أن حظه من النظم لا يزيد على خمسين بيتا فى العام . ولكن دعك من هـــــذا فالانتاج الفنى لا يخضع ولا يقاس بمثل هـــذا المعيار الحسابى الحاد ، ولنواجه هـــذه الأسئلة التى ما زالت — بعـــد هـــذا المجهود الصـــادق — تطل علينا برءوسها ، وتطلب الجواب :

— أين شعر البدايات ؟ .... أين شعر مرحلة « الحبـــو الفنى » ؟ أين الباكورات التى نظمها عبد الرحيم طالبا فى السنة النهائية بمدرســـة النجاح .. ذلك الشعر الذى أعجب به الأستاذ ابراهيم طوقان ؟(٣٧) . اذ ليس من المعقول أن تكون البداية الشعرية سنة ١٩٣٥ بمثل قصيدة « نجم السعود » وهى من أنضج شعر عبد الرحيم .

— وأين المساجلات الشعرية بينه وبين شعراء العراق من امثال : معروف الرصافى والمهـــدى الجواهرى وجميل صدقى الزهاوى ؟

— وأين ما نظمه الشاعر فى العراق واحـــداثه بعامة ، وثورة رشيد عالى الكيلانى بخاصة ؟

— وهل من المعقول الا يكون لهـــذا الشاعر الوطنى المخلص عاشق الحرية وفلسطين الا قصيدة واحـــدة أو قصيدتان فى الحنين الى وطنه بعـــد غيبة ثلاث سنوات عنه ؟

---

(٣٦) شاعران من جبل النار ٢٦٩ — ٢٧٠ .

(٣٧) أنظر فـدوى طوقان : أخى ابراهيم فى صـدر ديوانه ص ٢٣ .

ـــ ثم أين مذكراته التى أشار اليها بعض من كتبوا عنه ، وفيها ـــ كما قيل ـــ كان يوجه نقـــدا مرا لكثير من الرؤساء والقادة ؟

كل اولئك يجعلنا نرجح انه ما زال هناك الكثير والكثير من شـــــعر عبد الرحيم تائها او مفقودا ، واننا نسرف على انفسنا كثيرا اذا ما زعمنا أن ما جمعه نافع عبد الله يمثل كل ما نظم الشاعر .

وهـــذا الترجيح يرقى الى مرتبة اليقين اذا ما نظرنا الى تلك الدراسة اللاحقة التى كتبها وليد صادق سعيد جرار بعنوان : شاعران من جبل النار : ابراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود ، والتى صدرت بعـــد كتاب نافع بست سنوات ، وقـــد حظى عبد الرحيم من هـــذه الدراسة بمـــــائة وخمسين صفحة ، وقـــد اعتمد الباحث اعتمادا كليا ـــ كما قلنا ـــ على مخطوطته التى ضمت ما جمعه من شعر عبد الرحيم ، واستقى من هـــذا المخطوط ـــ الذى لم يطبع بعـــد كل شواهده مغفلا كل المنشورات السابقة ـــ كما ذكرنا ـــ على الرغم من وجود قصائد مشتركة بين مخطوطه وبينها .

وقـــد استخدم وليد جرار فى دراسته هـــذه ـــ ما لا يقل عن الف بيت فى تقييم فن الشاعر والكشف عن شخصيته واتجـــاهاته الفكرية ، وطوابعه الفنية ، ومن البدهى أن هـــذه الشواهد لا تمثل كل الديوان المخطوط .. بل ربما قلت عن النصف بكثير . وقـــد احصيت من هـــذه الألف قرابة ثمانمائة بيت لم ترد فى الديوان بطبعاته الثلاث (١٩٥٨ ـــ ١٩٧٤ ـــ ١٩٧٩)(٣٨) ، بعضها قصائد فائقة الطول كقصيدة « أحاج فى ذكرى وعـــد بلفور »(٣٩) فقـــد

---

(٣٨) لم ندخل فيما أحصينا ما زاده الدارس من أبيات على قصائد سبق نشرها فى احـدى الطبعات الثلاث السابقة ، انما اعتبرنا فقط ما كن قصائد أو مقطوعات لم يسبق نشرها أو نشر بعض منها باستثناء قصيدة « حنين الى الوطن » فقـد جاءت فى الطبعة الأولى ١٧ بيتا ، وجاءت عند السوافيرى ونافع ١٩ بيتا ، وجاءت فى دراسة جرار ٢٨ بيتا ص ٢٧٩ ، وقصـيدة « القرآن الكريم » فهى لم تنشر فى الديوان بطبعتيه الأولى والثانية ، ونشرها جرار ص ٢٦٧ فى ٤١ بيتا ، بينما نشر منها نافع ص ١٤٩ ثلاثة أبيات غير مرتبة هى : ١ ، ١٣ ، ٤١ ، على خلاف فى بعض الفاظ البيت الأخير بين نافع وجرار .

(٣٩) شاعران من جبل النار ٢٥٦ .

بلغت اثنين وسبعين بيتا ، وقصيدة « روض وانى عنطليه »(٤٠) فقد جاءت فى تسعة وخمسين بيتا ، وقصيدة « ثورة دمشق »(٤١) وقد بلغت اثنين وخمسين بيتا .

فاذا افترضنا أن هذه الشواهد تمثل نصف الديوان المزمع طبعه — وهى لا شك أقل من هذا بكثير — وأضفنا اليها ما جمعه نافع عبد الله ملحقا بدراسته لضم الديوان المنتظر ما لا يقل عن ٢٥٠٠ بيت يمكن أن يقال انها كل أو جل ما جادت به قريحة الشاعر .

٣ — وتتمثل القيمة الكبرى للشعر الذى أورده وليد جرار فى انه كثيرا منه تناول موضوعات ونظم فى اغراض لا وجود لها — أو مست مسا خفيفا فى الديوان بكل طبعاته السابقة مثل الموضوعات والمناسبات الاسلامية والمدح وشعر الأحاجى والألغاز ، والموضوعات القومية العامة التى تتعلق بالوطن العربى .

ولكن الحكم النهائى الحاسم لن يكون الا بعد ان يطبع هذا المخطوط ونكون أمام ديوان الشاعر الشهيد فى طبعته الرابعة ، وقرائن الأحوال تدل على أنه سيكون فى هذه الطبعة أوسع وأشمل وأوفى .

---

(٤٠) السابق ٢٩٨ .
(٤١) السابق ٢٨٢ .

الفصل الرابع

الآفاق والمجالات الشعرية

الشعر الفلسطينى والمناخ الفنى

ما بين أيدينا من شعر عبد الرحيم محمود يكاد يحـــدد عمره الفنى بثلاثة عشر عاما ، وان كنا قـــد ألمحنا من قبل الى أن ما عندنا من بداياته الشعرية يوحى بأن هـــذه البدايات ، أو ما يقال انها بدايات — مسبوقة ولا شـــك بغيرها من قصائد ، قلت أو كثرت ، طالت أو قصرت . ويؤيدنا فى هـــذا الرأى ما ذكرته اللجنة التى أصـــدرت ديوانه فى طبعته الأولى من أنها أغفلت كثيرا مما نظمه لأسباب أبدتها ، وهى فى مجموعها أسباب واهية مضعوفة ، وياليتها ما فعلت[1] .

كما يؤيدنا فى ذلك ما أورده بعض الباحثين من ابيات قليلة نظمها الشاعر سنة ١٩٣٠[2] .

وقبل أن نلج عالم الشاعر لنصحبه فى الآفاق التى حلق فيها بشعره . أرى أن نقف قليلا أمام الرقعة الأدبية التى دب عليها الشاعر ، والجو الفنى الذى سيطر عليها فى الربع الثانى من القرن العشرين والذى استغرق أغلبه العمر الفنى للشاعر .

---

(١) راجع الفصل الثالث من هـذا البحث .

(٢) انظر وليد جرار : شاعران من جبل النار ٣٢٧ .

وقد عمرت هذه الفترة بعدد كبير من الشعراء تفاوت حظهم من الشهرة وحظهم من الشاعرية . ومن هؤلاء ابراهيم الدباغ واسكندر خورى ومحيى الدين الحاج عيسى الصفدى ومحمد العدنانى ومصباح العابودى ومطلق عبد الخالق وبرهان الدين العبوشى وفدوى طوقان ومحمود سليم الحوت وسعد العيسى وعلى هاشم رشيد وحسن البحيرى(٣) .

وربما كان أشهر هؤلاء فى تلك المرحلة ابراهيم طوقان وعبد الكريم الكرمى (أبو سلمى) وعبد الرحيم محمود : وكانت هذه الفترة من أعمر الفترات وأزهاها فى حياة الشعر العربى الفلسطينى :

فمن الناحية السياسية شهدت هذه المرحلة هزاهز وأحداثا جلى انتهت بالنكبة الفاجعة ... وشهدت هذه الفترة انتفاضة ١٩٢٩ وثورة الفلسطينيين اثر حادث البراق ، وشهدت شنق الأحرار الثلاثة بعد ذلك . وشهدت ثورة عز الدين القسام التى انتهت باستشهاده واستشهاد بعض اصحابه . وشهدت الانتفاضة الفلسطينية الكبرى سنة ١٩٣٦ ، وشهدت نماذج شامخة من الكفاح من أبرزها نضال عبد الرحيم الحاج محمد ورفاقه . وشهدت قرار التقسيم الذى كان بداية سياسية دولية للنكبة وقيام دولة اسرائيل .

وكل هذه الأحداث ولا شك كانت عاملا رئيسيا فى تفتيق شاعرية الشعراء ، وتوجيه هذه الشاعرية نحو القضية الأم قضية فلسطين ، ومن هؤلاء — كما ذكرنا من قبل — من كان الشعر الفلسطينى يستغرق اغلب ما تجود به قريحته الشعرية مثل أبى سلمى وابراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود ، فأصبحت الكلمة الشاعرة — لا مرآة تعكس احداث العصر وكفاح الشعب فحسب — ولكن اداة فعالة لتفتيح العيون ، ودق اجراس الخطر ، والهاب المشاعر ، واثارة الأحاسيس . ومن الشعراء من لم يكتف بالكلمة بل حمل السلاح ، وخاض المعارك الى أن لقى ربه شهيدا مثل عبد الرحيم

(٣) يقول د. عبد الرحمن ياغى انه جمع شعرا لأكثر من اربعين شاعرا شغلوا بشعرهم مساحة زمنية من سنة ١٩٢٠ الى سنة ١٩٣٩ (انظر حياة الأدب الفلسطينى ٢٢٧) .

محمود . ومنهم من قاتل وروى أرض وطنه بدمه وان لم يحظ بالشهادة مثل برهان الدين العبوشى[٤] .

* * *

وكان المناخ الأدبى فى البلاد العربية المحيطة بفلسطين يشهد فى هذه الفترة نهضة شعرية زاهية ، ففى الساحة الأدبية كان هناك شوقى وحافظ وخليل مطران وعبد الرحمن شكرى وأحمد نسيم واسماعيل صبرى . وفى العراق معروف الرصافى وجميل صدقى الزهاوى والمهدى الجواهرى . واتجهت الأنظار كذلك الى الأمريكتين حيث شعراء المهجر الذين شنفوا الأسماع بألحان عذبة صادقة من أمثال جبران خليل جبران وايليا أبى ماضى وميخائيل نعيمة ورشيد سليم الخورى وفوزى المعلوف ونعمة قازان .

وبدا تيار التجديد يرسى بعض قواعده فى المنطقة العربية ، وان تبلور — بصفة أساسية — فيما يمكن ان نسميه « بالتجديد الموضوعى » الذى اتسع للمضمون أكثر من اتساعه للشكل . وبذلك كان التجديد وسطا لا شطط فيه ولا اسراف . اذ حافظ الشعراء — بصفة عامة — على أصالة الكلمة العربية ، والموسيقا المأثورة ، ولكنهم ابتعدوا بموضوعاتهم عن دائرة الاختناق فى الاخوانيات والمناسبات الخاصة ، وجنحوا بشعرهم نحو الوطن آلاما وآمالا وكفاحا ونضالا ، وتغنوا بالقيم الانسانية العليا من تضحية وفداء وعدل وحرية ، واستغرق الشعر الوطنى الفلسطينى أغلب شعر هذه الفترة ، وكان للشعراء الشباب آنذاك فضل كبير فى التوجيه السياسى والاجتماعى ، وهاجموا الاستعمار .. وطالبوا بالاعتماد على الشعب وحده فى تحقيق اهدافه ، وهو وحده الذى يقرر المصير ، وأيدوا الحركات العمالية الناشئة آنذاك ، ودافعوا بالكلمة عن المثل العليا وعن الحرية

---

(٤) اشترك الشاعر اشتراكا فعليا هو وبعض الفلسطينيين فى ثورة رشيد عالى الكيلانى والتحق بالثوات العربية التى حاربت اليهود فى فلسطين سنة ١٩٤٧ ، كما خاض المعارك ضد اليهود مع جيش الانقاذ ، وأصيب بجرح بالغ فى كتفه (أنظر د. السوافيرى : الأدب العربى المعاصر فى فلسطين ١٥٢) .

والديمقراطية ... وساروا مع شعبهم ، وسجلوا كل خفقاته وتطلعاته ، وسجلوا أحزانه وافراحه وسكناته وثوراته .

* * *

وكان بزوغ نجم ابراهيم طوقان أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات كسبا كبيرا للشعر الفلسطيني والوطني منه بصفة خاصة ، فقــد كان نموذجا حيا للشاعر الموهوب المثقف الذى سارت شاعريته فى طريق النمو المطرد مسترفدة ثقافته العربية الأصيلة ، واطلاعه الواسع على الآداب الانجليزية . وتعــددت جوانبه الفنية ، وبرع فى كل هــذه الجوانب ، فجاء شعره ــ كما يقول البدوى الملثم[5] يشبه مثلثا متساوى الساقين : تمثل الساق الأولى شعره الوطنى ، وتمثل الثانية شعره الوجــدانى ، اما قاعــدة ذلك المثلث فتمثل ما لابراهيم من دعابات مستحبة ونقــدات لاذعــة ارسلها فى مجالات النكته والمباسطة والهجو ، وهو غير قليل » .

* * *

واستجاب الشعر الفلسطينى فى الربع الثانى من القرن العشرين للتيارات والمذاهب الأدبية التى هبت على المنطقــة العربية ومنها الرومانسية أو الابتداعية التى ظهرت بذورها عند ابراهيم طوقان فى شعره الوجــدانى فى الغزل ، وفى تصوير عاطفة حبه . وظهر تأثير هــذا الاتجاه بصورة أقوى فى شعر عبد الكريم الكرمى « أبو سلمى » الذى كان حتى سنة ١٩٤٨ شاعر الحب والجمال ، يصوغ قصائده فى نحت تماثيل من الجمال لغيده وحسانه ، ويصور سعادته باللقاء ولوعته بالهجر[6] .

ولكن ابا سلمى يتفوق على غيره ــ وخصوصا فى نطاق الشعر الوطنى ــ بخصيصتين :

(٥) ابراهيم طوقان فى وطنياته ووجدانياته ١٤ .

(٦) السوافيرى : الاتجاهات الفنية فى الشعر الفلسطينى المعاصر ٢٢٠ .

الأولى : أنه لم يقف — وخصوصا بعـد النكبة — بقصيدة الغزل عند صورتها الوجـدانية التقليدية : من تصوير عاطفة الحب ، والوفاء للمحبوب ومناجاته .. الى آخر ما يتردد فى قصائد الغزل التقليدى ، ولكنه اتخـذ من القصيدة الغزلية منطلقا للسياحة الروحية فى ارجاء الوطـن والتغنى بمعاهـده ومغانيه ومدارج صباه وشبابه على أرضه وتحت سمائه . ونلمس « هـذا التفاعل المتداخل المتجاوب فى نفس الشاعر ووجدانه بين حبه لفتاته وحبه لوطنه : فكل ما يذكره به يذكره بها ، وكل جمال فيها جمال فيه ، وأيام هـواه انما مغناها فى وطنه ومرتع صباه ، ومغانى لهوه انما هى بلاده السليبة . وليالى الوصال انما كانت فى أحضان سفوح وطنه ومروجه وعلى ربواته وبين جناته »(٧) . بذلك تحولت قصيدة الغزل عنده الى ما يمكن أن نسميه « بالغزل الوطنى »(٨) ، وهو اتجاه توسع فيه شعراء المقاومة بعـد ذلك وخصوصا الثلاثى : محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد .

أما الخصيصة الثانية فهى أنه كان من اسبق الشعراء الفلسطينيين — ان لم يكن أسبقهم — فى الربط بين الكفاح الفلسطينى وحركات الكفاح الأخرى فى العالم ضـد الاستعمار(٩) . ومن أروع قصائده التى تسبح فى هـذا الفلك قصيدته « فقير ايبى »(١٠) وفيها يقول :

فقـير ايبى حطم القيـودا — على المـدى ووحـد الجهـودا
وارفع على جبالك البنـودا — حمرا ترد المـوت والجنـودا
لابـد للثـورة أن تسودا — نحن وأنتم نطلب الخلودا
الانجليز أنكروا العهـودا — وحالفـوا من بعـدنا اليهودا
لأننا على طريق الهند(١١)

---

(٧) د. ناصر الدين الأسد : محاضرات فى الشعر الحديث فى فلسطين والاردن ٢٢٢ .
(٨) انظر ديوان « اغنيات بلادى » فى « اعماله الكاملة » ١٧٥ وما بعـدها .
(٨) انظر قصيدته « الى فرنسا سيباستوبول » ٥٠ - وقصيدته « مرحبـا بالرفاق » ٥٤ من ديوانه (الأعمال الكاملة) .
(١٠) وهو ثائر هندى اعلن الثورة المسلحة ضـد الحكومة البريطانية فى الهند .
(١١) ابو سلمى : الديوان ٣٦ .

وذلك يدل على أن الشعر الفلسطينى فى هذه الفترة لم يكن منغلقا عن الأحداث والتيارات السياسية والاجتماعية التى شغلت العالم آنذاك . كما أن التيارات والمذاهب الأدبية التى سادت العالم والعالم العربى آنذاك كان لها بصماتها على هذا الشعر ، ومنها المذهب الرومانسى الذى كان يهيمن على شعراء الديوان . وشعراء ابولو آنذاك فى مصر . كما كان له عند شعراء المهجر المكانة الأولى ، وقد قدم خليل مطران من الشعر الرومانسى نماذج عليا فى العشرينات والثلاثينات والأربعينات حتى ليستحق أن نطلق عليه « ابا الرومانسية فى العصر الحديث » .

وقد انعكست هذه الأصداء الرومانسية على الشعر الفلسطينى فى الربع الثانى من القرن العشرين بصفة خاصة كما ذكرنا ، ولكن علينا أن نلاحظ — كما ألمعنا من قبل — أن الطابع الرومانسى لم يكن طابعا حادا مسرفا يتنكر للاتجاه الكلاسيكى ليزيحه عن مكانه ، بل بقيت ملامح متعددة لهذا الاتجاه منها الحرص على القوالب اللفظية الأصيلة ، والوضوح الفكرى ، والقصد فى التجديد الموسيقى الذى لم يتعد فى اغلبه نظام المقطوعة ، او بتعبير آخر كان هناك « توفيق عادل » بين الكلاسيكية فى هذه الملامح وبين الرومانسية وخصوصا فى خيالها ، وتأكيدها على الذات فى توازن معقول ، وذلك واضح عند ابراهيم طوقان وأبى سلمى وعبد الرحيم محمود على فروق بينهم فى الابتعاد أو الاقتراب من احدى الوجهتين « فكان شعرهم مستجيبا لتفاصيل الحياة ، وكان موقفهم من هذه الحياة موقفا نقديا ، دون تقريرية باردة ، أو حماس طاغ ، أو خيال يشتط عن الواقع ، اذ كان لهم من وضوح الهدف ما جعل شعرهم ذا موقف نقدى فحققوا توازنا بين الذات والموضوع بحيث يدل أحدهما على الآخر »[١٢] ، وبحيث لم تنفرد احدى الوجهتين بالمكان دون الأخرى .

* * *

---

(١٢) خالد مصطفى : الشعر الفلسطينى الحديث ٥١ .

وشاعرنا عبد الرحيم محمود أحـد الفرسان الثلاثة المشاهير الذين شغلوا هـذه الفترة ، والفارسان الآخران — كما ذكرنا مرارا — همـا ابراهيم طوقان وأبو سلمى (عبد الكريم الكرمى) . وقـد اقتطف الموت ابراهيم وعبد الرحيم وهما فى العقد الرابع من عمرهما . أما أبو سلمى فقـد عمر طويلا وشهد النكبة وآثارها ، وعاش النكبات التى أنزلتها اسرائيل والصهيونية — لا بفلسطين فحسب — ولكن بالأمة العربية جمعاء الى أن فارق الدنيا من بضع سنين وقـد جاوز السبعين من عمره .

* * *

وبعـد هـذه الوقفة القصيرة التى ألقينا فى اثنائها بعض الضوء على الساحة الأدبية الفلسطينية لنتبين طابع المرحلة التى عاش فيها عبد الرحيم محمود ، آن لنا أن نلقى الضـوء على شعره لنعيش معه — قبل الخلوص الى ملامحه الفنية — فى آفاقه الشعرية التى حلق فيها بادئين بالأفق الوطنى الفلسطينى والأفق القومى العربى .

والشعر الوطنى يمثل القــدر الأكبر من شعر الشاعر ، ويكاد يكون هــو سر شهرته وخصوصا قصائد معينة منه مثل قصيدة « الشهيد » التى تعتبر أشهر قصائده على الاطلاق ، بل تعتبر من أشهر قصائد الشــعر الفلسطينّى كله .

وبعض هــذا الشعر يرتبط بمناسبات تاريخية معينة مثل قصيدته « نجم السعود »[13] التى القاها بين يدى الأمير سعود بن عبد العزيز فى ١٤ من أغسطس سنة ١٩٣٥ أثناء زيارة الأمير لفلسطين . ومثل قصيدته « وعد بلفور »[14] وقصيدة « موت بطــل » التى نظمها الشاعر فى رثاء المجاهــد عبد الرحيم الحاج محمد[15] ، وقصيدة « ذكرى الجامعة العربية »[16] وقــد نظمها بمناسبة ذكرى انشاء الجامعة العربية فى نوفمبر سنة ١٩٤٦ .

وقــد لا ترتبط بعض القصائد بمناسبة تاريخية أو سياسية محــددة ، ولكنها تعكس الواقع التاريخى والسياسى الذى يعيشه الشعب بأبعــاده المختلفة منها قصيدة « الشهيد »[17] وقصيدة « شعب فلسطين »[18] فهى قصائد لا ترتبط بمناسبات محــددة التاريخ وان ارتبطت بالجــو السياسى العام والظروف التى يمر بها الوطن .

ولا عجب أن يكون الشعر الوطنى هــو الغرض الأول للشاعر ، فقــد نشأ نشأة جادة فى بيت دين وعلم ، والتزم بالكفاح العملى والنضال المسلح من فجر شبابه ، وكان شعوره بقضية وطنه شعورا عميقا عبر عنه بصدق وايمــان فى شعره .

(١٣) الديوان ١٢٥ .

(١٤) الديوان ١٢٦ .

(١٥) الديوان ١٣٤ .

(١٦) الديوان ١٤١ .

(١٧) الديوان ١٣١ .

(١٨) الديوان ١٢٨ .

كما أن طبيعة الأحـــداث وتتابعها وبشاعة الجرائم التى ارتكبهــــا الصهاينة والمستعمرون كان لهـــا اثر كبير فى هز مشاعر عبد الرحيم وغيره من الشعراء . **وأهم المضامين التى تناولها الشاعر فى قصائده الوطنية :**

١ ــ اجترار بعض مفاخر المـــاضى العربى والتذكير بأمجاده :

والشاعر يتخـــذ من هـــذا الاجترار وذلك التذكير نقطة انطلاق الى الحاضر الذى يجب أن يكون امتدادا لهـــذا المـــاضى المجيد ، بل يجب أن يرتكز عليه هـــذا الحاضر ، وأن يتخـــذ منه أساسه أنقوى الركين . ومسوغ هـــذا يكمن فى عنصرين اساسيين :

الأول : انسانية الرسالة ونبل الهـــدف : فالأمة العربية لم تستعمل القوة لاهـــدار الدماء واذلال الشعوب بل « لاحقاق ضائع مهـــدور » ومشاعلها لم تكن للحرق « ولكن للهـــدى والتنوير »[١٩] .

والثانى : عظمة الحضارة العربية والانتصارات والأمجاد التى احرزها العرب قـــديما ، فتاريخهم هـــو تاريخ الشموخ والحرية الاباء ، فالتاريخ يؤكد أن :

العرب ما خضعوا لسلطة قيصر ... يوما ولا هانـــوا أمام تجبر

لا يصبرون على أذى مهمـــا يكن ... والحر ان يسم الأذى لم يصبر[٢٠]

ومن هنا كان اعتزاز الشاعر « بالقـــديم » لأنه يمثل أمجادا عظيمة ضربت بأطنابها ، وثبتت قواعـــدها على مدار التاريخ بالعـــــلم والعمـــل والتضحية ، واصبح هـــذا القـــديم بما فيه من ثراء وقـــدرة يمثل طاقات ضخمة لو استعادتها الأمة ، وتدرعت بهـــا لحققت الكثير والكثير . يقـــول الشمـــــاعر :

---

(١٩) انظر قصيدة « انشودة التحرير » الديوان ١٤٥ . وقصيدة « شعب فلسطين » ١٢٨ .

(٢٠) الديوان ١٣٦ .

أمتى ان تجرؤ عليك الزعاما ... ت فلا تيأسى ذريها وسيرى

القديم الجميل ريش جناحيـ ... ـك فرفى فى العالمين وطيرى[21]

فلا عجب اذن أن يعيش الشاعر على ذكريات هـذا المجـد الأثيل فى زهو واعتزاز ، ولكن سرعان ما تهزه الحسرات الأليمة للحاضر المر الـذى تعيشه فلسطين والأمة العربية :

هات من ذكرى زمان العز هات ... حبب المـاضى لى ما هـو آت

يا زمانا كلمـا ذكـرته ... ذهبت نفسى عليـه حسرات

حينما كنـا غصة غص بنـا ... صـدر أعـدانا وشوكا فى اللهاة

تـلك أيـام تقضـت ... هـل لهـا من رجعـات

ليتهـا لمـا تقضـت ... قـد قضت فيهـا حياتى[22]

وحينما تتوالى النكبات ، وتشتد الظلمـات ، وتظهر فى الآفاق بوادر النكبة الساحقة يفزع الشاعر الى الأيام الخالدة فى سـجل الأمة العربيـة يناجيها ، ويتغنى بانتصاراتها لتكون باعثا للجهاد والصبر والاصرار من أجل اعادة هـذا المجـد الخالد ، فله قصيدة طويلة بعنـوان (انشودة التحرير) القاها فى المهرجان الشعبى الذى أقيم فى حيفا احياء لذكرى معركة القادسية سنة ١٩٤٦ أبرز فيها بوعى ناضج ورؤية شفيفة الدروس والأسرار التى تعكسها هـذه المعركة الخالدة :

لم تكن قادسية المجـد الا ... صفحات من سفر عز شـهير

هى لغز الألغاز كيف يكـو ... ن القل نصرا على العديد الوفير

---

(٢١) الديوان ١٤٦ .
(٢٢) الديوان ١٣٧ .

غير أن الايمان بالحـــق والرو ح جـــدير بالنصر جد جـــدير

واجتماع القلوب أضمن للأمـــ ـــر المرجى من الشتيت النثير

عبرة ليت انا قـــد قبسنا النو ر منها فى مدلهم الأمــــــور[٢٣]

ويتوهج وجـــدان الشاعر ، ويتدفـــق قلبه بالنقمة والأسى وهـــو يرى مسرى النبى عليه السلام نهبا للمغتصب الغاشم ، فيفزع الى منقذ فلسطين ومطهرها من دنس الصليبيين : صلاح الدين الأيوبى :

قم يا صلاح فقد حم القضاء بنـــا قم يا صلاح فلن نبقى على الهون

قم يا صلاح فذا مسرى النبى غدا مأوى الذئاب وملجى كل مأفـــون

الخصم جمـــع أمـــوالا واعتدة وجند الغيد فى ســـاح الميـــادين

ونحن قحطان اسد الغاب قد جفلت قلوبنا ونزلنا حمـــاة الطـــين[٢٤]

* * *

ولم يقف الشاعر بشعره عند فلسطين التى عاش لها ، ومات فى سبيلها ، ولكنه استشرف الأفاق القومية العربية عملا وقولا . وقـــد عرفنا أنه اشترك هـــو واخوانه الفلسطينيون فى ثورة رشيد عالى الكيلانى دفاعا عن الأرض العراقية والشرف العربى .

وله قصيدة من ثمانية وعشرين بيتا فى ذكرى الجامعة العربية ألقاها فى مهرجـــان فلســـطين الشـــعرى فى ١٤ من نوفمبر ١٩٤٦ ، وقـــد رأى فى الجامعة العربية حلمـــا تحقق ، وبه انضوت الأمة العربية تحت أـــواء الآلام الغامرة والمعاناة المشتركة . فعليها وعلى القائمين على أمرها أن يمحـــوا

---

(٢٣) الديوان ١٤٥ .

(٢٤) وليد جرار : شاعران من جبل النار ٢٦٣ .

هـــذه الفواصل والحـــدود الصناعية المتوهمة التى فتت بهـــا الاستعمار وحـــدة هـــذه الأمة . يقول الشاعر :

عيد باحناء الصـــدور يقـــام	**من وحيه الأشعار والالهـــام**
حلم لقـــد لابت عليه نفوسنا	**أجمـــل بأن تتحقق الأحـــلام**
جمـــع الشتيت فكل قطر درة	**فى تاجـــه والوحـــدة النظـــام**
فاذا تشكى النيل من آلامـــه	**شقت مرائر دجـــلة الآلام**
واذا تنادى المغرب الأقصى لدى	**جلى استجابت للنـــداء الشام**
ذهبت خرافات الحـــدود فكلها	**وطن لنا لو صحت الأفهام[٢٥]**

ويرى أن من أهم مظاهر العيد الحقيقى مظهرين : الأول انسانى عام هـــو أن يتعايش البشر فى سلام وأمان ، وتعب الأرض « راح التعـــاطف والحنان » . والمظهر الثانى وطنى قومى : وهـــو توحـــد العرب على المحبة والتعاون والوئام :

والبرق يســـفر بالهـــوى	**بين « الزهور » و « زعفران »**
ويحمـــلان الى الريـــا	**ض أحـــر آيات التهـــانى**
ويهنىء الأقصى العظيـــ	**م اخـــا لـــه فى القيروان**
ويصافح النجـــف الشريـــ	**ـــف وكـــربلاء المســـجدان**
وتقبل الشـــام المحبـــ	**ـــة خـــد صـــنعاء اليمـــان**
وتبـــوح بالحـــب الدفيـــ	**ـــن القـــدس بل والقريتـــان**
العيـــد قطـــاع النـــوى	**جمـــاع أســـباب التـــدانى[٢٦]**

(٢٥) الديوان ١٤٤ .
(٢٦) ولبد جرار : الســـابق ٢٩٠ .

ونعــود فنقول ان الشاعر لم يجمد نفسه فى حــدود وطنه الجريح فلسطين ، بل امتد ببصره ، واخترق برؤيته الشعرية النافــذة هــذه الحدود الى الأوطان العربية الأخرى ، وخصوصا مصر وسوريا والعراق ، فهو يقف مع مصر وقفتين : الوقفة الأولى مع النيل العظيم الذى ينشر الخصب والفــن والسحر والجمال أنى مضى فى مسيره المبارك ، وهى أبيات من اجمل ما قيل فى النهر الخالــد :

والنيل شــيخ ذوى الفنــــو ن وكل فنــــان ربيبــــــه
مرت على القفر الجــــــدي ــب يمينــه فــزها فشــيبه
من فنــــــه كمـل الجمـــا ل ورام عن نقص يشــــوبه
سلمت يداه : شــــماله المو ســوم يكمـــله جنــــوبه
فى فنـــــه بعث الحيــــــا ة بضفتيه فمـــن ضريبه[27]

والشاعر يتخــذ من هــذه اللوحة الفتانة النابضة بالحياة منطلقا لحث ابناء النيل على اليقظة والوثوب والجهاد ، فمثل هــذا النهر الخالد الحى الناشط لا يرضى لشعبه أن ينام ويستكين :

والنــوم صنو الموت يؤنيـــ ــه فشب بالعزمات شيبه
شــعب عيــون النيـــل تر مقــه وتعشــقه قلــوبه
بعــث الفنــــــاء بشاطئيــ ــه فشب بالعــزمات شــيبه
ورمى بأرواح الشـــــبا ب الكبر منه ففــاح طيبــه
من وحيــــه بعث الجهـــــا د فايقظ الدنيــا لهيبــه[28]

(٢٧) الســـابق ٢٨٦ ٠

(٢٨) السابق نفس الصفحة ٠

أما الوقفة الثانية فكانت فى الاربعينات بقصيدة بعنوان « موشح عرس » بمناسبة زواج الملك فاروق بالملكة فريدة ، وفيها يتطلع الى « مصر العلا » ، ويعبر عن ألمه وأسفه لاغفال مصر ما ينزل بفلسطين من نكبات وكوارث ، وهى أم العروبة ، وقلبها النابض ، ومن ثم كان عليها ان تضطلع برسالتها المقدسة فى مناصرة المظلوم ، واستعادة المنهوب ، ومواساة المستضعف الكسير . يقول الشاعر :

ان فى القدس لقلبا مخلصا	**لك يا مصر العلا لو تعلمين**
كم به من هجر مصر غصصا	**فمتى قلبك يا مصر يلين**
نادت القدس تروى قصصا	**ستحنين اليها بعد حين**

****

زكى الوادى بعطر ازهرا	**أين من رياه ريا النرجس**
مصر واسى قلبنا المنكسرا	**واقيلى كبوة فى الأنفس**
فهو ان أزهرت يوما اثمرا	**واذا تاسين يا مصر اسى[٢٩]**

****

ويمتد الشاعر ببصره الى العراق فيرثى الملك غازى[٣٠] الذى عقد عليه وطنه أملا كبيرا فى تحرير أمته والنهوض بها ، فقد كان العرب والعراقيون يؤمنون أنه :

---

(٢٩) السابق : نفس الصفحة .

(٣٠) هو غازى بن فيصل بن الحسين بن على الهاشمى (١٩١٢ - ١٩٣٩) ، ولد ونشأ بمكة ، وانتقل الى بغداد حين سمى وليا لعهد المملكة العراقية (سنة ١٩٢٤) ، تلقن تعليمه فى انجلترا ، ثم تخرج فى المدرسة العسكرية ببغداد . نودى به ملكا على العراق بعد وفاة أبيه سنة ١٩٣٣ الى أن توفى ببغداد قتيلا فى حادث سيارة فى ٤ من ابريل سنة ١٩٣٩ ، وقيل مقتولا بتدبير من البريطانيين ليفسحوا طريق الحكم لخاله عبد الاله لأنه كان أكثر طواعية لسياستهم (انظر لزركلى : الأعلام ٣٠٨/٥ . ولأحمد عطية الله : القاموس السياسى ١٠٣٢) .

كان نجما يهتدى الســـارى به	**فى دياجير الليالى الكالحـــات**
كم قلوب رقصت خفاقـــــة	**حينما لاح بديع القســـــمات**
ادخــل النــور على افئــدة	**كن من نور الأمـــانى مقفرات**

كـــان نجمـــــا ثم غــــاب
وتـــــوارى فى التراب(٣١)

ويتحـــدث الشاعر عن شبابه الغض الذى انعقدت عليه آمال العراق والعرب ، وكيف غـــدر الدهر فقصف هـــذا الغصين الرطيب ، فمضى طما قصيرا قضى وخلف فى النفوس الآلام والأحزان والحسرات .

❋ ❋ ❋

ويتعاطف الشاعر فى صـــدق مع سوريا فى نكبتها بالطوفان الذى اكتسح كثيرا من القرى ، واجتاحت ســـيوله دمشق نفسها ، وهـــلك بسببه كثير من الرجال والنساء والأطفال ، وبقلب مفجـــوع يفصل الشاعر مظـــاهر النكبة فى عشرات من الأبيات منها قوله :

بنفسى عقــــــدا نظيما يفض	**وشملا تبـــــــدد يلقى الردى**
فمن صـــائح : يا أبى يا أبى	**ومن صـــارخ واأخـــا واأخـــا**
ومن لائــذ بذيول الفـــــرا	**ر ولات فرار يزيل القضـــــا**
تمنى الذى قــد أصـــاب النجا	**ة بعيـــــد التبصر أن لانجـــا**
فبعـــد الديـــار وناى الأحبـ	**ـة يصمى الحياة ويودى الهدى**

(٣١) الديوان ١٣٦ .

مشاهـــد لانت لهـــا العاتيا ... ت فاذرفت الدمع صم الصفا

دمشـــق الجريح وأنت الفـــؤا ... د جرحت وللقـــدس فيك الضنا

دمشق الحبيبة لبيـــــك لا ... يرعك الزمان فانا الفـــدى(٣٢)

* * *

وعدنما تثور دمشق على الفرنسيين سنة ١٩٤٤ يمجـــد الشاعر كفاح الشعب السورى الشقيق ، فقد أبو الرق ، وحطموا القيود ، واستلهموا ماضيهم المجيد فى كفاحهم الصادق من أجل الحرية والاستقلال ، فهم أبطال :

أباة لا يقـــر لهم قـــرار ... على خسف كمفترش قتـــادا

وخطوا فى الخلود لهم كتـــابا ... دم الأحرار كان لهم مـــدادا

اذا بخســـوا يزيدون اعتزازا ... وان ظلموا يثـــورون اعتـــدادا

وتخلق منهم الجلى أســـودا ... وتشـــحذهم الهمم الشدادا(٣٣)

ويستوحـــون تاريخـــا مجيـــدا ... به تاهوا على الدنيا ارتيادا(٣٤)

ويندد الشاعر بسياسة فرنسا وديجول مزريا بهـــذه الألوف المؤلفـــة من الجنود السنغاليين الذين رمت بهم فرنسا سوريا معلنا ان هـــذه الألوف لن تغنى فى حرب ضروس « بكثرتهم ولو كانوا جرادا » ، فالنصر فى النهاية للشعب ... للشعب المجيد المكافح .

* * *

---

(٣٢) جرار : السابق ٢٨٢ .

(٣٣) كذا فى المرجع وهـــو خطأ فى النحو وكسر فى الوزن ، وربما كان الصحيح ويشحذهم هممـــا شـــدادا .

(٣٤) جرار السابق ٢٨٣ .

ولنا ملاحظات على الشعر القومى الذى نظمه الشاعر . وهى تكاد تتلخص فيما يأتى :

— أنه يعــد قليلا اذا قيس بالشعر الذى نظمه الشاعر فى قضية فلسطين بجوانبها المختلفة ، وهــذا أمر لا غرابة فيه ، فقد كانت فلسطين هى الشغل الشاغل لشاعرنا . . . ولا عجب فهى قضية الأمة العربية جمعاء ، بل هى « قضية العصر » كما ذكرنا فى الفصل الأول .

— أن الشاعر كان يربط غالبا — بين فلسطين — على نحو من الأنحاء — وبين موضوعات شعره القومى العربى . فهو من القــدس — مسرى النبى عليه السلام — يلوم مصر من واقع « فلسطينيته » لأنه يرى أنها لم تعط فلسطين الاهتمام المنشود .

وهــو يعز عليه — فى سياق حــديثه عن بطولة الشعب السورى — أن يكتفى بالمشاركة الوجــدانية بالكلمات « ولا يزجى المثقفة الصــعادا » ويقـــول :

ففى قلبى من الأحقـــاد نار على باريس تتقــد اتقـــادا

فلا يروى غليلى غــير غمر دم رقراق يجتاح الوهادا(٣٥)

❋ ❋ ❋

وفى قصيدته عن « طوفان دمشق » يربط بين دمشق والقــدس ، ويقدم نفسه وقومه فــداء لدمشق الغريقة ، فينادى :

دمشق الحبيبة : ليتــك لا يرعك الزمان ، فانا الفدى(٣٦)

---

(٣٥) جرار : السابق ٢٨٤ .

(٣٦) جرار : السابق ٢٨٢ .

ويؤكد الرابطة النفسية الوثيقــة بين : الأقصى والقيروان والرياض والنجف وكربلاء والشام وصنعاء ... الخ .

— أن شعره القومى العربى يمثل تطورا جـديدا فى اتجاهه الفنى اذ جاء أغلبه فى الأربعينيات بعــد أن زار سوريا والعراق وهــذا وضع طبيعى يمكن تبريره بعــدد من الأسباب من اهمها :

(أ) خروج القضية الفلسطينية من النطاق الخاص الى النطاق العام ، او تعبير أدق : تحولها من قضية وطنية الى قضية قومية تهم الأمة العربية ، بل الى قضية عالمية انسانية هزت وما زالت تهز الضمير العــالمى .

(ب) اشتراك الشاعر فى ثورة رشيد عالى الكيلانى مما جعل الشاعر يزداد ايمانا بضرورة جمع الشمل العربى والوحــدة العربية بعد أن رأى ما رأى من قوة الأعــداء وتعــدد جبهاته فى مواجهــة العالم العربى ، وبعــد ان رأى كيف استخدم الانجليز قـــوة عربية أردنية لضرب حركة الكيلانى وانتفاضة الشعب العراقى .

(جـ) زيادة وعيه ، وتفتح بصيرته ، ومما لا شك فيه أن الفترة التى قضاها بالعراق مكنته من توسيع مداركه بالقراءة والاندماج فى الأوساط الأدبية والسياسية ، وقــد عرفنا انه كان له مطارحات ومناظرات ومساجلات شعرية مع عــدد من شعراء العراق مثل معروف الرصافى والمهدى الجواهرى وجميل صــدقى الزهاوى وغــيرهم .

— وآخر هــذه الملاحظات أن شعره القومى فى مستواه العام لا يرقى الى مستوى شعره الوطنى الفلسطينى عاطفة وتصويرا وتعبيرا وذلك لا غرابة فيه من شاعر مقاتل عانى ما عانى فى سبيل القضية الفلسطينية الى أن لاقى ربه شهيدا فى موقعة الشجرة ، فالداعية الوطنية عنده كانت أقوى بكثير من الداعية القومية ، وخصوصا أن الرأى العام العربى لم يكن له من قوة الارادة وثبوت الوجود ما يقرر به مصيره ، فالحكومات التى كانت قائمة آنذاك اما حكومات صنعها الاستعمار صنعا ، واما حكومات

يساندها الاستعمار ، ويقف بجانبها ضـد أى تطلع من الشعب للتغيير ، وكلها تشترك فى التمتع بالحماية الاستعمارية على نحو من الأنحاء ٠

٢ ــ التنبؤ بالنكبة وتصوير مقـدماتها :

لقـد كان صـوت عبد الرحيم من الأصوات الباكرة التى دقت ناقوس الخطر ، وتنبأت فى أسى بسقوط القـدس والمسجد الأقصى ، فهو يخاطب الأمير سعود بن عبد العزيز قائلا :

المسجد الأقصى أجئت تزوره ۝ أم جئت من قبل الضياع تودعـه

حرم تباح لكل أوكـع آبـق ۝ ولكل أفاق شريد أربعـه[٣٧]

ثم بعـد ذلك لا يبقى سوى « دمع لنا يهمى وسن نقرعه » ٠ ولات حين منـدم ٠

٣ ــ حث الشعب على الجهاد والكفاح المسلح :

كان الشاعر يؤمن ايمانا راسخا بأن الكفاح المسلح هـو السبيل الوحيد للخلاص ، وأن القعـود عن الجهـاد جريمة ترتكب فى حـق الدين والوطن ٠ لذلك كان دائما يدعو الشعب الى النضال ورفع السلاح :

فسيروا للنضال الحـق نارا ۝ تصب على العدى فى كل واد

فليس أحط من شعب قعيد ۝ عن الجلى ٠ وموطنه ينادى[٣٨]

ودعوته هـذه ليست كلمات يلقيها على عواهنها وهـو بعيد ينعم بالحياة الرخية ، ويكتفى بالقـاء شعره الحماسى يلهب به المشاعر ، ويحمس القلوب ، لا ... بل هـو الفارس القـدوة السباق الى حومة الوغى ،

---

(٣٧) الديوان ١٢٥ ٠

(٣٨) الديوان ١٤٧ ٠

وكلماته ما هى الا انعكاس لمشاعر نفس عظيمة تسعد بالجهاد ، وتلهج به ، وتتعشق الفـــداء :

دعا الوطن الذبيح الى الجهاد — فخف لفرط فرحته فـــؤادى

وســـابقت النسيم ولا افتخار — أليس على أن أفــدى بلادى[39]

أما المتقاعس عن هـــذا النضال فقد قطع فى أمره الشاعر بهـــذا الحكم المكثف الجـــازم :

ان تقاعست عن الحرب فانى — مجرم يقعد عن شاو المعالى[40]

فالقعود والتخلى فى هـــذه الحال لا يعـــد تخليا عن معركة وســـاحة قتال فحسب ، بل هـــو تهرب من تحصيل الأمجاد وتحقيق العظمة للفرد والأمة .

٤ — تمجيد البطـــولة والأبطـــال :

والبطـــولة فى نظر الشاعر مرادفة للشرف ، وهو اطلاق يطرد بكثرة فى قصائد الشاعر :

ونفس الشريف لهـــا غايتان — ورود المنـــايا ونيـــل المنى[41]

لعمرك هـــذا ممـــات الرجال — ومن رام موتا شريفا فذا[42]

مت فى الحرب شريفا لم تطق — ربقة الأسر ولاذل العبيد[43]

---

(٣٩) السابق نفس الصفحة .

(٤٠) الديوان ١٣٢ .

(٤١) الديوان ١٣١ .

(٤٢) السابق نفس الصفحة .

(٤٣) الديوان ١٣٥ .

ولا بطولة — أى لا شرف للانسان — اذا لم يعيش « مخوف الجناب حرام الحمى » يعيش لأهـــدافه العليا ، فاما ان يحققها ، واما ان يمـــوت دونها ، فان حققها فهى الحيـــاة التى تسر الصـــديق ، وان سقط دونهـــا فهو الموت الذى يغيظ العدى ... هكذا بلا وسطية ، ولا مقام بين ... المقامين . أما الدنيا بما حوت . واما متاع الحياة بدعته ورخائه فلا مكان له فى قلب مثل هـــذا البطل الشهيد ، بل انه ينظر اليه من عل بعين الاستعلاء والشموخ ، وعلى فمه ابتسامة الهزء والاستهانة[٤٤] .

وانطلاقا من هـــذا المفهوم الشامخ للبطولة يقف الشاعر لاهجا بعظمة بطل من الأبطال المغاوير وهو المجاهد عبد الرحيم الحاج محمد الذى آثر سبيل الأبطال الشرفاء .. طريق النضال الدامى الى ان لقى الله شهيدا . يقـــول الشاعر فى مرثيته :

أيها القـــائد هـــذى ميتـــة	**طالمـــا رجيتهـــا منـــذ بعيـــد**
مصرع الأبطال ما بين الحديد	**فى الميادين ورفات البنـــــود**
هـــذه أعراســـهم صـــخابة	**نقرة الدف بها قصف الرعـــود**
فيروون الثرى مـــن دمهـــم	**ويحنـــون به كـــف الصـــعيد**
ويزفـــون عليهم حـــــلل	**من نجيع الحرب تزرى بالبرود**
هم تعـــاويذ الحمى يقضى بهم	**عنه مكر السوء أوكيد الحسود**
تحرق العـــاتى أنفـــاسهمو	**ويذيبون بهـــا غل القيـــود**
وعلى أكتـــافهم تجنى المنى	**ويشاد الصرح للعيش الحميد[٤٥]**

وكم لهج الشاعر ببطولة شعبه المناضل الذى تصـــدى للاستعمار الانجليزى والمؤامرات الصهيونية ، ولم تنل منه الصعاب لأنه تمرس بهـــا وفيهـــا :

متمـــرد لم يرض يـــــوما	**أن يقـــر على عـــــذاب[٤٦]**

---

(٤٤) انظر قصيدة « الشهيد » فى الديوان ١٣١ .

(٤٥) الديوان ١٣٥ .

(٤٦) انظر قصيدة « شعب فلسطين » ص ١٢٨ من الديوان .

٥ — الحنين الى الوطن :

عاش الشاعر سنى حياته مناضلا بالكلمة والبندقية ، وعاش امدا من عمره يطارده المستعمر الانجليزى ، واستطاع أن يتسلل الى العراق ، ويقضى هنـــاك قرابة ثلاث سنوات شغلها بالعمل فى حقل التعليم واستكمال ثقافتـــه العسكرية والاشتراك فى ثورة رشيد عالى الكيلانى ضـــد الانجليز ، وكان من المتوقع أن تكون هـــذه السنوات التى فارق فيها الشاعر وطنه الحبيب هى أعمر سنى عمره بشعر الحنين الى الوطن ، ولكننا لا نظفر من هـــذا اللون الشعرى الا بقصيدة واحـــدة تحمل عنوان « حنين الى الوطن » ، وهى قصيدة تقليدية تردد معانى مطروقة بعضها مستهلك الى حـــد بعيد ، فهو يرى وطنه فى مظاهر الطبيعة : فى ضياء الشمس ... فى نور القمر ... فى النسيم العـــذب ... فى خرير الجـــداول ... فى صخب النهر ... فى هتون الدمع ... فى لهيب الشوق ... فى دقة الناقوس ... الخ[٤٧] . وهى معان استغرقها شعراء المهجر على نحو اوفى واعمق وأكثر شمولا واصفى ديباجة وأرشق لفظا .

ونلحق بهـــذا اللون من الشعر قصيدة أبلغ واعمق واعمر من السابقة بالقيم النفسية والملامح الانسانية ، وهى قصيدة « حجر فى كثبان رمل »[٤٨] فهى واحـــدة من أرقى ما نظم الشاعر فكرا وعاطفة وأداء .. وقـــد رأى حجرا وحيدا فى صحراء قاحلة وهـــو فى غربته مطاردا من المستعمر فأسقط عليه شعوره الحـــاد بالوحـــدة والغربة ، ومخاطبـــا الحجر بلســـان الألم والفجيعـــة :

أنت الوحيـــد هنـــا ومـــا ... لى لا اقـــول أنا الوحيـــد
هيمـــان لا ادرى الفـــدا ... ة طريق منجـــــاتى طريـــد

٦ — مسئولية الاهـــدار والضياع :

عايش عبد الرحيم محمود مقـــدمات النكبة وارهاصاتها ... ورأى

---

(٤٧) أنظر القصيدة فى الديوان ٤٠ .
(٤٨) الديوان ١٦٦ .

بعينيه ومشاعره كثيرا من ابعاد القضية : آلامها وآمالها . . . صورها المشرقة الزاهية ، وصورها الكئيبة القاتمة . . . رأى الأرض تسحب شيئا فشيئا من تحت اقدام اصحابها لتغرس فيها الصهيونية عمائر وأشجارا ومصانع ودعارة وفسادا ، ورأى المستعمر يشنق المناضلين ، ويسجن الأحرار ، ويطارد المجاهدين ، ورأى بعضا من أبناء الوطن كيف يشدهم المال ويأسرهم بريق الذهب ، فيتخلون عن أرضهم وولائهم للتراب الذى درجوا عليه ، فاستجابوا لسماسرة الأرض وباعة المبادىء ، ورأى الحكومات العربية كيف تقاعست عن أداء دورها القومى فأضاعت بالتفريط والتهاون الكثير والكثير . راى الشاعر كل ذلك فجاء شعره « قرارات ادانة » تصم كل اولئك الذين يمثلون اطرافا لكل منهم دوره الفعال فى خلق مأساة الوطن وانضاجها ، واهدار حقوقه وكرامته وحاضره .

والمسئولية الأولى عن ضياع الحق انما تقع على عاتق صاحب الحق نفسه . . . هى مسئولية أبناء الوطن . . . أو بعض ابناء الوطن الذين فرطوا عن قصد أو اهمال فيما يجب أن يحرصوا عليه ، ويفدوه بأنفسهم ، وعاشوا على الفرقة والتطاحن والخصام ، فجاءت النكبة — كما يقول المثل العربى — « بيدى لا بيد عمرو » :

انا بأيدينا جرحنا قلبنا ... وبنا الينا جاءت الآلام

فينا عن الحب المجمع جفوة ... ولنا بصحراء الخصام هيام

والخطب فرقنا قبائل جمة ... والخطب عند عداتنا لمام(٤٩)

واذا كان الكبار والقادة والزعماء يتقاتلون ويتشاحنون من أجل المناصب والكراسى فان الشاعر يرى أن المسئولية أساسا ترجع الى شعبه « الذى لم تنكب بنكبته الشعوب » لأنه هو الذى اختار هؤلاء الزعماء لقيادته فقلد امره « من بهم لا يرجع الحق الغصيب »(٥٠) .

(٤٩) الديوان ١٤٢ .

(٥٠) أنظر قصيدة الى كل متهاود ١٢٩ .

والأمة تظلم نفسها بالاستسلام للحاكم الطاغية الذى ما كان ليطغى لو لم يجـدها ميتة الشعور منخورة الاحساس ، مهينة الكيـان ... أنهـا أمة غير جـديرة بشرف الانتساب للانسانية . لقـد صور الشاعر ذلك ببراعـة فى قـوله :

رأيت يـوما أمـة	يسـوقها سـوق الحطـم
محـكم تحسـب وقـ	ـع السـوط والعصـا نغم
يرفـل مـن شـقائها	بثـوب عـز ونعـم
عـاش على حرمانهـا	فاسـلست ولـم تهم
فقـلت : هـذى أمـة	مـن بشر أم من غنم ؟[51]

ولا تقف جناية الزعماء عند الانشغال بأنفسهم تطاحنا وتقاتلا جريا وراء الشهرة والجاه ... ان جنايتهم أفـدح من ذلك بكثير ، وقـد فصلها الشاعر فى قـوله :

وقالوا قادة خلقـوا شـعوبا	ولو عكسوا لكان الأمر أولى
فنحن الشعب ان رمنا انطلاقا	وجـدناهم لدى الأزمات غلا
أضلونا عن الجلى وتاهـوا	وما كانوا ليهدوا الناس مثلى
فكم فعـل لهم عبث ولهـو	وكم قول لهم ما صـح عقلا
تعقد أمرنا بهمـو فاضـحى	كذيل الضب يعجز أن يحـلا
وكان الشعب سيفا ذا مضاء	فثلم حـده منهم وفـلا

---

(٥١) وليد جوار : شاعران من جبل النار ٢٥٤ .

اسود فى مجال القـــول حمر	**منقرة لـــدى حـــرب وجلى(٥٢)**

وهم فى سبيل المناصب والجاه يهـــدم بعضهم بعضا ، أما ادعاؤهم الانشغال بالقضية ونكبة الشعب الفلسطينى فهو من قبيل « مصايد لظهور وليس الا » ويشبههم الشاعر « بالقرلى » وهـــو طائر شديد الحـــذر يضرب به المثـــل فى الأثرة ، فيقال : فلان كالقرلى ، ان راى شرا تعلى ، وان راى خيرا تدلى .

والزعماء يخـــدعون الشعب ، ويوهمونه بالحلول الناجعة القريبة ، فيعيش الشعب على هـــذا التعلل وذاك الايهام مخـــدور الشعور راقـــد الاحساس الى ان يفاجأ بما يحطم كيانه ، ويهـــدد أصل وجـــوده ، وقـــد صور الشاعر ذلك فى قوله :

مرت بنا الأيام بين تعـــــلل	**بغد فضاعف بالرؤى الأحلام**
ظلنا نقول غدا غدا هـــل حققت	**للائبين على غـــد أحـــلام**
ظلنا نقول غـــدا يفيق ضمير من	**فقد الضمير ويعـــد ل الظلام**
ظلنا نغرر بالوعـــود وينطـــلى	**كذب ويفعل فعـــله الايهـــام(٥٣)**

ونلاحظ ان الشاعر يلبس جناية الزعماء بجناية الشعب ، فغضبه لمظاهر التفكك والضياع والتهاون والتقاعس دفعه الى هـــذا « التعميم » وكان حـــدة الانفعال قـــد أنسته أن « تبعة الاهـــدار » تقع على « فئـــة معينة » من الشعب لا الشعب كله ، فهناك من ظل على الوفاء للأرض والوطن ورفع السلاح ، وأراق دمه فى سبيل امته ومنهم الشاعر ، وان كانت النتائج تعم الجميع كالفتنة التى لا تصيب الذين ظلموا منهم خاصة وذلك لم يمنع الشاعر من أن يلهج بكفاح شعبه الذى وصفه بأنه :

---

(٥٢) وليد جرار : السابق ٢٥٣ .

(٥٣) الديوان ١٤١ .

شـــعب تمرس فى الصـــعاب ولم تنـــل منـــه الصـــعاب

لو همـــه انتـــاب الهضـــاب لدكدكت منـــه الهضـــــاب[54]

* * *

ولا ينسى الشاعر جناية الاستعمار الانجليزى لا على فلسطين فحسب ، ولكن على الوطن العربى كله . لقـــد قامت ما يسمى بالثورة العربية الكبرى سنة ١٩١٦ ، وكانت هى العامل الأول فى القضاء على معاقل الأتراك فى الوطن العربى وانتصار الانجليز الذين نكثوا بوعودهم ، وخانوا وغـــدروا . والشاعر يشير فى احـــدى قصائده الى هـــذه المرحلة التى كانت فاصلة فى حياة الأمة العربية ، يبرز هـــذا الدور الخسيس الذى قام به الانجليز أو « الحليف » على حـــد قول الشاعر :

واتى الحليف وقـــام فى أعتابنا متجبرا انى هـــدى المتحير

واستنصر العرب الكرام وانهم غوث الطريد ونصرة المستنصر[55]

وبعـــد أن قـــدم العرب ما قـــدموه من تضحيات ، واراقوه من دماء كانت النتيجة البشعة ان :

غدر الحليف وأى وعـــد صانه يوما وأية ذمة لم يخفـــــر

لـــا قضى وطرا بفضل سيوفنا نسى اليد البيضا ولم يتذكر

واذا الدم المهراق لا بمراقـــه جدوى ولا بنجيعه المتحدر[56]

وقـــد يكون من اللافت للنظر أن يكون هناك موضوعان اساسيان لم

---

(٥٤) الديوان ١٢٨ .

(٥٥) الديوان ١٢٦ .

(٥٦) السابق نفس الصفحة .

يعطها الشاعر ما كان متوقعا من التفصيل والتعميق كما فعل ابراهيم طوقان وأبو سـلمى[٥٧] .

الأول : هو ابراز وتفصيل جناية الاستعمار الانجليزى فى مساندة اليهود وتدعيم الصهيونية حتى قامت دولتهم فى قلب الوطن العربى .

والثانى : ويكاد يكون امتدادا للأول — هـو تصوير آثار الاستعمار الانجليزى واليهودى فى فلسطين بشنق الأحرار ، وتدمير المنازل ، واضطهاد الأحرار ومطاردتهم .

أقـول قـد يبدو هـذا مستغربا من شاعر رصد نفسه للجهاد وجعل أغلب شعره لفلسطين ونكبتها ، ولكن هـذا الاستغراب سرعان ما يزال اذا ما رجعنا الى ما قلناه سابقا من أن الشاعر كان يؤمن ايمانا وثيقا بأن المسئولية الأولى والرئيسية عن النكبة — وقـد رأى بوادرها — ترجع الى بعض « ابناء فلسطين » ... منهم الزعماء ... منهم سماسرة الأرض ... ومنهم الذين اغرتهم المـادة الفانية فباعوا ارضهم لليهود . وقـد الح الشاعر على ابراز هـذه « المسئولية الذاتية او الداخلية » . فما كان للاستعمار — أيا كان شكله يهوديا كان او انجليزيا — أن يثبت أقـدامه ، ويمضى فى تنفيذ مخططاته ما لم يجـد ثغرات ينفـذ منها ، ونقاط ضعف يستغلها لتنفيذ مآربه ، وقـد تمثلت فيمن آثر نفسه على الوطن ، وفرط فى حقوق أمته من أجل مطلب خسيس . ويضرب الشاعر مثلا على ذلك « بوعـد بلفور » فما كان لمثل هذا الوعـد أن يتحقق ما لم يجـد من أفعالنا ومسلكنا المتهاون ما يساعده على التحقق :

بلفور ما بلفور ماذا وعـده   ما لم يكن افعالنا الابرام[٥٨]

والأمراض الاجتماعية الأخلاقية والسياسية من فرقة وخصام وتطاحن داخلى كل ذلك كان أساس النكبة والقاعـدة التى ارتكزت عليها الكوارث

---

(٥٧) أنظر ديوان أبى سلمى (الأعمال الكاملة) ٢٠ ، ٢٩ ، ٥٧ .

(٥٨) الديوان ١٢٦ .

التى حلت بالشعب الفلسطينى . وكان من المفروض — وقد حلت بالشعب الكوارث والخطوب — أن يوحد صفوفه لمجابهة الخطر الداهم صفا واحدا . والمعروف ان الخطر ، أو حتى مجرد الشعور به يجمع الشتات ، ويوحد الكلمة ، ولكن كانت الحال — كما يقول الشاعر — :

والخطب فرقنا قبائل جمة والخطب عند عداتنا لمام(٥٩)

ويفصل الشاعر هذه الفكرة فى قوله :

ومن العجائب فى المصا ئب فرقة والهم واحد

نقضى الحياة على خصا م بين نمام وحامد

راجت أباطيل التبجـ ـح بيننا والفضل كاسد

والخير بات ضحية ما بين هدام وناقد(٦٠)

نعم يلح الشاعر كثيرا على هذا المعنى فى كثير من قصائده : جرحنا كان بأيدينا ... على أنفسنا جنينا ... أضعنا ارضنا وعزنا بتفريطنا ، ولو أننا توحدنا ، وقوينا صفوفنا شعبا وزعماء وقادة لاستطعنا أن نحقق آمالنا ، ونهزم أعداءنا . وهى مقولة أثبتت الأيام صحتها على مدار التاريخ كله .

كان هذا هو الأفق الوطنى الفلسطينى حلق فيه الشاعر بوجدانه وايمانه ، كما انطلق فى افق اوسع دائرة وابعد مدى هو الأفق القومى العربى . فماذا عن الأفق الاسلامى وقد كان للشاعر فيه تحويمات وتهويمات ؟؟

---

(٥٩) الديوان ١٤٢ .
(٦٠) الديوان ١٥٦ .

الأفـــق الاســـلامى

عـاش الشـاعر مؤمنا بالله والوطن والقيم الانسـانية ، وقـــد نشـأ فى بيت علم ودين وتقوى ، وعـايش قائدين متدينين تقيين همـــا عز الدين القسـام وعبد الرحيم الحـاج محمد ، وسـار على دربهما الى أن لقى ربه شـهيدا .

وسـنرى — فى تقييمنا لشعره — أن للدين وللقرآن الكريم بصمات واضحة فى اسلوبه ، ولكننا نكتفى هنا بالتعرف على الموضـوعات والأفكار والقيم الدينية التى عـالجها ، ومنهجه فى ذلك[٦١] .

وبين أيدينا للشـاعر أربع قصائد طوال : اثنتان منهما فى « القرآن الكريم » ، وقصيدة فى « المولد النبوى » وأخرى فى « ذكرى الهجرة النبوية » ، وكل قصيدة من هـــذه القصائد الأربع عـامرة باعتزاز الشـاعر بالدين القيم ونبيه العظيم وكتابه الكريم ، ذلك الكتاب الذى أخرج الناس من الظلمـــات الى النور ، وطهر القلوب من الأحقاد والبغضـاء والاحن ، وأقام العلاقة بين الناس على الأخـــوة والحب والنقاء :

---

(٦١) خلا الديوان فى طبعتيه الأولى والثانية (١٩٥٨) ، (١٩٧٤) من أية قصيدة اسلامية • أما الديوان فى طبعته الثالثة (١٩٧٩) وهـو الملحق بالدراسة التى كتبها نافـــع عبد الله عن عبد الرحيم محمود ففيه من الاسلاميات : ثلاثة أبيات من قصيدة مفقودة بعنـــوان : القرآن الكريم • ص ١٤٩ • وقصيدة من ٣٨ بيتا بعنوان : ذكرى الهجرة النبوية ص ١٥٠ • وكذلك عجز مشوه لبيت من قصيدة القاها الشاعر فى نادى أنصار الفضيلة بحيفا بمناسبة عيد المولد النبوى الشريف سنة ١٩٦٥ •

ولكن وليد جرار فى كتابه : شاعران من جبل النار • كان أحفل بشعر الاسلاميات • فنشر قصيدة « القرآن الكريم » من ٤١ بيتا • ص ٢٦٧ — ٢٦٩ • أما القصيدة (المفقودة !!) التى نشر نافع منها ما قال انه عجز بيت فقـد نشرها جرار فى ٢٣ بيتا • ص ٢٦٩ — ٢٧٠ • وقـدم ص ٢٧١ — ٢٧٢ واحـدا وثلاثين بيتا من قصيدة الهجرة التى نشرها نافع فى ٣٨ بيتا • ونشر وليد جرار (ص ٢٧٢ — ٢٧٤) قصيدة من ٤١ بيتا عن : القرآن الكريم • ولم يسبق نشرها فى الطبعات الثلاث السابقة •

والقى السلام على العالميـــ	**ن فـذاقوا حلاوة طعم السلم**
أناغيم لمـا شـداها الشـدا	**ة أصاخ الزمان لحسن النغم**
وصحى النيام نيـام القـلو	**ب فقام الأذان وخر الصنم**
أقـال عثـار الخصال المـلا	**ح ورسخ للمكرمات القـدم**

... ...

وقلم اظفار شرس الذئـــا	**ب فلم تخش بطش الذئاب الغنم**
وقاد الرعـاة رعـاة الشـيا	**ه فصار الرعاة رعاة الأمم[٦٢]**

ويلح الشاعر على قيم ثلاث استطاع الاسلام أن يجعل منها ركائز لمجتمع انسانى ركين وهى : العـدل والوسطية والحب . وهى ركائز قوية ما كان المجتمع الاسلامى يقوم وينتصر بدونها : لقـد جاء النبى الأمى فغزا القلوب بنور القرآن :

واشاع العدل فى الأرض فلا	**أذؤب ترقب للشـاء اختراما**
قال يا انسان لا تزهـد وكن	**بين اخراك ودنيـاك قـواما**
واحب الغير لا تغـدر بهم	**ان من يغـدر بهم يلـق أثاما[٦٣]**

ويرسم الشاعر صورة زاهية للرعيل الأول من المسلمين الذين استجابوا لله وللرسول فمضوا أنجما زواهر يهتدى بها ، ولم لا وقـد :

نصروا الله فلم يخـذلهـو	**بل جزاهم ربهم فوزا ونصره**
فمشوا فى الناس نورا وهدى	**وبدوا فوق جبين الدهر غره**

---

(٦٢) جرار : شاعران من جبل النار ٢٦٨ .

(٦٣) جرار السابق ٢٧٠ من قصيدة « ليلة ذات فجرين » فى مولد الرسول عليه السلام .

ركزوا أرماحهم فــوق العــلا   وحدا الحادى بهم عزا وشهره[64]

والشاعر فى شعر المناسبات الدينية لا يقف عند الوقائع والأحــداث ، ولكنه يهتم اهتماما خاصـــا بالدروس والعبر المستقاه من هــذه الأحــداث الجليلة . فمن هــذه الدروس التى استخلصها الشاعر من الهجرة أن الباطل مخــذول أمام الحق اذا كان هناك قوة تحصنه . ومنها أن الفعل أحــدى من القول ، وان الدعوات تنصر بالأعمال لا الأقوال . ومنها أن الدعوات تقوم على التضحية بالنفس والأهل والمــال ، وهــذا هو سر خلودها ... ومنها ان المؤمن اذا عزم فليتوكل على الله لا يخشى شيئا[65] .

والشاعر لا يكتفى بمعايشة هــذا المــاضى المجيد بما فيه من أمجاد ولألاء ودروس وعبر ، بل انه يحرص كل الحرص على أن يربط بين المــاضى والحاضر برباط وثيق ... والحاضر يفرض عليه بصماته ، وهــذا الحاضر هــو حاضر الأمة العربية والاسلامية والشعب الفلسطينى . وقــد ظهرت معالم هــذا الحاضر فى مظهرين :

المظهر الأول : ويبدو فى النعى على ابناء الجيل الحاضر الذين فرطــوا فى التركة العظمى التى خلفها الأجــداد ، حتى أصبحوا طعاما سائغا للأمم الأخرى .. يقول الشاعر بعــد أن يرسم الصورة الزاهية لأجــدادنا بمــا فيها من قــوة وعز وعلم وانتصار :

وجاء وراءهم نسل أضاعــوا   جنى اتعــابهم فلبئس نســل

تنافرت القــلوب فــلا وداد   وفرق شملهم بــدرا فــذلوا

وهانوا لا يعز لهم قنــــــاة   على الأعداء فانكسروا وغــلوا

وناموا لا تفيقهم خطـــــوب   ولا أنبــاء جــلاد يشــل

---

(٦٤) الديوان ١٥٠ (من قصيدة ذكرى الهجرة النبوية) .

(٦٥) انظر الأبيات الخمسة الأولى فى القصيدة السابقة .

يحرس حرامهم طير بغاث ... **ويقهرهم من الأقوام سفل**

عجبت لمعشر فيهم كتاب ... **به طرق الهداية كيف ضلوا**

تباع بلادهم وهمو عليها ... **وأيديهم بها شح وبخل**

أعدلهم أعاديهم سلاحا ... **وعدتهم لها خطب وقول**[66]

ويلح الشاعر على الفكرة ذاتها فى قصيدة اخرى ، فيرسم صورة مشابهة مطلعها :

واتينا نحن من بعد همو ... **واضعنا ما جنوا طيشا وغرة**[67]

وحتى تبدو المفارقة هائلة ، والبون شاسعا بين جيل الأجداد وجيل الضعف والأسلاب يجمع الشاعر بين الصورتين المتقابلتين .. فبضدها تتميز الأشياء . فبعد أن تنكرنا لديننا ، وهجرنا كتاب الله فقدنا رجاءنا وطريقنا :

وخارت عزائمنا بعده ... **وصرنا سلاب الوغى نقتسم**

وكانت لنا عزة المؤمنين ... **فصرنا العبيد وصرنا الخدم**

فنلطم منا عزاز الخدود ... **وندعو بخير لمن قد لطم**

وكنا الرغام لأنف العداة ... **فصارت انوف لنا ترتغم**[68]

هكذا كنا ... وهكذا أصبحنا ، وقد عاش الشاعر الصورتين .. عاش الصورة الأولى بوجدان المؤمن وشفافية الشاعر ، وعاش الثانية معايشة الواقع المر الذى رآه حوله على الساحة الفلسطينية والساحة

(٦٦) جرار السابق ٢٧٤ .

(٦٧) انظر الديوان ١٥١ .

(٦٨) جرار السابق ٢٦٨ .

العربية ، حيث تنهب الأرض ، وتنهك الكرامات ، وتمزق الأعراض ، وتدمى الضمـــائر .

كان هـــذا هـــو المظهر الأول من مظاهر الحاضر فى شعر عبد الرحيم الاسلامى ، أما المظهر الثانى فهو الدعوة الى استخدام القوة وسيلة أثيرة . . . بل وحيدة لاحقاق الحق :

قـــوة المـــرء لـــه حجتـــه ‏‏‏‏‏‏‏‏‏‏ وهى ان يظلم نقف نابا وظفره

و « أعـــــدوا » لم يقلها ربكم ‏‏‏‏‏‏‏‏‏‏ عبثا فلتحسنوا فى الذكر نظره

لم تكن هجرة طـــــه فرة ‏‏‏‏‏‏‏‏‏‏ انما كانت على التحقيق كره[69]

ويقـــول الشـــاعر :

اذا لم تزاحم لنيل الحيـــــاة ‏‏‏‏‏‏‏‏‏‏ أصبت فنـــاءك فى المزدحم[70]

ولكن هـــذه القوة لا قيمة لهـــا اذا لم يكن وراءها الطاقة الروحيـــة القادرة النابعة من الايمان بهـــذا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفـــه :

وخير السلاح كلام الالـــــه ‏‏‏‏‏‏‏‏‏‏ فجـــل الالـــه وعز الكلم[71]

ولنا فى رسول الله اسوة حسنة فهو الذى :

حمـــل القرآن نورا فى يـــــد ‏‏‏‏‏‏‏‏‏‏ واليد الأخرى بها هز الحساما

فالحسام العضب أجـــدى حيلة ‏‏‏‏‏‏‏‏‏‏ فى الذى يبصر لكن يتعامى[72] .

---

(٦٩) جرار : السابق ٢٧١ .

(٧٠) جرار : السابق ٢٦٩ .

(٧١) السابق نفس الصفحة .

(٧٢) الســـابق ٢٧٠ .

وهـــو نفس المنهج الذى سار فيه القسام ذلك المجاهد الذى كان يرى أن طريق الخلاص لن يكون الا « بكتاب الله فى يد ، والبندقية فى يد اخرى »(٧٣) .

وفى تضاعيف هـــذه القصائد وغيرها يتغنى الشاعر بالقيم الاسلامية من حـــق وعـــدل وقوة وحكمة ومضاء وسماحة وانسانية لذلك اتسع المجتمع الاسلامى الأول ــ لا للعرب فحسب ــ بل للمسلمين ايا كانت جنسيتهم ، فالعبرة بالعمل ، وأكرم الناس على الله هـــو أتقاهم :

وسعت دارنا صهيبا وســـلما ن ولبى بــــلال بالتكـــبير
تلك ايد لنـــا سبقت على الانسان لـــكن ياويحـــه من كفـــور(٧٤)

ومن ثم يرى الشاعر أن فى شرعة الاسلام لاخلاص المسلمين فحسب بل خلاص البشرية جمعاء ممـــا تعانيه من أزمات ومشكلات وتطاحن وحروب ... انها :

شرعة لو طبقت ما أزهقــت أنفس تردى وهام تترامى(٧٥)

وانطلاقا من هـــذا الايمان بعظمة الشريعة الاسلامية يصرخ الشاعر بقومه أن يعودوا الى هـــذا المنهل النقى الصافى ... منهل القرآن العظيم ذلك الكتاب القيم الذى انقـــذ العرب من الضياع وأخرج الناس من الظلمات الى النـــور :

الى القرآن عودوا يا حيـــارى ففى طيـــاته عـــبر تـــدل
تدل على المحجة فاتبعـــوها تفكوا ربقة العانى وتعلوا(٧٦)

---

(٧٣) د. عواطف عبد الرحمن : مصر وفلسطين ٢٥٦ .
(٧٤) الديوان ١٤٦ .
(٧٥) جرار : السابق ٢٧٠ .
(٧٦) جرار السابق ٢٧٤ .

الأفــق الانســانى

نقصد بالأفق الانسانى فى شعر الشاعر الموضوعات التى تتناول الانسان من حيث هــو انسان ... من حيث هــو كيان له نبضه ومعاناته ومطالبه وآلامه وآماله بصرف النظر عن اسمه ومركزه والحيز الزمانى أو المكانى الذى يشغله فى دنيا الناس .

وكذلك الموضوعات التى تعــالج موقف الشــاعر من القيم الانســانية سواء امثلت ما يمكن ان نسميه « القيم السلبية » أو « قيم التخلى » وأعنى بها تجنب القيم المرذولة التى تسىء الى الانسانية ، وتجر البشرية الى الخواء والخراب والضياع وذلك مثل الكذب والغــدر والأثرة والنفاق والتسلط ، أو مثلت « القيم الايجابية » ... « قيم التحلى » وهى القيم التى عليهــا يقوم الكيان الانسانى من رجولة ونجــدة واريحية وتضحية وفــداء ، أو بتعبير أكثر ايجازا « ابراز موقف الشاعر من الحياة » فالشعر الصادق — مهما كان تعبيرا ذاتيا عن صاحبه — انما يمس من قريب أو بعيد ظروف الحياة التى تعيشها الجماعة سواء اكان الشاعر نفسه على وعى بهــذه الحقيقة أو لم يكن »(٧٧) .

ولعل هــذا هــو ما يعنيه « كولردج » بمقولته المشهورة التى يقرر فيها ان الأدب « نقــد للحياة »(٧٨) .

وهــذا لا يعنى أن تكون القصيدة سجلا « لدستور » من القيم ، ومعرضا يزاحم فيه الفكر بعضه بعضا ، فالأفكار والقيم فى الشعر لا تأتى منفصلة عن الاحساس ، أو تكون تقريرا مباشرا يبدد الوحــدة الانفعالية للقصيدة(٧٩) .

---

(٧٧) عز الدين اسماعيل : الشعر فى اطار العصر الثورى ٤ .

(٧٨) الســابق ٦ .

(٧٩) انظر فى ذلك مقالا لعلى شلش بعنوان : الفكر الشعرى . من ٦٨ الى ص ٧٧ من مجلة الشعر . ديسمبر ١٩٦٤ .

وفى مقام الحـــديث عن الأفق الانسانى الذى سبح فيه الشاعر بشعره يطل علينا السؤال التقليدى : ما « الأيديولوجية » التى يصـــدر عنها الشاعر فى « انسانياته » ؟ وهى — كما هـــو معروف — تتسع لمواقفـــه السياسية والاجتماعية · ولا أجـــد فى الرد على هـــذا السؤال ابلغ وادق مما قاله أحـــد النقاد المحـــدثين من أن هـــذه الأيديولوجية تنبع اساسا من الاحساس الذاتى للشاعر ... احساسه الذاتى بالقضايا الكيانية الكبرى ، لذلك فهو لا ينحصر فى أطر سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية ، انما هـــو يكتسب ايديولوجيته فى الاطار الحضارى الشامل لمـــأساة الانسان من هـــذه الزاوية ، بحيث لا تبرز المشكلة السياسية او الاجتماعية كعنصر وحيد مستقل عن بقيـــة العناصر المكونة لمـــأساة البشرية ، وانما تتشابك فى جوهر مركب يتجاوز الأوطان الصغيرة حتى ليشتمل على الكون باسره ، كما يتجاوز مرارة الاحداث التاريخية السريعة الزوال ليتوقف عند تخوم الحـــدث اللانهائى فى أزمة الانسان والعـــالم(٨٠) .

وانطلاقا من هـــذا التكييف السديد نرفض راى بعض الكتـــاب الذين أسرفوا على أنفسهم ، فذهب بعضهم الى أن عبد الرحيم محمود « كان يتبنى النزعة الاشتراكية »(٨١) ، أو « كان ذا نزعة يسارية »(٨٢) . وقـــد سبق لنا فى الفصل الثانى فى سياق حـــديثنا عن مسيرة حياة الشاعر وابعـــــاد شخصيته أن وضحنا كيف كان شاعرنا مؤمنا صادق الايمـــان سليم التدين ، قـــوى العقيدة يرى أن الايمان بمفهومه الشامل هـــو الوسيلة المثلى لتحقيق النصر فيـــقول :

غير أن الايمان بالحـــق والرو ح جدير بالنصر جد جدير(٨٣)

ويندرج تحت هـــذه السمة — سمة الايمان بمفهومه العقدى والسلوكى

(٨٠) غالى شكرى : الأيديولوجية والشعر ٩٤ — ٩٥ · مقال فى مجلة الشعر (ص ٨٢ — ١٠٥) العـدد الرابع — السنة الأولى ابريل ١٩٦٤ ·

(٨١) نافع عبد الله : الشاعر عبد الرحيم محمود ١٠٤ ·

(٨٢) عبد الرحمن الكيالى : الشعر الفلسطينى فى نكبة فلسطين ٩٨ ·

(٨٣) الديوان ١٤٥ ·

ــ ايمان شاعرنا بوطنه وقضـــية خلاصه من الطغاة والبغـــاة مهمـــا كانت التضحيات ، وهـــو ايمان يحكمه نقاء ثورى عتيد يتلخص ــ كما ذكرنا فى الفصل لثانى ــ فى أن يكون الوطن هـــو الأيديولوجية الأولى والأخيرة ... بل الوحيدة للمناضل ، والوطن فى هـــذه « الأيديولوجية » مفهوم له شقان : الأول : مادى : ويعنى الأرض التى يعيش عليها أصحابها .

والثانى : معنوى : ويعنى الفكر والعقائد والتراث الانسانى الذى نشأ على هـــذه الأرض على مدى قرون طويلة محصلة للجهد والجهاد والمعاناة . وهما شقان يمثلان وجهين لعملة واحـــدة بحيث تصبح محاولة الفصل بينهما عملا مناقضا لطبائع الأشياء وانسلاخا كاملا من النضال والثورية .

وبذلك استطاع الشاعر عبد الرحيم محمود أن يوفق بين ما يمكن أن يظنه بعضهم « وطنيا محليا خاصا » وبين ما هـــو « انسانى شمولى عام » ... فكان فى وطنياته مرتبطا ومصدرا عن « انسانية الرسالة » ونبلهـــا وعظمتها وأصالتها ... تلك الرسالة التى احقت الحق ، وأبطلت الباطـــل ، ومزقت الظلمات ، وأثارت العقول[٨٤] .

وقصيدته « الشهيد » على الرغم من أنها انعكاس لمـــا شاهد فى أرضه فلسطين من أحكام الاعـــدام التى أصـــدرتها حكومة الانتـــداب لا تأخـــذ الطابع المحلى الحاد ، بل تصلح أن تكون انشودة لكل مناضل يحرص على التضحية بروحه فى سبيل وطنه فى أى رجا من أرجاء الأرض .

* * *

ومضى الشاعر يهاجم القيم المهترئه ... هاجم الظلم والاستبداد ... وهاجم منطق الطغاة الذين جعلوا همهم الأول والأخير حماية انفسهم على حساب الحق والعـــدل والسلام والشعوب متذرعين بالأكاذيب والادعـــاءات المـــائنة بأنهم حريصون على السلام والاستقرار :

---

(٨٤) انظر قصيدة « انشودة التحرير » الديوان ١٤٥ ـ ١٤٦ .

وقال الظالمون وقــد تمــادوا بظلم الناس : غايتنا الســلام
فاما رام طرح القيــد عبــد وفــك قيــوده غضبوا ولاموا
وقالـــوا ثائر يبغى اهتزاما لعــالمهم فهــل هــذا كــلام
فان تنظر اليهــم باحتقــــار وان تحقد عليهم هل تلام[٨٥]

وفى ظــل هــذا المنطق المعوج تختل القيم ، وتنقلب الموازين ، ويوسد الأمر غير أهله ، ويعلو من لا يستحق الاعتلاء ، ويظفر من حقه الاخفاق والضياع فى عالم :

يحظى به الكـــذاب بالمشتهى والتعس للمخلص الصــــادق
الخبز والخبز غـــدا حــكرة لبعضهم والويل للسارق
هم أوجدوا السارق من حاجة وقيل هــذى قسمة الخالــق
يا منطقا لم يرو عن عاقــل العى خـــير منه للناطــق[٨٦]

وهى أبيات تدين المجتمعات الناهبة الظالمة ، وتشير اشارة بارعة الى جريرة المجتمع فى خلق الجريمة ، وهــذا يعنى أنها — فى الغالب — وليدة الظلم الاجتماعى . وفى مجتمــع الناهبين والسارقين والمستغلين يهـــدر الشرف ، وتنحــدر الكرامات ، وتضيع الطبقات الدنيا والشرفاء الذين يريقون عرقهم وانفاسهم وجهودهم فى سبيل كسرات خبز تمسك عليهم حشاشـــة الحياة . وقــد قــدم الشاعر نموذجا من هؤلاء المطحونين فى قصـــيدته « رثاء حمال » التى نظمها فى تشرين ١٩٤٧ يوم رأى على قارعـــة الطريق بالقرب من سوق (حسبة الخضر) فى حيفا حمالا ميتا ، وبجانبه سله وحبله ، والناس يمرون به فلا يأبهون[٨٧] .

وفى القصيدة تعريض قاصف بمن ماتت ضمائرهم من البشر . . . هؤلاء الذين يضيع فيهم مثل هــذا المضعوف لأنهم لا يوقرون ، ولا يحترمون الا كل قوى غلاب . يقول الشاعر فى مطلع قصيدته مخاطبا هــذا الحمال ، ناعيا على القيم الاجتماعية الفاسدة :

---

(٨٥) الديوان ١٥٧ .
(٨٦) الســابق ١٦٢ .
(٨٧) الديوان ١٦١ .

قد عشت فى الدنيا غريبا وها	**قـــد مت بين الناس موت الغريب**
والنـــاس مذ كانوا ذوو قسوة	**وليس للمضعوف فيهم نصيب**
أو كنت فى حبـــلك شـــناقهم	**لولولوا حزنا وشـــقوا الجيوب**
أو كنت من ســـــلك رزاقهم	**لقام عند السل ألفـــا خطيب**
ونزهـــوا حبـــلك عن عيبـــه	**وبللوا السل بذوب القـــــلوب**
لكنـــك الحمـــال لم يطمعـــوا	**فيك ولم يخشوا أذاك الرهيب**
رغيفـــك الطـــاهر غمســـــته	**فى عرق زاك ودمــــــع صبيب**
ما كنت سلابا أخـــا غصـــبة	**بل كنت ذا حق سليب غصيب**
فرحت لم يسكب عليـــك أمرؤ	**دمعا ولا قلب رقيـــق يلـــوب**
ولم يودعــــــك حبيب وقـــــد	**يهـــون الصعب وداع الحبيب**

ان الأرض تتسع بمناكبها الشاسعة الرحيبـــة لبنى البشر ، وكل من فيها يستطيع أن يحصل رزقه ما سعى ، والجميع يستطيعون أن يضمنوا الحياة الطيبة الكريمة ما تجنبوا الطمع والظلم والأثرة . وفى ذلك يقـــول الشـــــاعر :

أتينا للحيـــــاة فلى نصـــيب	**كما لك أنت فى الدنيا نصيب**
فلم تعدو وتغصبنى حقـــوقى	**وتطلب أن يسالمك الغصـــيب**
أعدلك قال أن أسعى وتجنى	**وأطلب المعـــاش فـــلا تجيب**
فأنصفنى ولا تجحـــــف فأنى	**أخوك اذا دهى الخطب العصيب(٨٨)**

ويعيش الشاعر وهو يلهج بأمنية تستبد بكل مشاعره وهى أن تعتدل الموازين ، ويوسد الأمر أهله ، وينال كل ذى حـــق حقـــه ، ويعنو كل جـــدير بالعلاء ، ويهوى كل من هـــو حرى بالدرك الأسفل ، فيهتف الشاعر فى عالم سادته المظالم والجحود :

متى أرى الحـــق وأصـــحابه	**يعلون من أدنى الى شـــاهق**
وأبصر الشر وأربابـــــه	**يهوون من أعلى لاى ساحق(٨٩)**

* * *

(٨٨) الديوان ٥٨ .

(٨٩) الســـابق ١٦٣ .

ويؤمن الشاعر بحقيقة ازلية مؤداها « انها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » ، ويتخذ من شخصية ابى العلاء المعرى مثالا لتكثيف هذه الحقيقة والنفوذ — ببصيرته القادرة — الى عيوب المجتمعات ونقائصها ، والخلوص الى ما فيها من متناقضات وبغى وعدوان ، وينتصر للحقيقة التى ظلمها وتنكر لها « المبصرون » .... العميان من بنى البشر . يقول الشاعر عن حكيم المعرة[90] .

أعمى ولو خير فى امره لاختار العمى
كيلا يرى ذئبا ظلوما وخروفا ظلما
ولود لو لم يسمع الزفرات تعلو للسما
عن عالم تحت فئوس الغدر خر محطما
ما قيمة الأبصار تبصر فى الوجود جهنما

* * *

أعمى ولكن بز بالاحساس أصحاب البصر
كانوا هم العميان عن أفعالهم ينبو النظر
تاهوا بصحراء الضلال ومرغوا فى كل شر
ورآهموا فى البغى والطغيان غرقى فى بحر
فتسال القلب الكبير أهؤلاء هم البشر

* * *

نادى باصلاح الفساد فقيل ذاك تشاؤم
وأراد تعليم العباد فقيل ذاك تعالم
ودعا لرفق بالبهيم فصد عنه القارم
وأراد حكم العقل فى الدنيا فثار الحاكم
ورأى التساوى ضلة بان بنى والهادم

* * *

(٩٠) وليد جرار : شاعران من جبل النار ٣١٨ .

أعمى وشـــاهد أن ذا ك الـكون عاش بظلمتين
فى ظلمـة القلب الغليـــ ـظ وظلمـة فى الناظرين
فادار عنهم ســـاخطا برما يهيم بـكل زيـن
فرمـوه . ماذا ضر لـو ان الذئاب به عـوين ؟
امـا تعش فى معشر نـذل فعش فى محبسين

* * *

وكما حمل الشاعر على الظـلم والاستبداد والأثرة والاستغلال يحمل كذلك على المظهرية الكاذبة وادعاء التدين ، وخاصة اذا كان ذلك من رجل دين يطلب منه أن يكون قـدوة للناس ، وأسوة حسنة يحتذيها الآخرون ، فيقول الشاعر فى واحـد من هؤلاء :

يحاول أن تدين لـه رقـاب فيفتى فى قبـــاحات ودين
ويسجد طائعـــا لله زورا نظيف الردن مسبول اليدين
وليس يعف عن مال اليتامى ولا عن عرس مسـكين مدين
يكفر عن خطـــاياه بحـــج وهـدى للأضـاحى بالبدين
يصلى الخمس يتبعها انتفـــالا ودينى انهـا شرك ودينى[91]

* * *

لقـد عاش الشاعر ـ كما عرفنـا ـ حياة جادة لم تعرف العبث ، ولم يسلك سبيل اللهو والتهتك والضياع ، لأنه لم يخلق لمثل هـذا العبث :

لغير فؤادى بابنة الـكرم سـكرة وسلوى وغيرى هام فى عطر الريق[92]

انما كان يشعر ـ كما ذكرنا فى الفصل الثانى ـ أنه صاحب رسالة مثلى عليـه أن يضطلع بها بالايمان والجـدية والعزم والتصميم مهمـا كانت التضـحيات :

---

(٩١) وليد جرار : السابق ٣٢٦ .
(٩٢) السـابق ٣٢٥ .

ساطلب حقى لا أكل مجاهـــدا　　　ولو كان تمزيقى هناك وتحريقى[٩٣]

وانطلاقا من هـــذه الحياة الجادة والايمان الذى لا يحـــد نرى الشاعر يضيق بأى مظهر من مظاهر الفساد والضلال والظلم والجور والاستهتار . وفى كلمات متسعرة كان يعصف بأى مظهر من هـــذه المظاهر ، ولكنه فى ضيقه هـــذا ... وفى ضجره وثورته وتمرده لم يبد ملمحا من ملامح اليأس ، بل كان يؤمن فى اعماقه أنه لا مستحيل فى الحياة ، وأن الأمل يجب أن يمـــلأ رحاب نفوسنا ، ويضىء كل حناياها حتى فى أحـــلك الظروف واشدها ظلمـــة وظلما وضراوة ، وبهـــذه الروح يستطيع الانسان أن يعيش حياته ابتسامة مشرقة تحيى موات الأمل ، وتنعش خامد الشعور :

ان أيامنـــا ابتسامة ثغـــر　　　لم يدر مثلها بثغر الدهـــور
نشرت ميت الأمـــانى وأحيت　　　أملا عارما بقلب كسير[٩٤]

والوجود — كما يرى الشاعر — ليس مطلق الجمـــال ، ولا مطلق القبح ، ولكنه يكتسب هـــذه الصفة أو تلك تبعا لنظرة الانسان نفسه ... ان الوجود بكل ما فيه ، وكل مظاهره انما هـــو داخل الانسان لا خارجه .. فهو وردى الرؤى .. ذهبى الحواشى اذا نظر اليه الانســـان نظرة الباسم الآمل المقبل على الحياة ... وهو حالك الأعطاف ، خشن الملمس اذا نظر اليـــه الانسان من منظار اسود ... نعم انه الانسان هـــو وحـــده القادر على « ابداع الوجود » بالصورة التى يريدها .. لذلك كانت دعوة الشاعر الى « البسمة » لا تمثل دعوة الى التسرية عن النفس ، واشاعة فرحة عابرة على الشفاه ، انما هى دعوة للانسان أن يحيا الحياة الايجابية الناشطة المفعمة بكل معانى السعادة ومظاهر الخير والعمل فى كل الأحوال :

ان تجـــد باب الأمانى مغلقا　　　لا تكشر أو تلم من ســـكره
ان بواب الأمانى مـــــــرح　　　يبغض اليأس ويخشى الكشره

---

(٩٣) السابق نفس الصفحة .

(٩٤) الديوان ١٤٥ .

فتبسم يا عزيزى

يا عزيزى هل ترى الكشرة قـــد ... أرجعت من فائت بعـــد فوات

بينما البسمة ادنت قاصـــيا ... أو ما جربت ســـحر البسمات

فتبســـــم

ثم ما ســـاءك من هـــذى الدنـــا ... ما الذى رد لك الطرف الكليلا

ان دنيـــاك التى تصـــنعها ... فسر الأشياء تفسيرا جميـــلا

وتبسم يا عيززى(٩٥)

وبهـــذه الروح يستطيع الانسان أن ينتصر فى كل مواقفه وكل معاركه . وبهـــذه الروح يستطيع الانسان أن يواصل مسيرته الى النهاية دون ضعف أو ســـقوط أو استسلام .

وهـــذه الروح التفاؤنية كانت من أعلى النغمات فى شعر المهجر بعامة ، وشعر ايليا ابى ماضى بخاصة ، فقـــد تبنى الدعوة الى التفاؤل ومواجهـــة أزمات الحياة بنفس مشرقة مبتسمة آملة(٩٦) .

(٩٥) الديوان ١٦٠ .

(٩٦) انظر ديوان ايليا ابى ماضى (الأعمال الكاملة) وخصوصا القصائد الآتية : تعالى ٤٨٧ ـ الغبطة فكرة ٤٥١ ـ هـدية العيد ٥٢٨ ـ ستعود دنيانا ٥٩٢ .

عاش الشاعر حياته لأمته .. عاش حياة رفيعة استغرقها النضـــال المسلح فى ساح القتال ، والتعليم فى المدارس والمعاهـــد فى فلسطين والعراق ، وعاش الشاعر — كما عرفنا — يتعشق المثل العليا والقيم الرفيعة ، وكان فى حياته — كما عرفنا — صورة عملية لمـــا يعتقد ويعتنق . ومثل هــــذا الشاعر الملتزم بهـــذه المثل وتلك القيم كان من الطبعى أن يتغنى بها ، ويرشد لايها ، ويثور ويعصف بما عـــداها ، وظل يلهج بما يراه حقا ، وما يرى فيـــه خلاص وطنه وانقاذه وحريته وخلوده .

كانت حياته — كما عرفنا — جادة تتسق فى طابعها هـــذا مـــع سنين المعاناة الدامية التى عاشتها فلسطين تحت وطـــأة الاستعمارين الانجليزى والصهوينى ، ورأى الدماء كيف تراق والأرض كيف تنهب ، والبلاد كيف تخرب والضمائر كيف تغفو بل تموت . ورأى الزعامات المهترئة والقيـــادات الفلسطينية المتطاحنة ، فيفقد ثقته فيها ، ويعقد الأمل فى الشباب ، فعلى يديه تتحقق الأمانى فى الخلاص والحرية . ولكن اى شباب ؟؟ انه ليس الشباب الهش الذى يبحث عن الغرام الرخيص والمتع الخسيسة والحياة الوادعة ، ولكنه الشباب القوى المخلص الطامح المتسعر العارم . ومن ثم حرص الشاعر على أن يرسم فى احـــدى قصائده صورة « شباب الخلاص » كما يجب ان يكون ، وفيها يقـــول :

أحب الشباب وما فيـــه من	**قـــوى ســـاحقات تهز الجبل**
وأكره فيـــه انقيـــاد القلوب	**لحكم الجمـــال وســـحر المقـــل**
ونسيانه أننـــا قـــد أنطنـــا	**بتلك القلـــوب لذيذ الأمـــل**
نريد لهـــا أن ترى عـــامرات	**بغـــير الغرام وغـــير الغزل**
نريد لهـــا أن ترى عـــارمات	**بحب البـــلاد وجـــد العمـــل**
أحب الشباب شـــبابا لهيبـــا	**تلألأ منـــه ضـــياء الشـــعل**
يضىء الطريق على مدلـــج	**ويهدى الذى تاه عنها وضـــل[٩٧]**

---

(٩٧) وليد جرار : شاعران من جبل النار ٢٩٨ .

وبعـد ذلك ... وفى قصيدة القاها الشاعر على شباب كلية النجاح سنة ١٩٤٥ نرى الشاعر بتوجيهات مباشرة يرسم للشباب دستور عمـل من أجـل تخليص الوطن ، وهـو دستور من أهم معالمـه التحلى بالقـوة والحزم والشجاعة . يقـول الشاعر :

فيـك الخـلاص أيا شـبا ... ب وقـد تخاذل عنـه شيبه
انقـذه أنت فخـيره ... لك دونهم وعليـك حـوبه
كن سـيفه فى النائبات ... وترسـه مـا يصـيبه
واعنف فلم يرجـع بغيـ ... ر العنف من حـق سليبه
والبس جـديدا فى النضا ... ل يزنك فى الدنيـا قشـيبه
من بات ما بين الوحـو ... ش مسالمـا قصرت نيـوبه
والقيـد ليس لـه سـوى ... نار مؤججـة تذيبـه
والظـلم يجرفـه الـدم الـ ... مهراق فى حـرب صـبيبه
فافهم ولا يخلبـك مـن ... غـدر لشرير خـلوبه
واعلم ولا يخـدعك مـن ... وعـد ومـن عهـد كـذوبه
واغضب لعرضـك ان ثلبـ ... ت يخفك من غضـب ثلوبه
كـن ذئب فتـك فى الوجـو ... د ، وان ودعت فراك ذيبه
واهجم على الميـدان لا ... ترعب فما اجـدى رعيبه[٩٨]

* * *

وللشاعر ثلاث قصائد تدور حول العمال ، وهم السواد الأعظم من شعبه المنهوب ، منها مطولة تزيد على السبعين بيتا نظمها قبل استشهاده بعام ، وهـو يتعاطف بصـدق مع العمال ومطالبهم وحقهم فى الحيـاة فيخاطبهم قائلا :

فانكمو صوت وانى له صدى ... وانكم روض وانى لطـائره
أغرد فيكم فى محاسـن منكم ... كما غرد الحسن المحبب سامره[٩٩]

---

(٩٨) جرار السابق ٣٠٠ .

(٩٩) السـابق ٢٩٥ .

ويتحـــدث الشاعر عن قضية العمال ... ويقرر انها قضية حقيقية وخطيرة لأنها قضية « حياة وكرامة » ، وقـــد اقتضاه تعاطفه وحماســـته لهـــذه القضية ان يعالج جوانب ثلاثة :

الجانب الأول : جهد العمال وجهادهم وأفضالهم على المجتمع .

الجانب الثانى : مظاهر الظلم الذى يقع عليهم ، وينتهب حقوقهم .

اما الجانب الثالث : فهو تحريض العمال على التمرد والثـــورة على ظالميهم وناهبى حقوقهم .

* * *

فالعمال هم بناة الأمة وسر نهضتها ، وبناؤهم يعـــز على كل ظالم أن يهـــدمه أو ينال منه :

واما ارادوا أسعفتهم سواعد ... ولم يثنهم عن نيل أمر شواجره
كثيرو فعـــال الخير لا يعلكونه ... كما علك الهـــذر المـــذمم هاذره
لهم مطلب فرد : تحرر امـــة ... ولم يزههم من عيش ذل اخاضره
وما عرق الأتعـــاب الا لآلىء ... تزين وضـــاح الجبين نواضره
يضحون بالأرواح والجد نصرة ... لموطنهم اذا قـــل فى الناس ناصره
فكم سقطوا صرعى بواسل دونه ... ولم يذكر الصرعى البواسل ذاكره
ولم يطلبوا عز الكراسى كالذى ... تعلق فى مجد المناصب خاطره[100]

ويلح الشاعر على تفصيل ملامح الرســـالة الوطنية البنـــاءة التى اضطلع بها العمال ، فيسوق على ألسنتهم أنشودة هـــذه المفـــاخر التى قـــدموها ويقـــدمونها للوطن :

نحـــن المصـــادر والموارد ... وســـلاحنا فتـــل السواعد
هاماتنـــا ــ للمجـــد ير ... ســـوحين نبدعـــه ــ قواعـــد
وقلـــوبنا نبـــع المـــكا ... رم ليس ينضب والمحـــامد
ودماؤنا الحمـــراء للـــ ... حرية العليـــا روافـــد

---

(١٠٠) جرار السابق ٢٩٥ .

ولنـــا الأيادى البيض لا ينسى الأيادى غـــير جاحد
وبنـــا اذا تدهـــو الشدا ئد كان تفـــريج الشدائد(١٠١)

ويعرض الشاعر مظاهر الظلم المسلط على العمـــال ، واول هـــــذه المظاهر وأغربها هـــو انكار « القضية » من اساسها ، والادعاء بأن العمال لا قضية لهم ، وانهم يعملون ويتقاضون من الأجر ما يستحقون . أو تشويه هـــذه القضية وتشويه سمعة مثيريها ومتبنيها بالادعاء بأنهم حرب على الوطن ، يعملون على تخريبه والاساءة اليه يقول الشاعر :

وما قصـــة العمال الا حقيقة طواها من الجهل المخيم ساتره
كساها اخو ظلم ثياب خرافة دخـــائله معروفـــة وسرائره
وأبرزها للناس شوهاء نكرة وهل ضر حقا ايها الناس ناكره(١٠٢)

ويفضح الشاعر مظالم هؤلاء النهابين : فهم لاهون لاغون كذابون ، يبنون سعادتهم على شقاء العمال ، ويصرخ الشاعر صرخة قـــوية تدين هـــؤلاء اللصوص :

وما الحق فى ان يأخذ الجنى قاعد ويحرمه يـــوم الحصادة باذره
أيعمر ذو الاجهاد قصرا ممردا ولا يسكن القصر الممرد عامره(١٠٣)

* * *

ويرفض الشاعر ان يستسلم العمال لهـــذه الحال ، فيحرضهم على من يستعبدهم ويستنفد قواهم وجهودهم ، ويدعوهم الى التمرد على هـــؤلاء فى سبيل حقوقهم وكراماتهم ، وهـــو فى هـــذا التحريض ، وذاك الاستنهاض يسلك ســـبيلين :

---

(١٠١) الديوان ط ٢ : السوافيرى ١٦٢ – نافع عبد الله ١٥٦ – جرار ٢٩١ والأخير يختلف فى الصـــياغة .

(١٠٢) جرار : السابق ٢٩٥ .

(١٠٣) السابق : نفس الصفحة .

السبيل الأول : الحض غير الصريح وغير المباشر ، فهو يسأل العـــامل بوقار عقلى وحكمة رزينه :

هـــذى القصـــــور وأنت را	فـــع سمكها هـــل هن لك ؟
والـــدوح أنت زرعتـــــه	من حـــولها هـــل ظـــلك ؟
والنـــور من يـــدك الصـــنا	ع . فما حياتك فى الحـــلك ؟
الحســـــن أنت خلقتـــه	لـــكن ســـواك لـــه ملك[١٠٤]

السبيل الثانى : التحريض المباشر الصريح فى مثل قوله :

أطرق بمطرقـــك الـــرءو	س اذا حرمنك من مرادك
وأحصـــد بمنجلك الرقـــا	ب اذا تمادت فى عنـــــادك
واحـــكم بأمرك فى بلا	دك لا تغرب فى بلادك
أنت الـــذى زرع الحيـــا	ة فمـــن شريكك فى حصادك

يا عامل[١٠٥]

ان استرداد الحق السليب بالقوة فكرة كررها الشاعر كثيرا وألح على تكرارها ... وهى قاعـــدة يؤكدها الاستقراء على مدار التاريخ كله :

فما الحـــق الا قـــوة وعزيمة	يعوذه رمح ، ويرقبـــه باتره
وسعى بميدان النضـــال موفق	يعود به من فاتت السعد غابره
ونار تذيب القيد فى جمراتهـــا	فليس لفك القيد الا صواهره[١٠٦]

وعلينا أن ننوه فى هـــذا المقام بأن تمرد الشاعر على الظلم الاجتماعى والاستغلال الطبقى لم يكن يمثل نظرة محلية ضيقة بالنسبة للمطحـــونين فى وطنه ، بل كان ينطلق عن الايمان بقيم انسانية عليا سواء اتعلق ذلك بالوضع فى بلده فلسطين أو فى غيرها . ولـــه أبيـــات من قصيدة مفقودة تنم على ذلك وهى قصيدة « تمور البصرة » التى نظمها عام ١٩٤١ وهـــو يعمل بالتدريس فى البصرة . أما الأبيات التى عثر عليها من القصيدة فهى :

(١٠٤) الديوان ١٥٥ .

(١٠٥) السابق : نفس الصفحة .

(١٠٦) جرار : شاعران من جبل النار ٢٩٧ .

يقـــال البصرة اشتهرت بتمر — سلوا هل يملك الفقراء تمره ؟
هنـــاك على جنـــاح العزناس — وناس من معاوزهم بغمـــرة ؟
فهل أمر الزنوج لــه معــاد — وكم شيء كرهت حمدت أمره(١٠٧)

ودفاع الشاعر عن العمال ، ذلك الدفاع الرائع ، وابرازه دور العامل فى تقـــدم الوطن وبنائه والهجوم المتسعر على مستغليه ، ودعوته العامل الى الثورة من أجـــل حقوقه قـــد يوهم المغرمين بالتمحكات والتمحلات بالادعاء بأن الشاعر كان اشتراكيا أو شيوعيا أو متأثرا بنزعات يسارية او ماركسية ... الخ(١٠٨) .

واقول ان الشاعر كان بعيدا كل البعد عن كل هـــذه التيارات ، وأنه كان ملتزما بحب الوطن — كما ذكرنا مرارا — الوطن بما نشأ عليه من ديانات وقيم وتراث ...

كما أن شعره السابق وما يدور فى فلكه ليس غريبا على الروح العربية والاسلامية ، وليس فى هـــذا الشعر طابع ايديولوجى خاص يمكن ان ننسبه أو بعضه على الأقل الى تيـــار ايديولوجى معين كما نرى عند ابى سلمى مثلا فى بعض قصائده كقوله :

قـــالوا يســـاريون قلـــ — ت أجلهـــم عمـــلا ومبـــدا
وطـــن علـــى ايديهم — يجنى مـــع الأيام ســـعدا
حفـــت بـــه آعـــــرافهم — ريا وبالأمجـــاد تنـــدى
لم يعرفـــوا كيـــف المبـــا — دىء تشترى عـــدا ونقـــدا

---

(١٠٧) الديوان ١٥٣ ، والشاعر فى البيت الأخير يشير الى ثورة الزنج فى البصرة فى العصر العبـــاسى .

(١٠٨) أنظر نافع عبد الله : الشاعر عبد الرحيم محمود ص ١٠٤ اذ يذهب الى ان الشاعر كان يتبنى النزعة الاشـتراكية . كان قيم العدل والمساواة والحب لا مكان لهـــا فى تراثنـــا الدينى والعربى .

وانظر كذلك د. عبد الرحمن الكيـــالى : الشعر الفلسطينى فى نكبـــة فلسطين وفيـــه يذهب الى ان عبد الرحيم كان ذا نزعة يسارية (ص ٩٨) .

هــذى المطــارق والمنــا جــل تحصد الظــلام حصدا
وتحــرر الانســان حتى لا ترى فى الكون عبـــدا[109]

* * *

أما قضايا المرأة فلم ينشغل بها الشاعر انشغال شعراء مصر بهـــا مثل قضية تعليم الفتـــاة والسفور والحجاب تلك القضايا التى نالت الـــكثير من شعر شوقى وحافظ ومحرم وغيرهم . وأعتقد أن طبيعة الشاعر واتجاهه النضالى ، وطبيعة المرحلة التى عاشها بما فيها من أحـــداث قومية دامية صرفته عن مثل هـــذه القضايا .

وقصيدته اليتيمة فى هـــذا الشأن بعنوان (نون النسوة الحزينة) والتى مطلعها :

يــا نــون يــا حــزين اهـــكذا تهـــون
يعـــلو عليـــك واو وهـــو كـــريه دون[110]

لا تمثل رؤية واضحة فى قضية المرأة ، زيادة على التواء أسلوبها ، وضعف عبـــاراتها . وقد نظم هذه القصيدة عنـــدما قرر المؤتمر النسوى بالقاهرة ١٩٤٤ حـــذف نون النسوة مساواة بالرجل ، ونشرت مجـــلة الرسالة آنذاك قصيدة للدكتور عزيز فهمى يقول فيها :

هـــلا أتـــاك حـــديثهن النـــون ليست نونهـــن
هـــذا القـــرار وثيقـــة أفصـــح وذكـــر جمعهـــن
النـــون تخـــدش سمعهن ومـــا أرق شعورهن[111]

---

(١٠٩) ديوان أبى سلمى ٥٦ من قصيدة له القاها فى مؤتمر العمال بيـــــافا فى ١٢ أيلول سنة ١٩٤٧ . وانظر قصيدته (مرحبا بالرفاق) ٥٤ .

(١١٠) جرار : شاعران ... ٣١٣ .

(١١١) الســـابق ٣١٢ .

غير ان لعبد الرحيم من الشعر ما ينم على ايمانه بأن عبء الجهاد فى سبيل تحرير الوطن ليس مقصورا على الرجال فحسب ، بل على المراة ان تتحمل نصيبها فى معركة التحرير . يقول عبد الرحيم :

يا ابنة العرب حطمى الاغلالا ارفعى الصوت واطلبى استقلالا
وافتحى مقلتيك للنــور وامشى فى طريق الجهاد فالليـــل طالا(١١٢)

* * *

وفى مجال هـــذا الأفق الاجتماعى نقرأ للشاعر بعض قصائد المـــدح والرثاء ، ولكنها قليلة اذا قيست بما نظمه فى أغراض أخرى وبخاصة الشعر الوطنى والقومى . وقـــد علل بعضهم(١١٣) هـــذه القله بسببين :

أولهما : أن الشاعر مناضل ثائر ، يتساوى عنده الموت والحياة ، بل وفى كثير من قصائده يؤثر الموت الشريف على الحياة الذليلة ، وهـــو ازاء ذلك كان لا يقف أمام الموت فى مراحل حياته الشعرية — الأولى على الأقـــل — تلك الوقفة اليائسة الحزينة التى يندب فيها الناس عادة موتاهم بحرقة وألم .

وثانيهما : أنفة الشاعر وترفعه عن المدح ، فليس الممدوح فى رأيه الا أحـــد شخصين : اما رجل مجاهـــد يجود بكل ما يملك من أجل وطنه وبلاده ، وعمله هـــذا واجب لا يحتاج معه الى المدح والرثاء . أو رجـــل زعيم ســـاد فى الناس فعظم أمره ، وكثر ماله ، لا يمدحه الا متملق طامع فى رفـــده وعطاياه . وهـــذه صفة أبعـــد ما تكون عن أخلاق الشاعر ومزاياه الثورية .

لذلك لا عجب اذا اكتشفنا أن الشاعر ليس له فى المدح الا قصيدة واحدة فى عالم من علماء نابلس وشيخ من شيوخها الذين تأثر بهم الشـــاعر وهـــو الشيخ « محمود حنون » يثنى فيها على علمه وتقواه ، ويعبر عن حبه لـــه

---

(١١٢) عن رشيد جبر الأسعد : الشاعر عبد الرحيم محمود بطل معركة الشجرة ٧٢ ، وقد سبق حديثنا عن البيتين .

(١١٣) جرار : السابق ٣١٠ .

واعتزاز الناس به . وهى قصيدة بعيدة عن الاسراف فى الثناء والمغــــالاة فى المـــدح(١١٤) .

ورثى الشاعر « داود طوقان » بقصيدة من عشرين بيتا فى ذكرى الأربعين لوفاته . كما رثى آخرين من معارفه وأصدقائه بمقطوعتين قصيرتين(١١٥) .

ورثى الملك غازى ملك العراق الذى قيـــل ان المستعمر الانجليزى دبر حادث مقتله ... وهـــو رثاء ادخل فى باب الشعر الوطنى القومى منه فى شعر المجاملات التقليدية مدحا او رثاء(١١٦) .

ولكن تبقى قصيدته فى رثاء عبد الرحيم الحاج محمد أشهر قصائده فى الرثاء واصدقها عاطفة وأعمرها بالحب والوفاء . ولم تقف القصيدة عند ذكر محاسن الشهيد وبطولته والفراغ المر الذى خلفه استشهاده ، ولكن الشاعر — كما ذكرنا من قبل — اتخـــذ منها منطلقا لتمجيد البطولة والأبطال والشهادة والشـــــهداء .

* * *

وعـــودا على بدء نذكر القـــارىء بأن الشعر الاجتماعى — وان نظم الشاعر أغلبه — فى مناسبات معينة — كان انعكاسا امينا لنفسية الشاعر المؤمنة المتوثبة التى مردت على الـــثورة واباء الـــذل والضيم ، والاعتزاز بالنفس ، والانتصار للقيم الانسانية .

---

(١١٤) انظر القصيدة فى جرار : شاعران .. ص ٣٠٨ .
(١١٥) انظر السابق ٣١٠ .
(١١٦) انظر الديوان ١٣٦ .

أفــق الغزل والمرأة

الحــديث عن غزل الشاعر يقتضينا ان نطرح سؤالا عرضنا لــه من قبل فى الفصل الثانى ومؤداه : هل فى حياة الشاعر المحبوبة الشاغلة الملهمة ؟ وهل كان فى حياته قصة الحب التى استغرقتها استغراقا عنيفا أو سنين منها ؟ وما حقيقة هــذاالغزل الذى دار فى عــدد من قصائده ؟

لعــل باكورة ما نطق به قلبل الغض من الغزل بيتين من الشعر فى الممثلة المصرية فاطمة رشدى عندما زارت نابلس ســـنة ١٩٣٠ ، وكان الشاعر ابن السابعة عشرة ما يزال طالبا فى كلية النجاح الوطنية ، وقــد أقامت الممثلة المصرية المشهورة حفلة فى نابلس حضرها جمع كبير من محبى الفــن والتمثيل ومن بينهم عبد الرحيم محمود واستاذه ابراهيم طوقان، وفى أثناء الحفل أسر الطالب الأستاذه بهــذين البيتين :

ووجنتاك ورود الروض بللهـــا قطر الندى من لماك العذب فانفتحت
لهفى على قبلة اطفى بها ظمئى ماضر فاطمة لــو أنهـــا منحت

ولم يكتم الأستاذ سر تلميذه اذ ذهب الى الممثلة ، وأسمعها ما يقول أحــد طلابه فيها ، فضحكت ، وطلبت منه أن يحضره اليها فى اليــوم التالى ، ذهب الشاعر ومعه ابراهيم طوقان ... ولمــا دخلا بادرته الممثلة قائلة : الا زلت يا استاذ مصرا على ذلك ؟ فاحمرت وجنتاه خجلا ، وولى هاربا[١١٧] .

ولا نستطيع ان نسمى هــذا حبا ، انما هــو من قبيل الغزل اللاهى ، وهــو أدخل فى عبث الشباب منه فى الغزل المعبر عن عاطفة حب تستغرق قلب صاحبها ومشاعره .

ولكن بعض الذين كتبوا عن الشاعر[١١٨] قطعوا بأنه عاش قصة حب

(١١٧) وليد جرار : شاعران من جبل النار ٣٢٧ ·

(١١٨) نافع عبد الله فى : الشاعر عبد الرحيم محمود ٥١ · ووليد جرار فى : شاعران من جبل النار بينما لم يشر ناصر الدين الأسد والسوافيرى ورشيد الأسعد فى كتبهم – من بعيد أو قريب الى قصة حبه للفتاة المسيحية سلمى ·

عميق متسعر ، اذ أحب فتاة مسيحية تدعى سلمى ، وكانت « باعثا رئيسيا فى ولادة معظم قصائده فى الحب ، سواء تلك التى تمثل المودة والغرام ، ام تلك التى تتفجر فيها روحـــه الثائرة غضبا وكبرياء ، أو تخمد فيها نفســـه ندما وأسفا ، وقـــد ذكرها فى شعره قائلا :

سلمى لقـــد تهت فهـــذى يدى	**سلمى فقودينى عبر الظـــلام**
انت بصيص النور فى ناظرى	**والخافق الثائر بين العظام[119]**

ولكن الذى يقرأ غزل عبد الرحيم يصعب عليه ان يصـــدق ان الشاعر قـــد عاش تجربة حب عميق من ذلك النوع الذى يستغرق النفس ويهـــز الوجـــدان : فالحبيبة غزال ابدعه الله حتى أن من يقبلها يترك الجنـــة من العميقة والانفعال الحار والصورة المبتكرة والكلمة الموحية ، انما هـــو ترديد لمعان تقليدية تأخـــذ فى مجموعها طابعا حسيا ، لا يشد النظر ، ولا يهـــز الوجـــدان : فالحبيبة غزال أبدعـــه الله حتى أن من يقبلها يترك الجنـــة من اجلها ، وهى تفوق الغزال فى حورها وكحلها ... الخ .

يا غزالا صـــدنى ما اجمـــلك	**مبدع الأكـــوان ربى عـــدلك**
فيـــك معنى كل حسن رائع	**يدع الجنـــة من قـــد قبـــلك**
هـــذه الريم فسلها هـــل لها	**مقـــل حـــوراء تحكى مقـــلك**
هى من جنسك طبعـــا انمـــا	**كحلها ليس يضـــاهى كحـــلك**

والغرام يكاد « يقضى عليه » وهـــو راض كل الرضى بأن يقضى عليه هـــذا « الغرام » ، ويأبى أن يعـــذله العاذلون على حبه هـــذا الذى « غرق » فيه لأذنيه ، وهـــو « نشوان » لا يريد أن يفيق من نشوته وسكره :

قالـــوا ســـيقتلك الغرا	**م فقلت ما أكمو وقتلى**
ان كنت أرضى المـــوت فى	**حبى دعوا لومى وعـــذلى**
قالـــوا الا تصـــحو لنفـــ	**ـسك قلت ان السكر شغلى**
نشـــوان من ريـــق الحبيـــ	**ـب وسـحر ألحـــاظ ودل**

---

(119) نافع عبد الله : السابق 51 .

هـــم يا حبيبى يبتغـــــو ن فراقنـــا تفـــديك اهـــلى
لقـــد اعتصمت بحبـــل حبـــ ـــك فاعتصم حبا بحبلى(١٢٠)

وكلها — كما هـــو واضح معان مستهلكة تناولها الشعراء القـــدماء والمحـــدثون آلاف المرات ، وهى بذلك لا تقودنا الى تجربة شعورية عميقـــة أصـــــيلة .

***

وقـــد سبق أن ذكرنا ان الشاعر فى أغلب « غزلياته » لا تتخلى عنـــه سمة « الثائر الرافض المتمرد » ، ولا أغلو اذا قلت انها النغمة العالية الغالبة على هذه الغزليات ، فكثيرا ما تتردد فيها «الأوامر الصارمة» الموجهة الى «جيش الحبائب » . فليس هناك حبيبة واحـــدة انما هناك « جيش » من الحبيبات « يحرقن » القلوب بجمالهن الساحر . أما سلاحهن فهو العيون والســـيقان والأرداف ، وقـــد رسمن خطة الهجوم على شكل « الخميس » المشهور ، ويبدى الشاعر رضاءه بأن يكون مصرعه على يد هـــذا « الجيش » ، ويختم قصـــيدته بقـــوله :

رحماك يا جيش الحبائب قد رفعـ ـت الراية البيضـــا وجئتك تائبـــا
لم تنظر العينان جنـــدا مثل جنـــ ـــدك من رأى جندا مها وكواعبـــا
أواه لو لى مثل جيشك كنت أفـ ـــتتح البلاد مشارقا ومغاربا(١٢١)

ولسنا بصـــدد تقييم القـــدرة التصويرية عند الشاعر ، فلذلك مكانه من هـــذا البحث ، ولكن هـــذه الأبيات تقودنا الى شاعر مغرم بالحرب والمعارك ، لا الى شاعر محب عاشـــــق متيم ، وكان حرصه على توظيف الاصطلاحات الحربية من أمثال « القواضب — الكتائب — الخطة — الكر — الفر — القنا — الهيجاء — السهم — والراية ... الخ » مما قضى على أى ملمح وجـــدانى فيها . وهى تذكرنا — فى جـــوها العام بقصيدة اسماعيل صبرى المشهورة « لواء الحسن » التى مطلعها :

(١٢٠) الديوان ١٨٦ .
(١٢١) الديوان ١٨٠ .

يا لواء الحسن احزاب الهوى ... ايقظوا الفتنة فى ظـل اللـواء
فرقتهم فى الهوى ثاراتهم ... فاجمعى الأمر وصونى الأبرياء(١٢٢)

واتساقا مع طبيعة الشاعر النفسية فى خشونة المحارب وتمرد الثائر كان « غزله الناقم الهاجر » أبلغ واصـــدق بكثير من « غزله المحب الواصل » ان صح هـــذان التعبيران ، كما نرى فى قصيدته « راح الذى بيننا »(١٢٣) التى ختمها بالمقاطع الآتية :

خلعت من قلبى نبات الهـوى ... وتحت أقـدامى لقـد دسـته
وخفت من قلبى ضلال الهوى ... ورجعـة المـاضى فخربته
روحى فقـد راح الذى بيننـا

اذا تلاقينـا فـــلا تنظرى ... أرى وميض الغدر فى ناظريك
ولا تشــيرى لى ولا تومئى ... وددت لـو تقطع كلتـا يديك
روحى فقـد راح الذى بيننا ... ولعنـة الحب لقلبى عليـــك
روحى فقـد راح الذى بيننـا

روحى شبابى انت أياســته ... من أمل زاك رجـاه الشـباب
لا تذكرى المـاضى وماذا بــه ... هل ذقت فى حبيك الا العـذاب
كتـاب ماضـيك اسى كـله ... لا تقرئى منه بل اطوى الكتاب
روحى فقـد راح الذى بيننـا

فحبه لسلمى — من وجهة نظرنا — لم يكن عميق الأثر بعيد الغور . . . لم يكن هـــو الحب المبدع الخلاق كالذى استغرق عاطفة ابراهيم طوقان ، وخصوصا اذا عرفنا أن هـــذا الحب « لم يدم طويلا » اذ سرعان ما تغير بعـد غـدر المحبوبة به — على حـد تعبيره — فأخـذ يلوم نفسه ، ويندم على ما جرى منه »(١٢٤) . ويقول وليـد صادق جرار « ومهمـــا يكن من أمر فان عبد الرحيم محمود لم يكن موفقا مع المراة طيلة حياته ، اذ كانت علاقته معها

---

(١٢٢) راجع القصيدة فى ديوان اسماعيل صبرى ٣٢ . وانظر تعليق عمر الدسوقى عليها فى كتابه « فى الأدب الحـديث » ٢/٢٧٦ .

(١٢٤) نافع : الشاعر عبد الرحيم محمود ٥١ .

سلسلة لا تنتهى من العـــذاب والحرقة ، فمات شهيدا وفى نفسه — كما قال لى بعض تلاميذه ومعارفه — غصص وآلام منها لا حـــدود لهـــا »[١٢٥] .

وزيادة على اغراق الشاعر فى التقليدية التى سادت هـــذا الغزل نأخذ عليه انه لم يلتفت الالتفاته الكبرى — كشاعر مقاتل — الى المزج بين موضوع الحب كتجربة فردية ذاتية والواقع النضالى الجماعى ، وكان من الممكن أن يتخـــذه ركيزة ومنطلقـــا للتعبير عن الحب الأكبر حب الوطن وطبيعة المعاناة التى يعيشها بكل جوانبها وطعومها كما فعل شاعر مثل أبى سلمى ، بل كما فعل بعض الشعراء القـــدامى كعنترة بن شداد[١٢٦] .

* * *

تلك هى الآفاق التى حلـــق فيها الشاعر ، وتلك هى الموضوعات التى تناولها والمحاور التى دار حولها شعره . أحيانا يحلق بجناحين قـــويين يهوم بهما فى علياء ، وأحيانا يكون قريبا من السطح ، وأحيانا يأخـــذه الضعف فتخونه قـــوادمه وخوافيه ، وهـــذا يقتضينا وقفة قـــد تطول ... نقيم فيها فن الشاعر وامكاناته فى صناعته .

---

(١٢٥) شاعران من جبل النار ٣٤٣ .

(١٢٦) أنظر معلقته وبخاصة ابتداء من البيت الخامس والأربعين :

هـــلا سألت الخيـــل يا ابنـــة مالك   ان كنت جاهـــلة بمـــا لم تعلمى

[أنظر : التبريزى : شرح القصائد العشر ٢٠٣] .

الفصل الخامس

السمات والملامح الفنية



وقفــة مــع نثر الشــاعر

اشتهر عبد الرحيم محمود بشعره ، ولم يشتهر بنثره ، ولم يبد وأحـد من الباحثين الذين كتبوا عنه اهتماما بكتاباته النثرية ، وربما كان الباحث نافع عبد الله هــو أول من نشر له نثرا فى دراســة متكاملة . وهــذا النثر محصور فى عملين :

الأول : رسالة موجهــة من الشــــاعر فى ١٩٣٨/١/١٩ الى ابراهيم طــــوقان[١] .

والثانى : مقاله نقــدية مخطوطة حــول الشعر والشعراء يرد فيها على من هاجم الشاعر ابراهيم طوقان ، وعابوا بعض شعره بعــد وفاته ، ومن هؤلاء الشاعران مصطفى الدباغ وكمال ناصر . والمقالة من عشر صفحات فقــد منها الصفحتان الأولى والثانية ، وبقى منها ثمانى صفحات[٢] .

* * *

ويقال ان الشاعر كان يكتب مذكراته الخاصة ، وانه كان يبدى فيهــا آراء صريحة فى قادته ورؤسائه[٣] ، ولكن احــدا ــ يقــدر ما وصل اليه علمى ، وفى حــدود ما بين يدى من مراجع ــ لم ينشر هــذه المذكرات أو اجزاء منها . ولا شك أن ما عرفناه من شعر عبد الرحيم وأخباره وأبعــاد

---

(١) نافع عبد الله : الشاعر عبد الرحيم محمود ١٨٩ .

(٢) نشرها نافع فى المرجع السابق ١٩٣ .

(٣) انظر السوافيرى : ديوان عبد الرحيم محمود (الدراسة) ٣٢ .

شخصيته يمكننا الى حـــد بعيد من معرفة الطابع العام لهـــذه المذكرات وأنها كانت تعبر فى صراحة عن ضيقه النفسى وروحـــه المتمردة الناقمة على أوضاع يراها فاسدة ، وقيادات يرى انها ليست على مستوى المهام التى اسندت اليها . أقول هـــذا على سبيل الاستنتاج وليس بين يدى سطر واحد من هـــذه المذكرات ، وأرجح انها فقـــدت دون قصد ، أو حرقت بفعـــل بعض اهله خـــوفا من وقوعها فى أيدى اليهود . وقـــد يؤيد هـــذا الترجيح أن الباحثين اللذين اهتما اكبر اهتمام بشعر عبد الرحيم وآثاره وأخباره(٤) لم ينشرا شيئا منها ؛ بل لم يشيرا اليها .

مـــع رســـالة الى طـــوقان :

وسنحاول أن نلقى الضوء على نثر الشاعر « لنتبين منهجه وأبعـــاده الفكرية ومعالمـــه الفنية فى نطاق عمليه النثريين الرسـالة والمقـــالة النقـــدية بادئين بعرض الرسالة بتمامها :

اخى الحبيب :

اجـــدنى وحياتك — مدينا لك بشىء كثير ، فقـــد كنت أول من غرس فى روحى تذوق الجمال ، وأول من اوحى الى سامى التصور والخيال . وانك لا تزال كما كنت ملهمى ، ، والآخـــذ بيدى لآخر الشوط . فباى لسان أشكرك ؟ اعطنيـــــه !!

وصلنى — اى استاذى — ما بعثت ، وقـــد شعرت بغبطة لتذكرك اياى لا تدانيها غبطتى ايام كنت تروض جناحى لأرفرف ، وأيام كنت تدفعنى مشجعا لأتقـــدم . تلك أيام لن انساها . ولن انساك ماثلا فى الصف ، ولك فى صورتان : صورة يلذ بها بصرى ، وأخرى تقر بها بصيرتى . وكنت — وأنا اليقظان — كالوهمان ، فاتحسسك ، واتلمسك لأزيل الشك باليقين ، فمـــا أجـــدك — وأنت المـــادة — الا خيالا من الخيالات الجميلة التى لا تفتأ تخطر على فـــؤادى .

انت — أيها المخلوق الجميل — تخجلنى بما تصنع معى من معروف .

---

(٤) هما الأستاذان نافع عبد الله فى كتابه : الشاعر عبد الرحيم محمود ووليد جرار : فى كتابه : شاعران من جبل النار (ابراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود) .

وانت ـــ ايها الساحر اللذيذ ـــ تقيدنى بأحابيل جميلك ، ولذلك لتؤلمنى بذلك ، لأنه ليس فى استطاعتى أن اجزيك بعض أياديك . ولكن ثق أنى لك دائمـــا أخ من الذين لم تلدهم أمك ، وانى لك دائما سيف ان ضربت به قطعت ، وان امرتنى أطعت ..

ولا أنسى فى الختام أن أرفـــع لسيدتى أم جعفر ســـلامى واحترامى . وشكرى للطفها معى . أدامكما الله للخيال مثال ، وفى السعادة أمثال .

أخـــوك

عبد الرحيم محمود

سلم على يوسف الذى ما فيه من الحسن الا ...(٥) .

* * *

واذا نظرنا الى مضمون الرسالة ، وما يعكسه من دلالات وجـــدنا أنها تنطق ـــ فى وضوح وصراحة ـــ بعمق الصلة بين عبد الرحيم محمود وأستاذه وصـــديقه ابراهيم طـــوقان :

١ ـــ فهو يصدر الرسالة باعترافه بأهم تأثيرات ابراهيم طوقان فيه ، وهـــو « التأثير الأدبى » أو « التأثير الفنى الجمالى » ، وهـــو اعتراف صريح بتأثره فى شعره بابراهيم طوقان ، وتشجيعه له فى غنه ايام البدايات ... أيام أن كان يروض جناحه ليرفرف ... أيام أن كان يدفعه مشجعا ليتقدم .

٢ ـــ وهـــو يعترف بالفضل المـــادى لابراهيم ، وهـــو بالقطع مبلغ من المـــال أو شىء له قيمة مالية ويتعلق بالمعاش كطعام أو لباس أو ما شابه ذلك . ونستبعد ... بل نقطع أنه لم يكن كتابا أو قصيدة أو شيئا من هـــذا القبيل ، ولو كان كذلك « لقرظه » عبد الرحيم صراحة دون التعبير عنه بقوله (ما بعثت) ولمـــا قال « أنت تخجلنى بما تصنع معى من معروف . ويؤيد ما ذهبنا اليه قول أم جعفر ـــ زوجة ابراهيم طوقان ـــ « كان زوجى يكرمه ، ويقـــدره ويقـــدم له يد العون ... »(٦) .

---

(٥) يوسف هـو شقيق ابراهيم طوقان وقـد أشار ناشر الرسالة الى ان المحذوف : فكاهه طريفة جـدا وهى خاصة لا تدخل فى نطاق البحث . نافع عبد الله ١٨٩ .

(٦) من حـديث لهـا مع فانع عبد الله فى منزلها بنابلس فى ١٩٧٣/٦/٣ . أنظر كتابه ٦١ .

٣ — ويفهم مما سبق كذلك ان هـذا العون أو ذاك الاحسان كان يتكرر على فترات زمنية مختلفة ،فهو عـون جـار لا ينقطع ، يدل على ذلك تعبير عبد الرحيم بالفعل المضارع . تخجلنى — تقيدنى — تؤلمنى . وكذلك قوله « ليس فى استطاعتى أن اجزيك بعض أياديك » . فهى اذن أياد لايد واحدة .

٤ — وعلى الرغم من عبارات التوقير والتعظيم والاجـلال والاعتراف بالأيادى والأفضال نرى عبد الرحيم يخاطب أستاذه مخاطبة النـد للنـد بلا تحفظ ولا « كلفة » كما يقولون ، فهو يبدأ الرسالة بهذا النداء « اخى الحبيب » ويوقعها تحت كلمة « اخـوك » ... ويقول فيها ولكن ثق اننى دائمـا لك أخ وكذلك رفـع سـلامه واحترامه الى « أم جعفر » ، واخيرا تذييله الرسـالة بفكاهة طريفة — ويظهر أنها لاذعة وموضوعها يوسف شقيق ابراهيم طوقان .

ولكن الغريب جـدا أن نلتقى فى الرسـالة بعبارات تعـد ادخـل فى باب الغزل مثل : انت ايها المخلوق الجميل . وانت أيها الساحر اللذيذ » ولكن هـذه العبارات من جانب آخرتدلعلى ان عبد الرحيم كان يتحـدث الى صـديقه واسـتاذه متحررا .. مسترسلا دون تكلف أو تصنع او شـعور بالحرج أو الاحتراس فى التعبير .

* * *

ويهمنا اكثر من كل أولئك أن ننظر الى الرسالة نظرة فنية لنرى ما فيها من ملامح الجمال . وفىايجاز نقول ان الرسـالة « قطعة فنية » من الأدب جاد بها قلم الكاتب ، فهى تتدفق بعاطفة حارة من صـديق الى صـديق ، وقـد انعكست هـذه العاطفـة فى الفـاظ الرسالة وعباراتها التى تنم فى صـدق على هـذا الحب وذاك الاعتزاز « ... وحياتك ... وصلنى أى أستاذى ... لن انساها ... ولن انسـاك .. » .

وفى الرسـالة — وهـو أجمل ما فيها — سمتان لا يخطئهما النظر : براعة التصوير ، ورشاقة الألفاظ وقـوة ايحائها : فخيال الكاتب يتمتع بالجمـال وقـوة الأسر على الرغم من بساطته وقربه وتبرئه من الابعـاد والاغراب ، ومن ذلك :

ـــ فقـــد كنت أول من غرس فى روحى تذوق الجمال .
ـــ أيام ان كنت تروض جناحى لأرفرف .
ـــ ولك صورتان : صورة يلذ بها بصرى . وأخرى تقر بها بصيرتى .

ويعبر الشاعر الكاتب عن المعانى والخواطر النفسية تعبيرا مجسدا مكثفــا فى صورة حركية رائعـــة « وكنت وأنا اليقظان كالولهـــان فأتحسسك وأتلمسك لأزيل الشك باليقين » وكأنى بعبد الرحيم لم ينفصل عن البحترى حين رأى لوحــــة رائعة فى ايوان كسرى تمثل المحاربين فى معركة عاتية فقال :

يغتلى فيهم ارتيـــــابى حتى تتقـــــراهم يداى بلمس

ويعبر عبد الرحيم عن فرط طاعته لصاحبه واستجابته له فى هـــــذه الصورة « وانى لك دائما سيف ان ضربت به قطعت ، وان اردتنى أطعت . . » . ولعل هـــذه الصورة من بصمات القـــديم أيضا ، فعمر بن الخطاب ـــ رضى الله عنه ـــ يعبر عن مكانه من رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ واخلاصه العملى له بقوله « . . . . وكنت بين يديه كالسيف المسلول الا ان يغمدنى او ينهانى فأكف عنه »[7] .

ان هـــذه الرسالة فى اسلوبها المرسل . وكلماتها الرشيقة ، وعباراتها المنسابة فى خفة وتدفق ، وخيالها البارع الجميل ـــ على قرب مأخـــذه ـــ كل أولئك يجعل منها عملا فنيا اقرب الى روح الشعر من بعض قصائد عبد الرحيم نفسه . ولو أنه استرسل فى هـــذا الفن على نحو مطرد على هـــذه الوتيرة لأحيا فن « الرســـالة الشخصية » بعـــد أن مات أو كـــاد يموت فى الأدب العـــربى[8] .

مقـــالة نقـــدية :

أما مقاله النقـــدى الذى نشر نافع عبد الله اغلبه نقلا عن أصــــل مخطوط فله قصة خلاصتها أن خليل سكاكينى نشر مقالا فى مجـــلة الأديب

(٧) عبقرية عمر ص ٨٥ .

(٨) ننبه القارىء الى أن فى ختام الرسالة خطئين نحـويين اذ يقول : « ادامكما الله للخيال مثال ، وفى السعادة امثال » . والصحيح مثالا ـ أمثالا ..

البيروتية فى آذار ١٩٤٦ عن الشعر وخصائصه والمكانة الشعرية لابراهيم طوقان ، فهاجمه الشاعر مصطفى الدباغ بمقال فى صحيفة « الحرية » اليافية ، وهاجم المقال ابراهيم طوقان ، ونقـد قصيدته « يا رجال البلاد »(٩) . ونزل المعركة الشاعر كمال بطرس ناصر ، وهاجم ابراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود بشدة . فاضطر عبد الرحيم من باب الوفاء الى كتابة رد ضاف يذب فيه عن نفسه وعن أستاذه الذى كان آنذاك بين يدى الله(١٠) .

وسنحاول فى ضوء هـذا المقـال اليتيم أن نتبين امكانة عبد الرحيم النقـدية ، ومنهجه وملامحه فى النقـد . واذا كنا نؤمن ان المقال الواحـد أو العمل الواحـد يصعب ان نستخلص منه فلسفة نقـدية لصاحبه فالذى لا شك فيه أنه يمكن ان يقـودنا الى بعض مناحى الكاتب وبعض الملامح التى تصلح أن تكون أسسا يرتكز عليها فى اتجاهه النقـدى . وأهم ما يمكن استخلاصه من سمات وملامح وقيم نقـدية وادبيـة فى مقـال عبد الرحيم ما يأتى :

— غلبة الحماسة والروح الخطابية ، فالكاتب يستخدم جملا وعبارات ذات نبرة عالية جـدا ، والتكرار اللفظى وسيلة من وسائله التى تصخب بهـا هـذه النبرة الخطابية كما نرى فى العبارات الآتية :

— ومصطفى الدباغ رجل جرىء ، ومن جرأته هـذا الهجوم الكاسح على الشعر الفلسطينى .

— والأستاذ الدباغ جرىء جـدا لأنه يهاجم جيش الشعراء أوحـديا ويلوى بهم أيمـا الواء ...

— والأستاذ الدباغ جرىء لأنه أول ما تناول شاعرا علما ...

— وهو جرىء جدا لأنه تناول فى مقاله أديبا كبيرا جدا وهو السكاكينى .. ».

وهـذه النبرة العالية قـد يكون لهـا تأثيرها فى الخطابة أو شـعر

(٩) ديوان ابراهيم طوقان ٥٨ .

(١٠) أنظر نافع : الشاعر عبد الرحيم محمود ٦٤ .

الحماسة ، ولكنها تفقد هـذا التأثير — ولا شك — فى مقال نقدى من المفروض أن يعتمد على التأنى والمنطق الهادىء والمناقشة المنتجة . على أن وصف الكاتب — أى كاتب — بالجرأة لأنه هاجم شعرا أو شاعرا كبيرا أو كاتبا فـذا مسألة فيها نظر ،ولم تكن تحتاج من عبد الرحيم هـذه الوقفات الطويلة التى استغرقت أكثر من صفحة .

وقـد اثار عبد الرحيم فى مقاله هـذا عـددا من القضايا النقـدية ، وناقش هـذه القضايا فى أثناء دفاعـه عن استاذه ابراهيم طوقان .

وأهم هـذه القضايا ثلاث :

الأولى : اقليمية الأدب[11] .

والثانية : النظرة الشمولية للنص الأدبى .

والثالثة : فحولة الشاعر وعلاقتها بتعـدد الأغراض الشعرية .

* * *

---

(١١) كان أمين الخولى (١٨٩٥ – ١٩٦٦) رحمه الله هـو أقـوى وأشهر من تبنى الدعوة الى « اقليمية الأدب » وذلك فى كتابه عن « الأدب المصرى » ، وتتلخص فكرته وفكرة من دعـا هـذه الدعـوة فى أن لكل بيئة منفردة مزاياها وخصائصها التى تنفرد بها عن الأقاليم الأخرى وتلك المزايا والخصائص هى التى توجـه الحياة الأدبية فيها وتؤثر فى سيرها ، وباختلاف هـذه المميزات المـادية والمعنوية تختلف حياة الأقاليم الأدبية . ويتخـذ الأستاذ الخولى سبيله الى المقارنة بين صنيع المؤرخين فى الحياة الفكرية وبين صنيعهم فى الحياة الفنية فيرى أننا فى الحياة الفكرية نسجل خلاف الأقاليم فى ألوان الرأى وأنواع الفلسفة ومختلف العقائد ، ثم لا نحاول أن نسجل كل هـذا الخلاف فى الحياة الفنية ، وهى أقرب الى التغيير وأدنى الى المخالفة .

ومن ثم كان على مؤرخى الأدب – كما يرى الأستاذ الخولى – أن يعـدلوا عن توزيع دراسة الأدب العربى الاسلامى على عصور زمنية ، وأن يقـدروا الأثر القـوى لكل بيئة فيها أدب عربى ، وأن يتسعوا هـذا الأثر بالتدريس المستقل ، وأن يدرسوا العربية فى المواطن التى نزلتها موطنا موطنا ، فيكون أساس التقسيم هـو اختلاف البيئة وتغـايرها ، ووحـدة المؤثرات المـادية والمعنوية فيها – وان لم يسر ذلك مـع التقسيم السياسى أو المتعـارف عليه للأقطـار والبلدان – بأن تفرد كل بيئة متجانسة بدرس خاص لا كل قطعة من الزمن ببحث .

[أنظر كتاب أمين الخولى : الى الأدب المصرى . وأنظر عرض النظرية ومناقشتها فى كتاب شكرى فيصل : مناهج الدراسة الأدبية فى الأدب العربى . وخصوصا الصفحات ٦١ –٦٥ . والصفحات ١٧٨ – ٢٢٠] .وأنظر كذلك أنور الجندى : أضواء على الأدب العربي المعـاصر ٢٥٢ – ٢٥٥ .

وبتصـــدى عبد الرحيم لـــا ذهب اليه الدباغ من ان « لكل قطر أدبا وشعرا » ولكن عبد الرحيم لم يرتكز فى تصديه على قيم نقـــدية أو استقراء تاريخى سليم لنقض دعـــوى الدباغ او ادعـــائه ، انما استعان بالشعارات والمبادىء والنداءات السياسية الدائرة فى المنطقة آنذاك ، ويرى أن ما ذهب اليه الدباغ يمثل وجهة استعمارية فيقول :

« ... ونحن نقول بالوحـــدة ، وحـــدة البلاد ، ونبنى ذلك على وحدة اللغة ووحـــدة أدبهـــا . وانه من الانفصاليـــة بمكان — والانفصاليـــة بنت الاستعمار — أن ندعـــو الى الاعتقاد أن لكل بلد أدبا خاصـــا ، فأبو نواس البغـــدادى أو البصرى هـــو ملك لـــكل العرب ، وشوقى المصرى ملك لـــكل العرب ، وانتاجه تراث العرب كلهم ليس لمصرى فيه نصيب أكثر من كويتى ولا حضرموتى ولا عسيرى .... » .

ومناقشة القضية بهـــذه الحماسة وتلك الحـــدة لا يجـــدى نفعا ، فانكار « الاقليمية » تماما كالقول « بالوحـــدة الأدبية » دون تميز ، كلاهما غالط . والصواب الذى يشهد به وله ما بين أيدينا من آثار أدبية هـــو ان الأدب العربى فيه من الخصائص العامة والقسائم المشتركة ما لا يستطيع أحد ان ينكره . وكذلك فيه ملامح فارقة ، وسمات مميزة هى من فعل « الاقليم » أو البيئة المكانية التى نشأ فيها هـــذا الأدب ، ولننظر الى قصائد وصـــف الطبيعة عند شاعر كذى الرمة وشاعر كابن زيدون او ابن خفاجة الأندلسى ، بل لننظر الى الشاعر الواحـــد مثل البارودى لنرى الفارق بين ما نظمه فى مصر وما نظمه فى سرنديب ، وشاعر مثل شوقى لنرى الفارق بين شعره فى مصر وشعره فى الأندلس ، وشعراء الشام فى المهجر وكيف كان لشعرهم من السمات والملامح التى اكتسبوها من الحياة الجـــديدة والشعور الحاد بالغربة فى المهاجر الشمالى والمهاجر الجنوبى .

* * *

ويؤمن عبد الرحيم بأن النقـــد السديد لا يكون الا « **بالنظرة الشمولية للنص** » . فيأخـــذ على الدباغ أنه « حين يريد أن يستشهد يلجأ الى اضعف شعر الشاعر ، أو ما يخاله كذلك ، ولا يزال يرى الضعف ويهوله ويكبره حتى يصل الى ما يصبو اليه من املاء راى واحقاق باطل » .

ومن مظاهر انعـــدام هـــذه النظرة الشمولية كذلك « التغاضى عن كل قصيد للشاعر يجمع القـــوة والمتـــانة والمعنى الرائع » . ومن مظاهر ذلك « ان يحكم على قصيدة كاملة ببيت فيها كمن يحكم على القصر الفخم بحجر واحـــد منـــه » .

ويخلص عبد الرحيم من كل ذلك الى أن الناقـــد العـــدل يجب عليه ـــ حينما ينظر الى القصيدة ـــ أن يراعى مدى ما تتمتع به من « **الانســـجام والوحـــدة** » وأن ينظر « **نظرة اجمالية الى المعانى والأغراض** » .

هـــذا ما يمكن أن يفهم ويستخلص من كلام عبد الرحيم . اقول هذا لأن فى بعض عباراته لونا من الاضطراب الذى قـــد يسىء الى هـــــذا المفهوم كقوله : « ... **والحق المعروف بين النقاد الفاضلين أن يحكم للأديب أو للشاعر باحسن ما عنده ، لا باسوا ما عنده** » . وهـــو قول ينقض ما دعـــا اليه عبد الرحيم من « النظرة الشمولية » التى تقيم الأديب اعتمادا على كل انتاجه . وهـــذا القول لم يقل به أحـــد من « النقاد الفاضلين » لا فى القـــديم ولا فى الحـــديث ، ولكنها حماسة عبد الرحيم لأستاذه وصديقه .

* * *

أما القضية الثالثة التى ناقشها عبد الرحيم فهى قضية يمكن أن تطرح فى السؤال التالى : هل ترتبط فحولة الشاعرية وجلالها بعـــدد الأغراض التى ينظم فيها الشاعر ؟ أو بتعبير آخر : الا يكون الشاعر شاعرا عظيما الا اذا نظم فى كل الأغراض الشعرية أو أغلبها ؟

لقـــد ثارت هـــذه القضية فى سياق هجوم الدباغ على ابراهيم طوقان بمقولة ان ابراهيم لم ينظم الشعر فى شتى الأغراض . وكان عبد الرحيم محمود موفقا هـــذه المرة كل التوفيق فى الرد على الدباغ ، فقـــد قرر قاعدة صحيحة وأيدها من واقع التاريخ الأدبى : « فعـــدم نظم الشاعر فى شتى الأغراض ليس دليلا على ضعف الشاعرية ، وانا نجـــد فى الشعراء ، وفى مقـــدمى الشعراء من اختص بغرض واحـــد . فزهير مثلا مختص بالحكمـــة

والمدح . والأعشى بالهجاء والمدح ، وعمر بن أبى ربيعة بالغزل ، ولكن كل هـذا لم يزر بشاعرياتهم جميعا ، ولم يقـل انسان انهم غير شعراء ، بل اخـذ ما قالوا كمنوان لمـا حواه الغرض من أقوال فيه » .

ولكن عبد الرحيم خـانه التوفيـق حينمـا اراد أن يثبت ان ابراهيم طـوقان ضرب بسـهم فى شتى الأغراض الشـعرية ، ولنقرأ عبـاراته « .. **ومـع هـذا فابراهيم لم يكن مجـدبا بناحية من النواحى الشعرية ، فلديه الوصف و « الحبشى الذبيح »[12] و « الراعى »[13] وغيرهما دليل قاطع مانع انه كان وصافا ووصافا ماهرا** » .

وأعتقد أن عبد الرحيم لم يسعفه التمثيل بأسماء قصائد لابراهيم حين أراد أن يثبت أنه نظم فى شتى الأغراض ، فديوان ابراهيم لم يكن بين يديه[14] آنذاك ، ولو كان الديوان — أو اصوله المخطوطة بين يديه لعرف ان ابراهيم طوقان لم يكن « وصافا » فحسب حتى لو ادعى عبد الرحيم **أن الشعر ذاته والشعر كله وصف حسب أصول النقـد** » . فابراهيم طوقان لم يترك غرضا من الأغراض الشعرية الا ونظم فيه ، فله فى الوصف والوطنيات والغزل والمدح والرثاء والأناشيد وله شعر قصصى وشعر رمزى .

❋ ❋ ❋

ويتعقب عبد الرحيم النقود « الجزئية » فى مقال مصطفى الدباغ ويحاول أن ينقضها . فالدباغ ينقـد البيتين التاليين من قصيدة « يا رجال البـلاد » :

عرف النـاس والمنـابر والأقـلام أفضـالكم فهـاتوا سـواها
كان أولى لكم لو ان مع القو ل فعـالا محمـودة عقبـاها

(١٢) ديوان ابراهيم ١٤٦ .

(١٣) ليس فى ديوان ابراهيم قصيدة بهـذا الاسم ، وربما كانت من القصائد التى حذفها ابراهيم من أصول ديوانه الذى اشرف على ترتيبه وتنقيحه وحـذف بعض قصائده بنفسه (انظر ص ٩ من تقـديم شقيقه احمد لديوانه) .

(١٤) نشر الديوان فى طبعته الأولى سنة ١٩٥٥ . وبين ايدينا طبعة ١٩٨٤ ومكتوب عليها الطبعة الأولى ايضا .

ويأخذ الدباغ على البيتين ما يأتى :

١ — أنهما بيتان باردان لا تأثير فيهما .

٢ — أن بهما بعض الألفاظ التى فقدت ايحاءاتها لابتذالها ودورانها على ألسنة العامة .

وخلاصة رد عبد الرحيم محمود :

١ — أن الدباغ تجنى على القصيدة وظلمها اذ انتزع منها هذين البيتين انتزاعا ، فهما جزء فى كل ، وعضو فى بدن ، ومن ثم كان يجب النظر الى القصيدة ككل واحد لا يتجزأ .

٢ — ومع هذا الخطأ المنهجى فى النقد فقد ظل للبيتين معناهما وقوتهما وقدرتهما على السخرية المرة من هؤلاء الزعماء .

٣ — وما يرى الدباغ أنه مبتذل يدور على السنة العامة ومن ثم لا يجوز استعماله فى الشعر . مثل هذا المذهب مرفوض لأن استعمال العامة للكلمة العربية لا يخرجها عن عربيتها .. وكلمة « **أفضالكم** » بالذات أدل على السخرية من هؤلاء القادة والزعماء الزائفين من غيرها . أما تعبير « **أولى لكم** » فليس هناك ما يعيبه ، فهى تعبير قرآنى ، فقد قال الله فى سورة محمد « **فأولى لهم طاعة وقول معروف** » ، وقال تعالى — فى سورة القيامة — « **اولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى** »(١٥) .

* * *

(١٥) يقول نافع عبد الله « أخطأ (عبد الرحيم) فى فهم الآيتين القرآنيتين » أولى لك فاولى ، ثم اولى لك فاولى « اللتين استشهد بهما فى دفاعه عن البيت الذى عابه الدباغ . لأن معنى « أولى » فى هاتين الآيتين يدل على التهديد والوعيد من الله للكافر به المتبختر فى مشيته . بينما هى (أى أولى) فى البيت السابق بمعنى أحق أو أجدر أو نحو ذلك » الشاعر عبد الرحيم محمود ٦٦ .

الآيتان جاءتا حقا فى التهديد والوعيد ، وعلى هذا المعنى شبه اجماع فى كتب التفسير ، ولكنى أرى أن عبد الرحيم لم يخطىء لأنه يعنى صحة استعمال التعبير حتى لو كان ذا معنى مختلف . كما أن « نافع » أغفل استشهاد عبد الرحيم بآية سورة محمد وفيها استعمل التعبير بنفس المعنى الذى أراده ابراهيم طوقان ، وهو « أحق وأجدر وأحرى » .

وفى تضاعيف هـذا النقـد لا نعـدم لعبد الرحيم صـورا خياليـه بارعة ، وطابعه الفنى الشاعرى يلازمه ايضا فى هـذا المقـام ، ونجتزىء بصورتين من هـذه الصور :

— « ولكن رأيى أن انتزاع هـذين البيتين المسكينين من قطيعهما تجن وظلم ، كمن ينزع الابتسامة من فم « الجوكندة » ، ويقول انظر . ما ابشع فم الصـورة !!!

— وكمن ينزع المسيح من حضن أمه فى الصورة ، ويقول : انظر ما أنقص الصـورة !!!

وكم كنا نتمنى أن يكون بين أيدينا عـدة مقالات نقـدية حتى يكون حكمنا وتقييمنا لشخصيته كاتبا وناقـدا سليما سديدا ، ولكن فى ضـوء هـذا المقال اليتيم يمكن ان نقول ان قـدرة عبد الرحيم النقـدية لا ترقى الى مستوى موهبته الشعرية وهـذا لا ينقص من قـدر عبد الرحيم فهـو شـاعر قبـل كل شىء .

* * *

وبعـد هـذه الوقفة التقييمية مع نثره لنا فى الصفحات الآتية وقفات نقـدية طويلة مع شعره .. وهـو اساس هـذا البحـث وقطب رحـاه بادئين ببيان مراحله الأدبية ثم حظه من الاتباع والتقليد .

مرحلتـــان متميزتان

حياة الشاعر — اى شاعر — مثل النهر المتدفق المنساب : أولـــه موصول بآخره مهما كان البعـــد شاسعا بين الأول والآخر ... بين نقطة البداية ونقطة النهاية ، ولكن هـــذه الصلة وذاك الامتزاج لا يمنعان أن يكون من النهر جزء أكثر تدفقا وتجـــددا وحيوية من جزء آخر ... والنهر هـــو النهر ... واحـــد فى كل .. او كل فى واحـــد .

والشاعر — أى شاعر — يتأثر شعره على مدار مسيرته الفنية .. بعوامل متعـــددة ومتشابكة ، منها ما يرجع الى شخصية الشاعر : كتطور خبراته ، وازدياد ثقافته وقراءاته — وتحـــديد موقفه الفكرى من المجتمع والناس . ومنها ما يرجع الى المجتمع ، وطبيعة الأحـــداث التى تمر به توهجا وتسعرا أو همودا وخمودا ، وطبيعة العلائق التى تربط الشاعر بالمجتمع الذى يعيش فيه . كل اولئك يشكل التجربة الشعورية ويؤثر فيها ، وغالبا ما تكون بداية مرحلة معينة فى مسيرة الشاعر الفنية حـــدثا مهما فى حياة الشاعر نفسه ، فعودة أبى العلاء المعرى (٣٦٣ — ٤٤٩ هـ) الى معرة النعمان من رحلته المنكودة المنكوسة الى بغـــداد وموت أمه وهـــو عائد الى بلده كان بداية مرحلة جـــديدة فى حياة الشاعر وفنه ، فقـــد اعتزل المجتمعات وأصبح « رهين المحبسين » ، واتسم شعره بسمات فلسفية فيها عمق وتأمل وآراء ناضجة فى الحكم والحكام وخلائق الناس وطبائعهم .فكانت « خيبة امله » فى بغـــداد هى البداية الحقيقية لميلاد « الفيلسوف » ابى العلاء ، وأجزل العطاء للشعر العربى والفكر الانسانى باللزوميات ورسالة الغفران وغيرهما[١٦] .

وما يقال عن أبى العلاء المعرى يقال عن شوقى ، فقد كان نفيه الى الأندلس نعمة كبرى للشعر العربى ، فقـــد بدأت بنفيه مرحلة فنية جـــديدة فى حياته رأينا فيها شوقى « شاعرا فياضا بالحنين الى مصر وأهله وذكرياته بها ، وفى الأندلس رأى آثار مدنية العرب الغابرة ، فكان شعره الاسلامى

---

(١٦) انظر : دائرة المعارف الاسلامية المجلد الأول ٥٤٨ — ٥٥١ .

هـــو شعر الحنين والذكرى لمجـــد المسلمين »[١٧] ومن الناحية الفنية ازداد أسلوبه ارتقاء وخياله خصوبة بعـــد أن زاد اطلاعه وخصبت تجاربه ..

❋ ❋ ❋

ولكن علينا — بادىء ذى بدء — أن نضع نصب عيوننا — ونحن نعالج المسيرة الفنية للشاعر — الحقائق الثلاث الآتية :

الحقيقة الأولى : أن تقسيم المسيرة الفنية الى مراحل لا يعنى الانفصال الحاد بين المراحل المختلفة ، لأن هـــذه المسيرة — كما قلت — تشبه النهر أوله موصول بآخره ، كما أن الفوارق بين هـــذه المراحل كثيرا ما تكون فوارق فى الدرجة لا فوارق فى النوع .

والحقيقة الثانية : أن انتقال الشاعر من مرحلة الى مرحلة لا يتم طفرة فى يوم وليلة ، وانما يتم بالتدريج ، وعلى مدى ليس بالقصير ، وهـــذا يجعلنا نؤكد أن الفصل الحاد بين المراحل الفنية فى حياة الشاعر يخالف طبيعة الأشياء وواقعهـــــا .

أما الحقيقة الثالثة : فهى أن المرحلة الواحـــدة لا تعنى خطا فنيا واحدا لا عوج فيه ولا تعرج ولا نتوء ، بل غالبا ما نرى « المرحلة الفنية الواحـــدة » لا تخلو من تفاوت أو اختلاف فى المستوى الفنى للشاعر ، حتى ليعتقد الباحث أنه يتعامل مع مرحلة أخرى . وهـــذه الحقيقة تؤكد بدهية من البدهيات مؤداها أن « التقسيم المرحلى » لفن الشاعر انما تم على أساس « التغليب » لا على أساس « الاطـــلاق » ، بمعنى ان « المرحلة » تمثل « فترة زمنية متميزة » بما « يغلب » عليها من صفات وملامح لا تتوفر كلها أو أغلبها لفترة سابقة او لاحقـــــه .

❋ ❋ ❋

---

(١٧) ماهر حسن فهمى ، شوقى شعره الاسلامى ١٩٢ .

وفى ضـــوء هـــذه الملاحظات أو هـــذه الحقـــائق نستطيع أن نقسم « المسيرة الفنية » لعبد الرحيم محمود الى مرحلتين متميزتين :

المرحلة الأولى : وتستغرق سنوات ما قبل خروجه الى العراق اى من بداياته الشعرية فى سنة ١٩٣٠ او ١٩٣٥ الى سنة ١٩٣٨ .

المرحلة الثانية : وتبدأ من سنة خروجه طريدا الى العراق ، وتمتد الى أن لقى ربه شهيدا فى معركة الشجرة سنة ١٩٤٨ . وسنحاول أن نتعرف كل مرحلة بسماتها وخصائصها العامة فى ايجاز .

المرحـلة الأولى

استغرقت هـــذه المرحلة من حياة عبد الرحيم سنتى الطلب اللتين قضاهما فى كلية النجاح حيث كان لقاؤه بأستاذه الشاعر العظيم ابراهيم طوقان الذى شجعه وايده وسعد به ، ثم سنوات عمله الأولى شرطيا ثم معلما فى كلية النجاح ، ثم نضاله المسلح بعـــد أن قامت الثورة الفلسطينية الكبرى سنة ١٩٣٦ بعـــد استشهاد عز الدين القسام سنة ١٩٣٥ . وقـــد ذكرنا فى الفصل الثانى من هـــذا الكتاب أننا لا نستبعد اسهامه فى العمـــل الوطنى السرى فى تنظيم « اليد السوداء » بقيادة عز الدين القسام أثناء عمله شرطيا فى حكومة الانتداب .

وكل ما ذكرناه يمثل ألوانا من العيش والعمل والحياة لم تنفصل فى واحـــد منهـــا عن الهـــدف الوطنى ؛ فقـــد عرفنا من قبل أن كلية النجـــاح كانت معهدا لتربية الطلاب على روح الوطنية والتضحية والفـــداء بجانب العلوم التقليدية المعروفة . وقـــد تلقى عبد الرحيم هـــذه القيم طالبـــا ، ولقنها طلابه معلما ، وعاش يؤمن أن ميدان التعليم لا يقـــل أهمية عن ساحة النضال المسلح . **واهم ما جاءت به قريحته من قصائد فى هـــذه المرحلة :**

١ ـــ وعـــد بلفـــور ـــ ١٩٣٥ ـــ ١٥ بيتا (الديوان ١٢٥)

٢ ـــ وعـــد بلفـــور ـــ ١٩٣٥ ـــ ١٩ بيتا (الديوان ١٢٦)

٣ — شعب فلسطين — ١٩٣٦ — ٢٢ بيتا (الديوان ١٢٨)
٤ — الى كل متهاود — ١٩٣٦ — ٨ أبيات (الديوان ١٢٩)
٥ — طوفان سوريا — ١٩٣٧ — ٣٣ بيتا (جرار ٢٨٠)
٦ — نفس الشريف — ١٩٣٨ — ٣ أبيات (الديوان ١٣٠)
٧ — الشهيد — ١٩٣٨ — ١٩ بيتا (الديوان ١٣١)
٨ — لعبــة — ١٩٣٨ — ٦ أبيات (الديوان ١٧٣)
٩ — راح الذى بيننا — ١٩٣٨ — ١٨ بيتا (الديوان ١٧٤)
١٠ — مخلوقة انت — ١٩٣٨ — ٢٠ بيتا (الديوان ١٧٦)
١١ — يا غزالا — ١٩٣٨ — ٤ أبيات (الديوان ١٧٨)
١٢ — بينى وبين قلبى — ١٩٣٨ — ١٢ بيتا (الديوان ١٧٩)
١٣ — جيش الحبائب — ١٩٣٨ — ١٤ بيتا (الديوان ١٨٠)
١٤ — كبرياء الحب — ١٩٣٨ — ١٣ بيتا (الديوان ١٨١)
١٥ — نجــوى المحتضرة — ١٩٣٨ — ٣٨ بيتا (الديوان ١٨٢)

وفى هــذه المرحلة نلاحظ ان شعر عبد الرحيم كان قليلا نسبيا ، فهو فى مجموعه لا يجاوز ثلاثمائة بيت ، كما نلاحظ كذلك أن عام ١٩٣٨ كان أعمر سنوات هــذه المرحلة بالشعر ، بل ان قرابة نصف شعر هــذه المرحــلة نظمه الشاعر ونشره فى هــذا العام .. عام ١٩٣٨ . **واهم ملامح شــــعر هــذه المرحــلة :**

١ — من الناحية الموضوعية كان هناك محوران رئيسيان يدور حــولهما شــعر هــذه المرحلة :

الأول هــو المحور الوطنى ... محور القضية الفلسطينية ، وما يتعلق بها من نضال وبطولات ، وما نسج حولها من مؤامرات . ومن ذلك قصائد : نجم السعود — وعد بلفور — شعب فلسطين — الى كل متهاود — الشهيد .

أما المحور الثانى : فهو المحور الذاتى الوجــدانى الذى دارت عليــه غزلياته وقصائده الغرامية ، مثل : لعبة — راح الذى بيننا — مخلوقة انت —

يا غزالا — بينى وبين قلبى — جيش الجبائب — كبرياء الحب — نجـوى المحتضرة .

وليس فى شعر هـذه الفترة ما يتجاوز الحـدود ، أى ما ينم على رؤية عربية للشاعر خارج نطاق « الوطنية المحلية » ، ذلك اذا استثنينا قصيدة « طوفان سوريا » التى نظمها الشاعر سنة ١٩٣٧ .

كما أن الشاعر لم ينفتح بشعره على الأفق الاجتماعى .. افق الشباب والعمال ، ولم يحلق فى الأفق الانسانى . أى أنه فى هـذه المرحلة رصـد شعره لوجـدانه الذاتى ولقضية وطنه فلسطين .

٣ — والشاعر قصير النفس فى أغلب قصائد هـذه المرحلة ، وبعضها كما نرى مقطوعات من ثلاثة أو اربعة أبيات ، ولم يطل نفس الشاعر الا فى قصائد قليلة جـدا لا تجاوز اصابع اليد الواحـدة عـدا .

٤ — ويغلب على قصائد هـذه المرحلة حـدة العاطفة والطابع الخطابى الصاخب ، وغالبا ما يكون هـذا فى قصائده الغزلية ، وذلك طبعا على حساب المضمون الفكرى وتوازن التجربة الشعرية . وقـد سبق لنا أن قلنا ان غزل عبد الرحيم فى مجموعة لا يقـدم لنا شخصية « العاشق المدنف » ... المحب الذى استغرقته قصة حب تشربت وجـدانه وعمقت رؤيته .

هـذا وان كنا لا ننكر أن بعض قصائد هـذه المرحلة يرقى الى مستوى فكرى وفنى رفيع مثل قصيدته « نجم السعود » . وقصيدة « الشهيد » .

٥ — وهناك ظاهرة فنية عروضية فى شعر هـذه المرحلة ، وهى كثرة « التدوير »[18] فى قصائده كقصيدة « شعب فلسطين »[19] اذ لم يبرأ من

---

(١٨) التدوير هـو استكمال الكلمة فى الشطر الثانى من البيت استجابة لمقتضيات الـوزن .

(١٩) انظر القصيدة فى الديوان ١٢٨ (وهى ٢٢ بيتا) . وقـد نشرها وليـد جرار فى كتابه « شاعران من جبل النار » ٢٤٧ (٢٤ بيتا) .

التدوير فيها الا بيتان ، ولا تخلو قصيدة واحـــدة من التدوير بصورة لافتـــه للنظـــر .

وربما كان مرجع ذلك الى محـــدودية « المعجم الشعرى » لعبد الرحيم فى هـــذه الفترة ، فلم تكن ثروته اللغوية آنذاك تسعفه بالكلمة التى تطـــابق التفعيلة ، وتستغرق حروفها بانتهاء الشطر الأول .

والتدوير فى ذاته لا يعـــد عيبا عروضيا ، ولكن العيب فى الاغراق فيه ، لأنه يحرم القارىء الوقيفة القصيرة مع نغمة الشطر مع تمام الكلمة . ومن ثم لا يستساغ هـــذا التدوير الذى يشغل أغلب القصيدة .

٦ — وملامح التقليد ظاهرة فى شكل القصيدة ، فالشاعر لم يخرج على الشكل الخليلى ، وان لجـــأ احيانا الى نظام المقطوعة . والتقليد والاتبـــاع واضح فى كثير من مضامينه الفكرية وأدائه التعبيرى ، وتشكيله التصويرى . وقـــد فصلنا بعضا من ذلك فى صفحات سابقات .

المرحـــلة الثانية

كان عام ١٩٣٩ عاما فاصلا فى تاريخ فلسطين والقضية الفلسطينية ، فقـــد عرفنا أن الثورة الفلسطينية الكبرى قـــد اشتعلت سنة ١٩٣٦ ، واستطاع أبناء فلسطين أن ينزلوا بالانجليز واليهود خسائر فادحة وهزائم نكراء ، وصاحب ذلك عصيان مدنى واضراب استمر لشهور طويلة ، ولم يوقف الفلسطينيون نضالهم المسلح الا بعـــد أن تدخل ملوك العرب وحكامهم ، ووجهوا نداء الى الشعب الفلسطينى بأنهم قـــد تألموا كثيرا للحالة السائدة فى فلسطين ، وانهم اتفقوا والأمير عبد الله على دعوتهم للاخلاد للسكينة حقنـــا للدماء معتمدين على حسن نوايا صديقتهم الحكومة البريطانية « ورغبتها المعلنة لتحقيق العـــدل »[٢٠] . وانخـــدع ملوك العرب بوعود بريطانيا ، وانخـــدع الفلسطينيون بوعود ملوك العرب ... ثم توالت النكبات .

---

(٢٠) انظر نمر الخطيب : احداث النكبة ١٦٥ .

كما كان هـــذا العام عاما فاصلا ومؤثرا فى حياة عبد الرحيم : فقـــد استشهد صـــديقه وقائده عبد الرحيم الحاج محمد أنقى وأتقى قائد كان فى الساحة الفلسطينية آنذاك . والثورة الفلسطينية لم تحقق ما استشرفته وما تطلعت اليه وان كان حبل النضال لم ينقطع على الرغم من ارتخائه . وبدأت حكومة الانتداب فى أثناء هـــذا الهدوء النسبى الذى ساد الأرض الفلسطينية بعد نداء الملوك والحكام العرب تطارد الأحرار والمناضلين، فتسلل عبد الرحيم لبلبنان الى دمشق ومنها الى بغـــداد . وها هى ذى القضية الفلسطينية تتسع دائرتها ، وتتعـــدد اطرافها وتأخـــذ بعـــدا عربيا وبعـــدا عالميا زيادة على البعـــد المحلى ، وبدأت بوادر نجاح التآمر على أرض فلسطين وشعبها تلوح فى الأفق بعـــد عرض التقسيم حلا للقضية .

كل اولئك — ولا شك — عمق احساس الشاعر بمأساة شعبه ، ومأساة ذاته انسانا يبحث عن الحـــق والعـــدل والأرض . ومع اتساع دائرة نظره باتساع دائرة القضية عاش الشاعر حيوات ثلاثا :

— حياة ادبية باختلاطه ومساجلاته مع الأدباء والشعراء من أمثال الرصافى والزهاوى والجواهرى وغيرهم .
— حياة علمية عملية فى مجال التدريس والتعليم والتربية .
— حياة عسكرية باستكمال ثقافته الحربية واشتراكه فى ثورة رشيد عالى الكيـــلانى ..

وبعـــد ثلاث سنوات عاد الى فلسطين لتكون حياته فيها امتدادا لطبيعة حياته فى الغربة .. عاد معلما يكافح بالكلمة والتوجيه ثم محاربا فى ســـبيل الوطن الى أن نال الشهادة التى ظل يسعى اليها طيلة حياته .

وفى هـــذه المرحلة التى امتدت قرابة عشر سنوات اتسم شعره بأبعاد وملامح جـــديدة تمثلت فيما يأتى :

١ — اتسعت دائرته الشعرية وغزر افرازه الشعرى الى حـــد بعيد ، وتنوعت موضوعاته فزيادة على شعره الوطنى الفلسطينى عالج الشاعر موضوعات جـــديدة لم يطرقها من قبل وأهم هـــذه الموضوعات :

(أ) الحنين الى الوطن والشعور الحاد بالغربة ، كما نرى فى قصيدتيه : حنين الى الوطن — وحجر فى كثبان رمل .

(ب) الاجتماعيات : مثل قصيدة الى العمال — وتمور البصرة .

(جـ) شعر القومية العربية ، فلم يعـد الشاعر محصور النظرة فى حدود الوطن الفلسطينى . فنظم عـددا من القصائد العربية مثل : ذكرى الجامعة العربية — ثورة دمشق — رثاء الملك غازى — يقظة النيل ... الخ .

(د) الانسانيات : وقـد دعا فيها الى القيم الانسانية العليا من عـدل وحـق ومحبة وأخـوة ومساواة مثل قصيدة : طريق الحياة — وقصيدة : ابو العلا المعرى — وقصيدة أنشودة التحرير .

(هـ) الاسلاميات : مثل : ذكرى الهجرة النبوية — كتاب أضاء دياجى الظلم — ليلة ذات فجرين — القرآن الكريم .

٢ — كما قل أو انعـدم فى شعره الغراميات أو الغزليات ، كأنما يرى أن المرحلة التى يعيشها وتعيشها أمته مرحلة جاده لا تتسع لمثل هذا الشعر .

٣ — أثرى معجمه الشعرى وزادت ذخيرته اللفظية . وقل فى شـعره الغريب ، وبد أكثر تمكنا من لغته وأسلوبه .

٤ — اصبح اطول نفسا من ذى قبل كما نرى فى قصيدتيه « الى العمال » و « أحابنى فى ذكرى وعـد بلفور » فقـد تجاوزت كل منهما السبعين بيتا .

٥ — انعكس فى شعره آثار لمقروءاته الحـديثة ، واستجابته لبعض التيارات الفنية السائدة فظهر فى بعض قصائده طوابع رومانسية وملامح رمزية وقصصية ، مما سنعرض له فيما بعـد .

* * *

وبعـد اجمال الملامح الفنية لهاتين المرحلتين نتعرف فى الصـفحات التالية حظ شعره من التقليد قبل أن نخلص الى عناصر شعره بالتفصيل .

بصمات التأثر والتقليد

يحضرنى فى هـــذا المقام كلمة احـــد العلماء الحكماء « أخبرنى ماذا تقرأ أخبرك من انت » . فالأديب « ابن مقروءاته » أن صح هـــذا التعبير . وما يقرؤه يؤثر فيه على نحو من الأنحاء — أراد أو لم يرد ، يؤثر فيه فكرا وأسلوبا وسلوكا . وهـــذا التأثير له وجوده وحضوره حتى لو تعمد أن يسلك سلوكا معاكسا مناقضا لمـــا قرأ ، « فالضدية » — كما يقول المناطقة علاقة من العـــلاقات .

وعبد الرحيم محمود كانت « مناهله الثقافية » عربية فى أغلبها كما ذكرنا من قبل . فقـــد قرأ الأدب العربى القـــديم : شعره ونثره ، كما كان يقرأ كثيرا مما تخرجه المطابع لا فى فلسطين فحسب ، بل فى الوطن العربى بأقطاره المختلفة[21] ، كما عرفنا من قبل أنه قرأ القرآن وحفظه حفظ فهم وادراك وايمان وكان لكل هـــذه المقروءات آثار وبصمات على شعره : فكرا وتصويرا وتعبيرا كما سنرى فى السطور الآتية :

أولا — القرآن الكريم :

ولا غرابه أن نجـــد بصمات القرآن الكريم فى شعره أوضح وأكثر من غيرها فذلك راجع لطبيعة نشأته فى بيت دين وفقه وعلم ، وعلاقته بصفوة

---

(٢١) نشرت له مجلة الرسالة القاهرية قسيدة « شعب فلسطين فى ١٩٣٦/٨/٣١ ، أما أغلب شعره فنشرته له مجلة « الأمالى » البيروتية الأسبوعية . وحين كتب العقاد فى احـدى المجـلات القاهرية مقالا عن « الوجود والحق » أبدى فيه تشاؤمه وشكه فى امكانية انتصار الحق هجاه الشاعر هجاء مرا فى قصيدة عنوانها : « جاهل يتعالم » [أنظر بعض أبياتها فى جرار ص ٣١٢] . وحينما يقرر المؤتمر النسوى المنعقد فى القاهرة سنة ١٩٤٤ « حـذف نون النسوة » مساواة بالرجل ، ونشر « عزيز فهمى » قصيدة فى « الرسالة » بهـذه المناسبة نظم عبد الرحيم قصيدة طـويلة عنوانها « نون النسوة الحزينة » . وكل ذلك يدل على متابعة الشاعر ما ينشر من أدب وما يدور من أحـداث خارج فلسطين .

من المتدينين الأنقياء الأنقياء من أمثال عز الدين القسام وعبد الرحيم الحـــاج محمد والشيخ محمود حنون . وطبيعة الاستعمار الصهيونى تستند الى أساس دينى — كما بينا فى الفصل الأول — وهو عـــدوان صارخ على مقـــدسات اسلامية حيث مسرى الرسول — صلى الله عليه وسلم . كل اولئك كان عوامل — منها الظاهر ومنها الخافى — لتأثر عبد الرحيم بالأسلوب القرآنى والكلمات الدينية فى شعره بعامة وشعر الحماسة والجهاد بخاصة . ومن الشـواهد الى اقتطفناها للتدليل على هـــذه الظاهرة ما يأتى :

١ — قوله عن الاستعمار الانجليزى فى قصيدته « وعـــد بلفـــور »[٢٢] :

لمـــا قضى وطرا بفضل سيوفنا نسى اليد البيضا ولم يتذكر[٢٣]

اقتبس بداية البيت من قوله تعـــالى « **فلمـــا قضى زيد منهـــا وطرا زوجناكهـــا ...** »[٢٤] .

٢ — وقوله فى قصيدته نداء الوطن :

ولا تجموا اذا اربدت ســـماء ولا تهنوا اذا ثارت بوادى[٢٥]

متأثرا بقوله تعالى « **ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الأعـــلون ان كنتم مؤمنين** »[٢٦] .

٣ — ونرى اثر قوله تعالى : « **واعتصموا بحبـــــل الله جميعـــــا ولا تفرقـــوا ..** »[٢٧] .

فى أكثر من موضع ، كما نرى فى الأبيات الآتية :

لقـــد اعتصمت بحبـــل حبـــ ـــك فاعتصم حبـــا بحبلى[٢٨]

(٢٢) الديوان ١٣٦ .
(٢٣) الديوان ١٣٦ .
(٢٤) الأحزاب ٣٧ .
(٢٥) الديوان ١٤٧ .
(٢٦) آل عمران ١٣٩ .
(٢٧) آل عمران ١٠٣ .
(٢٨) الديوان ١٨٦ .

وقال لنـــا اعتصموا يا عبـــا   د وليس سوى حبله معتصم[29]
لهم بالله والقـــرآن حبــــــل   به اعتصموا ولا يحتكيه حبل[30]

٤ — وقول الشاعر فى قصيدته (موت بطل)[31] .
ســـور قـــــد فصلت آياتهـــا   لم تزل تتلى على الدهر الأبيد

متأثر بقوله تعالى : « **كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون** »[32] .

٥ — ونرى أثر قوله تعالى : « ... **وخر موسى صعقا** .. »[33] .

وقوله تعالى : « **وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا** »[34] .
فى بيت الشاعر :
وهـــوى الباطـــل صـــــعقا   انـــه كـــان زهـــــوقا[35]

٦ — ويقول الشاعر :
« **واعـــــدوا** » **لم يقلهـــا ربكم   عبثا،فلتحسنوا فى الذكر نظره**[36]

وواضح أنه متأثر بقـــوله تعـــالى : « **واعـــدوا لهم ما استطعتم من قـــوة** ... »[37] .

٧ — ويقول الشاعر :
قال يا انسان لا تزهد ولكن   بين أخراك ودنياك قـــواما[38]

---

(٢٩) جرار : شاعران ٢٦٩ .
(٣٠) الســـابق ٢٧٣ .
(٣١) الديوان ١٣٤ .
(٣٢) فصـــلت ٣ .
(٣٣) الأعـــراف ١٤٣ .
(٣٤) الاسراء ٨١ .
(٣٥) الديوان ١٣٨ .
(٣٦) الديوان ١٥٠ .
(٣٧) الأنفـــال ٦٠ .
(٣٨) جرار ٢٧٠ .

وفيه أثر من قوله تعالى : « .. **وكان بين ذلك قواما ..** »[39] .

٨ — أما مضمون قوله تعالى : « **فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا** »[40] فقد الح عليه الشاعر أكثر من مرة وهـو يوازن بين الرعيل الأول فى صـدر الاسلام وعصور القوة والعزة وبين جيله الحاضر بما فيه من وهن وضعف بسبب اهمـال كتـاب الله واحكامه ، والتفريط فى ميراث الآباء والأجـداد :

وجاء وراءهم نسل أضاعـوا جنى أتعابهم فلبئس نسل[41]
وأتينـا نحـن من بعـدهم واضعنا ما جنوا طيشا وغره[42]

٩ — ويتأثر الشاعر كذلك بقوله تعالى : « **ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقـدامكم** »[43] .

فى قوله عن الرعيل الأول من المسلمين :
نصروا الله فلم يخـذلهمـو بل جزاهم ربهم فوزا ونصره[44]

***

ومن الكلمات القرآنية فى شعر عبد الرحيم : **الحرور[45] — الحور[46] — الجنة وسقر[47] — الفاسق[48] — حبل من مسد[49]** .

(٣٩) الفرقان ٦٧ .
(٤٠) مريم ٥٩ .
(٤١) جرار : ٢٧٤ .
(٤٢) الديوان ١٥١ .
(٤٣) محمـد ٧ .
(٤٤) الديوان ١٥٠ .
(٤٥) الديوان ١٦٦ وانظر سورة فاطر الآية ٢١ .
(٤٦) الديوان ١٣٢ . وانظر الدخان ٥٤ ، والطور ٢٠ والرحمن ٧٢ ، والواقعة ٢٢ .
(٤٧) الديوان ١٤٠ وانظر القمر ٤٨ والمدثر ٢٦ ، ٢٧ ، ٤٢ .
(٤٨) الديوان ١٦٣ . وانظر الفلق ٣ .
(٤٩) جرار : شاعران من جبل النار ٢٥٤ .

ويغص شعر الشاعر بكثير من الألفاظ والعبارات الدينية وخصوصا القصائد التى نظمها فى المناسبات الدينية ، وجاء ذلك نتيجة طبيعية — كما ذكرنا — بطبيعة نشأة الشاعر ، وطبيعة قراءاته واعتزازه بالدين وحفظه للقرآن حفظ محبة وتمسك والتزام ، زيادة على طبيعة الأغراض الشعرية التى يزيد جمالها وتأثيرها بتطعيمها بمثل هذه الكلمات من الدعوة الى الجهاد ، وتمجيد الأبطال ورثاء الشهداء واحياء ذكرى الأيام الاسلامية المتوهجة المنتصرة .

ثانيا — الأدب القديم :

وفى شعره من آثار الأدب العربى القديم كثير من الصور والعبارات والألفاظ فيقابلنا فى شعره اشارات وتلميحات الى الأمثال العربية القديمة كما ترى فى حديثه عن جيل الضعف والتفريط والضياع :

يدوس حرامهم طير بغـــاث ويقهرهم من الأقوام سفل(٥٠)

ففيه تلميح الى المثل العربى المشهور « **ان البغاث بأرضنا يستنسر** »(٥١)

ويقول الشاعر فى القادة والزعماء الذين شغلوا بأنفسهم عن قضية الوطن :

لعمرك ما نووا يوما صلاحا وهم فى الناس أشباه القرلى

والقرلى طائر شديد الحذر يضرب به المثل فى الأثره ، فيقال **كالقرلى ، ان رأى شرا تعلى ، وان رأى خيرا تدلى** »(٥٢) .

❋ ❋ ❋

ومعجم الشاعر غاص بالألفاظ التقليدية التى تدور فى الشعر القديم ، فيتردد فى شعره — وخصوصا شعر الحماسة — كثير من هذه الألفاظ ،

---

(٥٠) جرار السابق ٢٧٤ .

(٥١) مجمع الأمثال للميدانى ١٢/١ والبغاث ضرب من الطير صغير ضعيف . وذكر الميدانى أن هذا المثل يضرب للضعيف يصير قويا ، وللذليل يعز بعد الذل ، ولكن يجوز فى رأينا أن يعطى المثل عكس هذا المعنى ، فيدل على ضعف أصحاب الأرض وذلتهم . وهذا هو المعنى الذى قصد اليه الشاعر .

(٥٢) أنظر جرار : السابق ٢٥٢ .

ولننظر الى قصيدة واحـــدة هى قصيدة « وعـــد بلفـــور »(٥٣) لنرى الألفاظ الآتية : **الأسنة — القنـــا — السمهرى — الغوث — العتاق — الغضنفر — العجاج — النجيع — هصر .**

* * *

وكالشعراء القـــدامى يجنح الشاعر أحيانا الى افتتاح بعض قصائده بالغزل الصناعى كما نرى فى قصيدته « الى كل متهاود »(٥٤) التى يستهلها بقـــوله :

يا مــــن تــوله بالحبيب	**هناك قـــد رجـــع الحبيب**
لقـــد انتظــــرت ايابه	**شــوقا فها هـــو ذا يؤوب**
فى جيبه لعــــب الهــــوى	**يلهـــو بهـــا الصب اللعـــوب**

ثم يخلص من ذلك الى الحـــديث عن نكبة شعبه ، وتهافت وعـــود المســـــتعمرين .

* * *

وبصمات الشعر القـــديم واضحة جـــدا فى كثير من أبيات الشاعر ، ونجتزىء ببعضها أمثلة للتدليل على طوابعه التقليدية فى أدائه التعبيرى بصـــفة خاصـــة .

١ — يقـــول عبد الرحيم محمود :

وأحمى حياضى بحـــد الحسا	**م فيعلم قومى بانى لفتى(٥٥)**

---

(٥٣) الديوان ١٢٦ .

(٥٤) الديوان ١٢٩ .

(٥٥) الديوان ١٣١ .

ونحس فى هـذا البيت بروح الشاعر الجاهلى طرفه بن العبد اذ يقول :

اذا القوم قالوا من فتى خلت اننى عنيت فلم أكسل ولم اتبلـد[٥٦]

كذلك تنعكس فيه كلمات بيت زهير المشهور :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم[٥٧]

٢ ــ ويقول عبد الرحيم فى مجال الفخر :

وسـل الذى خضـع الهـوا ء لـه وذل لـه العباب[٥٨]

فيكاد يكرر نفس الفكرة التى عبر عنها عمرو بن كلثوم فى معلقته بقوله :

ملأنا البر حتى ضـاق عنـا ونحـن البحر نملؤه سفينا[٥٩]

ويقول عمرو بن كلثوم :

اذا ما الملك سام النـاس خسفا أبينـا أن نقر الـذل فينا[٦٠]

ويظهر أثره فى بيت عبد الرحيم التالى :

قـد أبينـا حـين شئتم أن نقـر الـذل فينا[٦١]

٣ ــ ويظهر تأثره ببشار فى أثر من موضع :يقول بشار :

كان مثار النقع فوق رءوسهم واسيافنا ليل تهاوى كواكبـه[٦٢]

فيقتبس عبد الرحيم الصورة نفسها فى قوله :

واذ السـيوف كأنهن كواكـب تهوى تلامع فى العجاج الأكدر[٦٣]

---

(٥٦) شرح المعلقات السبع للزوزنى ٥٧ ٠
(٥٧) السـابق ٨٨ ٠
(٥٨) الديوان ١٢٨ ٠
(٥٩) شرح المعلقات السبع ١٣٥ ٠
(٦٠) شرح المعلقات السبع السابق ٠
(٦١) الديوان ١٣٨ ٠
(٦٢) ديوان بشار ٣١٨/١ ٠
(٦٣) الديوان ١٢٦ ٠

ومن قصيدة « نجـــوى المحتضرة » يقول عبد الرحيم :

لقــد قـــدتني لسبيل الفنـــــا ء ومن كان هاديه أعمى عثر[٦٤]

وهـــو يردد الحكمة الخالدة التى نطق بها بشار فى قوله :

أعمى يقود بصيرا لا ابالكـــم قد ضل من كانت العميان تهديه[٦٥]

ويقول عبد الرحيم :

ان من صـــــعر خـــــده نتـــولى نحـــن رده[٦٦]

ويقول بشـار :

اذا الملك الجبار صعر خـــده مشينا اليه بالسيوف نعاتبه[٦٧]

٤ — وفى الشعر القـــديم نرى بعض الشعراء الغزلين المحبين قـــد يبلغ بهم الحب اقصى درجات الأثرة والغيرة حتى ليتمنى الشاعر المحب أن تكون حبيبته على صورة مشوهة دميمة كيلا يعلقها واحـــد من الناس غيره ، كما ترى فى قول جميل :

رمى الله فى عينى بثينة بالقـــذى وفى الغر من انيابها بالقوادح[٦٨]

أما كثير عزة فيتمنى أن تصيبه الآفة هـــو وحبيبته ، وأن يتحولا الى بعيرين أجربين معزولين مطاردين لا يشغلهما الا الحب المتبادل بينهما[٦٩] .

---

(٦٤) الديوان ١٨٣ .

(٦٥) بشار بن برد : شعره وأخباره ص ١٠٥ .

ولهـذا البيت قصة تتلخص فى أن رجلا سأل بشارا عن منزل رجل ذكره له ، فجعل يفهمه والرجل لا يفهم ، فلما يئس منه بشار أخـذ بيده ، وقام يقـوده الى المنزل الذى يبتغيه ، وجعل بشار ينشد فى طريقه هـذا البيت وظـل يقوده حتى وصـل الى المنزل ثم دفعه الى داخله ، وقال هـذا هـو المنزل يا أعمى .

(٦٦) الديوان ١٣٨ .

(٦٧) ديوان بشار ٣١٨/١ .

(٦٨) ديوان جميل ٣٢ . وأنظ رجميل بثينة للعقاد ٦٥ ـ ٦٦ .

(٦٩) أنظر الأبيات وتعليق العقاد عليها فى « جميل بثينة » ٦٧ ـ ٧٠ .

هـــذه « الأثرة الشاذة » وهـــذه « الغيرة القاتلة » التى تجعل المحب يتمنى لحبيبته الدمامة أو الموت حتى لا يتمتع غيره بها ابرزها عبد الرحيم فى ابيات له على لسان « نجـــوى المحتضرة » وهى تخاطب حبيبها ابراهيم بقـــولها :

وددت لو انـــك بين اليـــدين	**أضمك للصـــدر ضـــما عسر**
وألتف لـــف الأفاعى عليـــك	**وأنظر سمى فيـــك انتشر**
ويجمعنـــــا ميتين الســـرير	**وبا طالمـــا جمعتنـــا السرر**
وتقضى ويقضين حزنا عليـــك	**وما نال منك سواى الوطـــر(٧٠)**

٥ ــ وفى قصيدة « موت بطل »(٧١) التى نظمها فى رثاء رفيق كفاحـــه وقائده عبد الرحيم الحاج محمد نلمس تأثره الواضح بدالية ، أبى العـــلاء فى رثاء أبى حمزة الفقيه الحنفى فى بعض صوره وتراكيبه اللغـــوية يقـــول عبد الرحيم مصورا حزن الناس على البطل الشهيد ولوعتهم لفراقه :

صعدوا من لوعـــة زفراتهم	**فأذابت قاسى الصخر الصـــلود**
جعلوا من كل صـــدر مسكنا	**لارتفاع بك عن سكنى اللحود**
كل قلب لك فيـــه مصحف	**فيه من ذكرك قرآن خلـــود**

وهى صورة تسبح فى جـــو أبيات المعرى التالية :

ودعا أيها الحفيان ذاك الشـــخ	ـــص ان الـــوداع أيسر زاد
واغسلاه بالدمع ان كان طهرا	وادفنـــاه بين الحشا والفؤاد
واحبواه الأكفان من ورق المصـ	حف كبرا عـــن أنفس الأبراد(٧٢)

٦ ــ ولم يخل شعره من الاتباع والتقليد لنماذج شعرية قـــديمة كاملة ،

---

(٧٠) الديوان ١٨٤ ·
(٧١) الديوان ١٣٤ ·
(٧٢) المعرى : شروح سقط الزند – السفر الثانى : ٩٨٩ – ٩٩١ ·

وهو ما يطلق عليه اسم « المعارضة »[٧٣] . ولكن انتفاء عنصر **التحدى** يدخله فى باب الاتباع أو التقليد ، ويكون ذلك لأسباب وعوامل كثيرة اهمها الاعجاب الذى يتناول شخصية المقلد ، كما يتناول الأثر الفنى الذى انتجه .

وشخصية المقلد أو شخصية الأصيل ذات أثر كبير فى تتبع الأدباء آثاره واحتذائهم عمله ، وشيوع مذهبه ، فقــد يجيد الأديب فى ناحية من النواحى ، أو ينجح فى موقف من المواقف ، فتكون تلك الاجادة وذلك النجاح سببا من أسباب الاعجاب بشخصه وفنه فيعمد كثير من المتبعين الى تقليده حتى يظفروا بالنجاح الذى ظفر به[٧٤] .

ولعبد الرحيم قصيدة بعنــوان « **جيش الحبائب** »[٧٥] ، وهى قصــيدة يستهلها الشاعر بقوله :

حى الظباء الباديات كواكبـــا	**المورثات العاشــقين مصائبــا**
المحــرقات بنارهـــن قلوبنــــا	**والآخذات من اللحاظ قــواضيا**
والسارقات من الرياض لدانها	**ورضابها وشذا الورود الساكبا**

وقــد اتبع فيها شاعرين : الأول هــو المتبنى فى قصيدته التى مطلعها :

بأبى الشموس الجانحات غواربا	اللابسات من الحرير جــلابيا
المنهبــات قلوبنــا وعقــولنا	وجناتهن الناهبــات الناهبــا
الناعمات القــاتلات المحييــا	ت المبديات مــن الدلال غرائبا[٧٦]

---

(٧٣) المعارضة فى اغلب احوالها ان ينظم الشاعر قصيدة ، وينظم آخر مثلها يريد بهـا مغالبة الأول والتقـدم عليه ، وعلامتها ان تتفق القصيدتان موضوعا ووزنا وقافيه . وكان الشاعر المعارض يريد بهـذا التوافق ان يقطع على خصمه وعلى نصرائه معــه كل سـبيل الى التعـال والتماس المعاذير عند الحجاج والمفاضلة ، وان يقصر الرأى والخلاف فيه والاستدلال له على مدى الاحسان فى العرض ومبلغ القـدرة على التوليد والابتكار [انظر : الدين والأخـلاق فى شعر شوقى : على النجدى ناصف ٣٤ – ٣٧] .

(٧٤) د. بدوى طبانه السرقات الأدبية ١٠٢ .

(٧٥) الديوان ١٨٠ .

(٧٦) ديوان المتنبى ١/٢٥٠ .

اما الشاعر الثانى فهو صفى الدين الحلى الذى يقول فى مطلع قصيدته :

أسبلن من فوق النهود ذوائبـــا فجعلن حبا ت القلوب ذوائبـــا
وجلون من صبح الوجوه أشـــعة غادرن فود الليل منها شائبـــا
بيض دعاهن الغبى كواعبـــا ولو استبان الرشد قال كواكبا[٧٧]

وقصيدة المتنبى كانت فى مدح على بن منصور الحاجب ، أما قصيدة صفى الدين الحلى فهى فى مدح الملك الناصر ناصر الدين محمد بن قـــلاوون وقـــد قصد الحلى أن تكون قصيدته معارضة لقصـــيدة المتنبى بعـــد أن « اقترح عليه ارباب الدولة هـــذه المعارضة » ، وقـــد توفر له كل شروط المعارضة : من ارادة التحدى ووحـــدة الغرض او الموضوع وهـــو المدح ووحـــدة القافيه والبحر وهو الكامل ، كما يتفقان فى المنهج وهو الخلوص من الغزل الى الغرض الأصلى وهو المدح ، وكذلك فى كثير من المعانى الجزئية .

أما عبد الرحيم محمود فيقف بقصيدته عند الغزل متبعا القصيدتين فى الوزن والقافيـــة والمطلع الغزلى وفى فكرة أساسية هى « القـــدرة الفائقـــة الغلابة القهارة للمحبوبات الجميلات الفاتنات » . ومن عجب أن تكون قصيدة عبد الرحيم من أربعة عشر بيتا ، وهـــو نفس عـــدد ابيات المطلع الغزلى عند الحلى ، وهـــو قريب من عـــدد ابيات المطلع الغزلى للمتنبى وقـــد بلغ أحـــد عشر بيتا .

* * *

ثالثا — الشـــعر الحـــديث :

ذكرنا من قبل أن عبد الرحيم محمود كان ينشر بعض قصائده فى بعض المجلات العربية مثل « الأمالى » البيروتية ، و « الرسالة » القاهرية ، وانه كان على صلة بما تخرجه المطابع فى حياته ، وقـــد رأينا من قبل كيف تأثر

---

(٧٧) ديوان صفى الدين الحلى ٦٢ .

فى بعض شعره بخليل مطران وايليا ابى ماضى . والسطور الآتية ضميمة تؤكد هـــذا التأثر فى الفكر والتصوير والتعبير . ومن امثلة ذلك قوله :

لا أرى الجنـــــة ان أدخلتها وهى خلو منك الا كسقر(٧٨)

وواضح أن لروح شوقى حضورا هنا ، وذلك فى بيته المشهور :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى اليه فى الخلد نفسى(٧٩)

من الصور الجميلة لعبد الرحيم هـــذا المشهد للشهداء فى العالم الآخر وهو من قصيدته « موت بطل » التى رثى بها عبد الرحيم الحاج .

هـــذه اعراسهم صـــــخابة نقرة الدف بها قصف الرعود
فيروون الثرى من دمهـــــم ويحنون بهـــا كف الصـــعيد
ويزفـــون عليهم حـــــــال من نجيع الحرب تزرى بالبرود

وهـــذا المشهد الجميل يكاد يسبح فى نفس الجـــو التصويرى الذى تسبح فيه أبيات عمر أبى ريشه مخاطبا فيها البطـــــل السورى « ابراهيم هنـــــانو »(٨٠) :

ذكراك عرس المجد لم يكسر له دف ولم يحطم لـــــه مزمار

---

(٧٨) الديوان ١٤٠ .

(٧٩) الشوقيات ٤٦/٢ .

(٨٠) ديوان عمر ابى ريشة ٥٥٥ من قصيدة طويلة نظمها الشاعر سنة ١٩٣٧ فى ذكرى البطل ابراهيم هنانو . أما قصيدة عبد الرحيم فقد نظمها كما عرفنا فى رثاء عبد الرحيم الحاج سنة ١٩٣٩ .

وابراهيم هنانو (١٨٦٩ – ١٩٣٥) قاد المتطوعين بعد احتلال الفرنسيين دمشق ، وانزل بالجيش الفرنسى هزيمة منكرة فى سبع وعشرين معركة ظفر فيها جميعا ، والف حكومة وطنية ولقب بالمتوكل على الله . زار فلسطين فاعتقله الانجليز وسلموه للفرنسيين فحوكم محاكمة شغلت سوريا عدة شهور ، وانتهت باعتبار ثورته « سياسية مشروعة » ، فاشتغل بالعمـــــل السياسى ، واجتمعت على زعامته سورية كلها ، وقـــادها فاحسن قيـــادتها [انظر الزركلى : الأعـلام ٤١/١] .

تشدو بنات النور لحن جــلاله   وعلى سواعدها اللدان الفــار
ونقاله الزاهى ضــحايا حرة   وبساطه الضــــاف دم مدرار

* * *

ولكن كل أولئك لا يعنى أن الشاعر قــد أهــدر « شخصيته الفنية » فى امتصاص القــديم فذابت امكاناته وقــدراته فيه ، ولم يكن له « حضوره الخاص » فيما ينظم من الشعر ، بل كان للشاعر ملامح تجــديدية ووجــود ذاتى له قيمة بقــدر استعداده وقــدراته وامكاناته الثقافية والفطرية ، وذلك ما سنعرفه فى تضاعيف حــديثنا عن عناصره وأدواته الفنية .

الصورة الشعرية فى أبسط معانيها « رسم قوامه الكلمـــات »(٨١) . والألوان البيانية المجازية — ولا شك هى من أهم الوسائل فى تشكيل الصورة الشعرية ، ولكن هــذه الألوان بذاتها لا تخلق مثل هــذه الصورة ، انمـــا الاعتماد الأساسى فى هــذا المجال يكون على القوة الخيالية لاستجابة الشاعر أولا ، وعلى المدى الذى استوعب به وعى الشاعر المشهد الذى يراه أو يحس به(٨٢) . وهــذه السمة تضع الفارق الفاصل بين الصورة الآسرة والصورة الساقطة ، فالأولى من اهم خصائصها قوة الايجاد حيث لا تقف عند المظاهر الخارجية والتعبير المباشر ، وبذلك فرق الرومانتيكيون بين الذاتية المباشرة فى الشعر الغنائى ، والدلالة الايحائية بالصور الشعرية(٨٣) .

وقد يخلط البعض بين « الأبعاد » فى الخيال « وقوة الايحاء » ، وهــذا الخلط لا يتفق مع طبيعة الصورة الشعرية » : فقوة الايحاء مصدرها الباطن النفسى دون التصريح به ، كما أن الصورة فى ذاتها قد تكون بسيطة العناصر ، بريئة من « التعقيد الفنى » كما نرى فى هــذين البيتين المشهورين للشـــاعر العربى ذى الرمة :

عشية ما لى حيلة غير اننى ... بلقط الحصا والخط فى الترب مولع
أخط وامحو الخط ثم اعيده ... بكفى والغربان فى الدار وقـــع

فهــذه الصورة الشعرية تتوالى للدلالة على الحيرة واللوعة وشرود اللب ، ووحشة المكان التى تتجاوب مع أحاسيس الشاعر دون تصريح بهذه المشـــاعر(٨٤) .

---

(٨١) دى لويس : الصورة الشعرية ٢١ .

(٨٢) أنظر السابق ١٠٢ .

(٨٣) أنظر غنيمى هلال : قضايا معاصرة فى الأدب والنقد ٦٠ .

(٨٤) السابق : نفس الصفحة .

وقوة التخيل تمكن الشاعر من افراز الصور ذات الايحاء القوى الآسر ، وذلك يقتضى الشاعر أن « يعيش » المواقف والمشاهد بشعور مرهف ووجدان قوى ، لأن عملية « الميلاد الفنى » تقتضى « **الانفصال** » من ناحية ، « **والمعايشة** » من ناحية أخرى ، أى الانفصال عن « الواقـــع العادى » بأبعـــاده المرئيـــة المحسوسة ، والمعايشة لواقع جـــديد بامكانة خيالية مبدعة تعطى هـــذا الواقع ــ كما يقول النقاد ــ أبعادا جـــديدة وعلائق قـــد لا تكون لـــــه فى الحقيقة ، فيصبح كل ذلك « **واقعا نفسيا** » تغـــذيه الملكة الخيالية الابداعية للشاعر ، فتولد صورة ذات ايحاء آسر يشد القارىء ، بل يعيشه فى « عالم الشاعر » حتى يصير المبدع والمتلقى شيئا واحـــدا .

والطبيعة ــ بمفهومها الشامل وبكل ما تنطوى عليه من أشياء وجزئيات وظواهر ــ هى المصدر الأساسى لامداد الشاعر بمكونات الصورة ، ولكنه لا ينقلها الينا فى تكوينها وعلاقاتها الموضوعية ــ كما أشرنا آنفا ــ « بل انه يدخل معها فى جـــدل فيرى منها أو تريه من نفسها جانبا يتوحـــد معه بادراك حقيقة كونية وشخصية معا »(٨٥) .

وحتى يكون للصورة فى الشعر هـــذا المقام الرفيع يجب أن تبرأ من السطحية أو « **التسجيلية البصرية** » ، وهو ما تبنى العقاد الدعوة اليه من عشرات السنين فى حـــديثه المشهور يخاطب به شوقى « **... فاعلم أيهـــا الشاعر العظيم : أن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء لا من يعـــددها ، ويحصى أشكالها وألوانها ، وليست مزية الشاعر أن يقول لك عن الشىء ماذا يشبه ، انما مزيته أن يقول ما هـــو ، ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به .... واذا كان وكدك من التشبيه أن تذكر شيئا أحمر ، ثم تذكر شيئين أو أشياء مثله فى الاحمرار فما زدت على ان ذكرت أربعة أو خمسة أشياء حمراء بدل شىء واحـــد . ولكن التشبيه أن تطبع فى وجـــدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع فى ذات نفسك . وما ابتـــدع التشبيه لرسم الأشـــكال والألوان ، فان الناس جميعا يرون الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها وانما ابتدع لنقل الشعور بهـــذه الأشـــكال والألـــوان من نفس الى نفس** »(٨٦) .

---

(٨٥) د. محمد حسن عبد الله : الصورة والبناء الشعرى .

(٨٦) عباس العقاد : الديوان ٢٠ .

كذلك يجب أن تكون الصورة الشعرية **أصيلة بعيدة عن تعمد الاحتذاء والتقليد** بحيث تبدو فيها بصمات الشاعر ونفثـاته الخاصـة . والشاعر العبقرى هـو الذى يستطيع ان يجـدد « نسيج القـديم » ، ويمنحه من العلاقات او الاضافات الجزئية ما يجعل الصورة — على الرغم من قـدم « خامتها ونسيجها » تبـدو وكأنهـا جـديدة تماما ، ويحضرنى فى هـذا المقام بيت شوقى وهـو يصف محاكمة « عمر المختار » :

وأتى الأسير يجر ثقل حـديده أسـد يجرر حيـة رقطاء[٨٧]

فتشبيه البطل بالأسـد ورد فى الأدب العربى — وخصوصا الشعر — مئات المرات ، ومن ثم أصبح مستهلكا لا يهز مشاعر القارىء ، ولا يلفت نظره . اما تشبيه البطل وهـو يجر قيوده التى تعض يديه ورجليه بأسـد يجرر حية رقطاء فصورة أو « تركيبة تصويرية » تنم على خيال بارع ، وابداع رائع بهـذه « الاضافة » البسيطة التى أعطت للصورة بعـدا جـديدا وطعما جـديدا .

كذلك يجب أن تكون الصورة **متسقة الأجزاء متوازنة العناصر** فـلا تناقض جزئية اخرى ، أو يتعارض عنصر مع عنصر آخر . هـذا فى نطاق الصورة الواحـدة ، فاذا كانت القصـيدة من صـور متعـددة فيجب ان يتحقق لهـا هـذا الاتساق وذاك التوازن لأنها جميعا تمثل أجزاء وعناصر فى معمار واحـد . وهـذه الوحـدة الفنية او التصويرية بالاضافة الى الوحـدة الفكرية أو الموضوعية ، وبالاضافة كذلك الى الوحـدة الشعورية ... كل أولئك يمثل **وحـدة عضوية شاملة** تجعل من القصيدة بنية حيـة متكاملة متناسقة .

وأخيرا يجب أن تبرأ الصورة من **الاغراق فى المبالغة** لأن هـذا الاغراق يعـد تزييفا للشعور ، وانسلاخا من الصـدق الفنى ، ومن أشـهر نماذج الاغراق فى المبالغة قـول المتنبى متحـدثا عن أثر الحب فيه :

---

(٨٧) الشوقيات ٣/ ١٩ .

روح تردد فى مثل الخــــلال اذا	**أطارت الريح عنه الثوب لم يبن**
كفى بجسمى نحولا أننى رجل	**لــولا مخاطبتى اياك لم ترنى**(٨٨)

فصورة المحب هنا وقــد أضناه الحب واضواه ، وبرى جسده وأنحله حتى لا يرى الا اذا صـــدر منه صوت .. هــذه الصورة المغرقة فى الخيال تثير — ولا شك — الضحك والسخرية ، لأنها تزييف للشعور يقودنا الى حقيقة مؤداها انه لا حب ولا محب .

وللنقاد كلام كثير فى هــذه الشرائط وتلك السمات لا يتسع المقــام لتفصيلها ومناقشتها ، ولكن السؤال الذى يلح بعــد هــذه التوطئة وذاك البيان هــو : **ما أبعاد الصورة الشعرية ، وما ألوانها ومكانها فى شــــعر عبد الرحيم محمود ؟**

* * *

خيــال عفــوى :

خيال عبد الرحيم — بصفة عامة — خيال قريب ، برىء من الاسراف والشطط . اذا حلق فى سماء قريبة منا ، فهو لا يسرف على نفسه فى التحليق والتهــويم ، ولا يبعــد بحثا عن الصور الشاردة ، ومن ثم يحس القارىء ان بينه وبين هــذا الخيال الفة وقربة وكأنه لم يفارق الواقع كثيرا .

وصوره لا تكلف فيها ولا تصنع ولا تعمد للزخرفة والتزيين حرصا على « التشكيل الفنى الراقى » ، بل هــو يسير سيرا عفويا بريشته ، وهــذه العفوية التصويرية واضحة بصفة خاصة فى المرحلة الأولى من مسيرته الفنية .

خيــال تقليــدى :

والشاعر — فى هــذه المرحلة الأولى — بصفة خاصة — كان يعتمد بصفة أساسية فى تشكيل صوره على ذخيرته من الأدب القــديم يستمد عناصره

(٨٨) ديوان المتنبى ٤/٣١٨ .

التصويرية منه به يضمن شعره — كما رأينا — كثيرا من صور الشعر القديم ؛ وقل أن نجـــد له فى هـــذه المرحلة صورة مبتكرة تبرز فيها شخصيته الفنية . وذلك واضح فى قصـــائده الأولى التى نظمها ســـنة ١٩٣٥(٨٩) ولننظر الى قصيدته المشهورة « نجم السعود »(٩٠) لنرى أن كل صورها تقليدية مسبوقة . ومنها على سبيل التمثيل (مخاطبا الأمير سعود) .

سهلا وطئت ولو نزلت بممحل	**يوما لأمرع من نزولك بلقعــه**
وغـــدا وما أدناه لا يبقى سوى	**دمـــع لنـــا يهمى وسن نقرعه**

ففى البيت الأول كناية عن اليمن والتفاؤل بنزول الأمير .

وفى البيت الثانى كناية عن الحزن والأسى والندم . وكلها صور جزئية تقليدية مكرورة آلاف المرات فى الأدب العربى .

وقـــد مر بنا فى حـــديثنا عن **بصمات التأثر والتقليد** عند الشاعر كيف احتذى كثيرا من الصور القـــديمة للشعراء المشاهير فى الجاهلية والعصور الاسلامية . كما يغلب على خيال هـــذه المرحلة أنه **خيـــال جزئى تفسيرى** يعتمد — اكثر ما يعتمد على الألوان البيانية وخصوصا الاستعارة والكناية . وان كنا لانعـــدم فى هـــذه المرحلة بعض الصور الممتدة كصورة الفـــدائى المناضـــل وقـــد سقط فى ميدان القتـــال وهـــو يودع ارض الدنيا الى سماء الشـــهادة :

يلذ لأذنى سماع الصـــليل	**ويبهج نفسى مســـيل الدمـــا**
وجسم تجدل فى الصحصحان	**تناوشـــه جارحات الفـــلا**
فمنـــه نصيب لطـــير السماء	**ومنه نصيب لأســـد الشرى**
كسا دمه الأرض بالأرجـــوان	**واثقـــل بالعطر ريح الصـــبا**
وعفـــر منـــه بهى الجبين	**ولكن عفـــارا يزيد البهـــا**

(٨٩) ذكرنا من قبل استبعادنا أن تكون سنة ١٩٣٥ هى البداية الفنية للشاعر وذكرنا أسباب هـذا الاستبعاد .

(٩٠) الديوان ١٢٥ .

وبان على شــفتيه ابتســـام	معـــانيه هــزء بهـــذى الدنى
ونام ليحــلم حــلم الخــلود	ويهنا فيـــه باحلى الرؤى[91]

انه مشهد متكامل يرسم ملامح « البطل » فى هـــذه اللحظات التى سيلج بعدها عالم الخلود بعـــد ان أدى ضريبة هـــذا الخلود دما وجسدا تقاسمته جوارح الطير وكواسر الأسود . وهـــذا المشهد البارع يشد منا حواسنا كلها على وجـــه التقريب : ففيه صوت الصليل الذى يلذ لأذن البطل . وفيه الحركة السريعة التى تناسب جـــو المعركة وذلك فى « تناوش جارحات الفلا » . وفيه الحركة أو الحركات البطيئة التى توائق جـــو الرضا مثل حركة الابتسام .. وحركة النوم والحلم ، والحركة الفعلية او المـــادية الحسية هنا متوافقـــة متناسقة مع الحركة النفسية التى اطر بها هـــذه الصورة الممتدة ما بين بهجة النفس بمسيل الدماء والهناءة بأحلام الخلود فى العالم العلوى . أما اللون ففى الدماء والأرجوان والعفار . وحاسة الشم مشدودة كذلك بذلك العطر الذى يثقل ريح الصبا . كما ان الشاعر جسد هـــذا الرضى النفسى الذى تفيض به نفس الشهيد فى ذلك الابتسام الذى بان على شفتيه يحمل — زيادة على الرضا والسعادة بهـــذه النهاية — « الهزء بهـــذى الدنى » .

دائرة المحسوسات :

والشاعر فى تشبيهاته لا يجاوز دائرة المحسوسات ، فهو يشبه المحسوس بالمحسوس ، وهـــو لا يكاد يجاوز هـــذه الدائرة فى تشبيهاته . ونجتزىء عن عشرات الأمثلة بمثال واحـــد من قصيدته « بينى وبين قلبى »[92] .

وقلبهـــا كالريشة الحـــائرة	تناى على ريح وتدنو بريح
تبيـــع للســـانح كالتـــاجرة	وتنثنى تطلب بيـــع البريح
بل هى عنـــدى زهرة ناضرة	وكل ما فيهـــا جميل مريح

* * *

(٩١) الديوان ١٣١ .

(٩٢) الديوان ١٧٩ .

التجسيم والتشخيص(93) :

للتجسيم هـــدف يتعلق بالمعنى لأنه يجعل المعنوى غير المحسوس محسوسا يدرك بحاسة من الحواس الخمسة ، وغالبا ما تشترك اكثر من حاسة فى ادراك هـــذا المعنوى الذى صـــار محسوسا بالتجسيم . وهـــذا يجعل المعنوى اقـــوى حضورا كما يجعل احساسنا بوجوده أقـــوى . والشىء بالتشخيص يصبح بعـــد « جموده » أو غيابه عن الحواس حيا ذا نبض ونفس وحركة مما يجعل الصورة أقوى ايحاء وأقـــدر على هـــز المشاعر والتأثير فى الوجـــدان .

ومن أمثلة التجسيم عند الشاعر : تجسيم **العـــلا** فاذا هى نصب يبنى ، وتجسيم **الحقـــوق** كأنها شىء مملوك يسترد بعـــد أن سلب ، وتجسيم **الجهـــاد** فى صورة نار متسعرة ، وتجسيم **الأمانى** فى هيئة معمار :

وأقم على الأشلاء صرحك انما	**من فوقـــه تبنى العـــلا وتقام**
واغصب حقوقك قط لا تستجدها	**ان الأولى سلبوا الحقوق لئام(94)**
وتذيب فى نـــار الجهـــاد	**د وحرها عنا الصــــــفائد(95)**
ان تجـــد باب الأمانى مغلقـــا	**لا تكتئب أو تلم من سكره(96)**

* * *

(93) يقصد بالتجسيم ابراز المعنوى فى صورة حسية ، كقولنا « تحطم اليـــأس على صخرة الأمل » . أما التشخيص فيعنى منح المـــادى الجماد صفات وملامـــــح انسانية كقولنا « تتحـــدث الأهرام بعظمة من بناها » . وقـــد يجتمع التجسيم او التجسيد والتشخيص فى عبارة واحـــدة ، وذلك بابراز المعنوى فى صورة حسية انسانية ، كقولنا : « تنفس الصبح » وقـــولنا « انتصر الايمان على الكفر » .

(94) الديوان ١٤٣ .

(95) الديوان ١٥٦ .

(96) الديوان ١٦٠ .

ومن أمثلة التشخيص قول عبد الرحيم :

فرح الكون حيث لاحت على الدهـ ر وريعت ممردات القصور[٩٧]
دعا الوطن الذبيح الى الجهـــاد فطار لفرط فرحته فـــؤادى[٩٨]

* * *

وكثيرا ما يجمع الشاعر بين التجسيم والتشخيص ، فيبرز المعنوى فى صورة حسية مشخصة ، فهو يجسم الموت ويشخصه فى قوله :

حبـــك السل لقـــــد أوديـــا بهيبـــة الموت الوقـــور المهيب[٩٩]

وظاهرة التشخيص فيما سبق لا تكاد تخلو منها قصيدة من القصائد فى ابيـــات مفردة فى تضاعيف القصيدة ، ولكن الشاعر فى قصيدته **حجـــر فى كثبان رمل** »[١٠٠] يبلغ مقاما عاليا من الشفافية والوجـــد الفنى ، فتتكشف رؤيته الشعرية ، وتذوب مشاعره ونبضاته وبصيرته فى ذلك الحجر المنفرد بلا أنيس فى القفر المخيف والحر الحارق ، وهـــو فى صمته جلد صبور يعيش وحـــدة الراهب وعزلة الفيلسوف . ويتدرج الشاعر فى حـــديثه الى الحجر ، ويطيل فى هـــذا الحـــديث ، كأنما يقصد الى ذلك قصدا ليذهب الوحشة عن هـــذا الثاوى فى الصحراء بلا أنيس فى هـــذا القفر المخيف ، أو ليذهب عن ذاته هـــو هـــذه الوحشة بالحـــديث الى رفيق ولو كان حجرا . وتتوالى اسئلة الشاعر على هـــذا الحجر الرهيب الفيلسوف :

فيـــم انفـــرادك لا أنيـــ س تراه فى القفر المخيـــف ؟
هـــل كنت يوما فى القصـــو ر وعفت ضافيـــة القصـــور ؟
هـــل كنت قـــط مجنـــة من كيـــد باغ ظـــالم ؟

---

(٩٧) الديوان ١٤٥ .

(٩٨) الديوان ١٤٧ .

(٩٩) الديوان ١٦١ .

(١٠٠) الديوان : ١٦٦ .

وفى النهاية يصل الشاعر الى التجاوب والالتقاء النفسى الصادق مع هذا الحجر الوحيد ، فقد جمعت بينهما الوحدة والعزلة :

انت الوحيد هنا وما لى لا أقول انا الوحيد

وتكاد ظاهرتا التجسيم والتشخيص تطردان فى شعر عبد الرحيم فى المرحلة الثانية من مسيرته الفنية بصفة خاصة .

بين النفس والطبيعة :

وترتبط بالسمة التصويرية السابقة سمة فنية تصويرية اخرى هى « المزج بين النفس والطبيعة » . وهى سمة توسع فيها الرومانسيون الذين هاموا بالطبيعة ، وفزعوا الى أحضانها يستلهمونها ، ويستوحونها أسرارها ، ليكون أدبهم صدى للشعور الصادق بما يتجلى لاحساسهم من مناظرها(١٠١) .

ولم نقع للشاعر على قصيدة مستقلة فى وصف مشهد من مشاهد الطبيعة انما أتى ذلك عرضا فى قصائد الأغراض الأخرى فى أبيات معدودات لم تعدم هذه السمة ... سمة « المزج بين النفس والطبيعة » . ففى قصيدة « **روض وانى عندليبه** »(١٠٢) يستلهم الشاعر الروض معانيه وألحانه ، فيقول عن « روضه » الذى انطلق فيه « عندليبا » :

لى كل يوم فيه شعر سائر شتى ضروبه
ويرن فى جنباته من لحنى الموحى طروبه
نور قبست قصائدى منه فشاع بها لهيبه

ولكن الشاعر فى هذه الظاهرة التصويرية القليلة فى شعره كان أبرع واقدر حين مزج بين مشاهد الطبيعة وبين الشباب : فنا وكفاحا ونضالا ، وكان بارعا كذلك حين أبرز فى تصوير رومانسى بارع ان الحاضر بهذه الصفة هو عنوان الغد الجليل المنتصر :

---

(١٠١) أنظر د. محمد غنيمى هلال : الرومانتيكية ١٦ ، ١٢٢ ــ ١٤٢ .
(١٠٢) جرار : شاعران من جبل النار ٢٩٩ .

خذوا ريشة الفن خطوا بها سهول البلاد ووديانها
من العرق العذب رووا السهول وروض البلاد وبستانها
من الدم رشوا رءوس الجبال وهام الرواسى وكثبانها
هو « الغد » لوحتكم يا شباب فخطوا من العزم عنوانها
غد لوحة بين أيديكمو فلا تسلموا الأمر عميانها[١٠٣]

* * *

المفارقة التصويرية :

وهى ملمح تصويرى كثير الورود فى شعر عبد الرحيم فى مرحلته الثانية ، وفى شعره الاجتماعى بصفة خاصة . والمفارقة تعنى — فى ايجاز — وضع الصورة وجها لوجه أمام نقيضتها حتى يظهر الفارق الشاسع بينهما ، فبضدها تتميز الأشياء . وقصيدة« **يا عامل** »[١٠٤] تعتبر من أحفل قصائده بهذه الظاهرة ومنها الأبيات التالية :

يا عامل

هذى القصور وأنت را فع سمكها هل هن لك ؟
والدوح أنت زرعته من حولها هل ظللك ؟
والنور فى يدك الصنا ع فما حياتك فى الحلك ؟
الحسن أنت خلقته لكن سواك له ملك .

فالشاعر يوقفنا على صورتين متناقضتين : صورة العامل .. ذلك الانسان المضنى المعنى ، وصورة المستغل الناهب . الأول يبنى ، والثانى يسكن ويستقر . الأول يزرع ، والثانى يحصد ويأكل . الأول يفجر النور والثروة ، والثانى يحتجن كل ذلك لنفسه . الأول يشقى ويعيش على الحرمان ، والثانى لا يبذل من عرقه حبة ، ولا من جهده قطرة ، ومع ذلك فله كل شىء ... نعم .. كل شىء .

---

(١٠٣) جرار : السابق ٢٩٨ .

(١٠٤) الديوان ١٥٥ .

وهــذه المواجهة بين هــذه وتلك تمثل محاكمة واتهاما صارخا يدين هــذا الظلم الفادح الذى يناقض طبيعة الوجود وناموس الحياة الذى يقرر أن من زرع حصــد ، وأن الجزاء من جنس العمل .

وقــد طرح الشاعر هــذه المفارقة بصورة أوضح فى قصيدته الطويلة : « **الى العمال** »(١٠٥) وفيها يقول :

وما الحق فى أن يأكل الجنى قاعد ... ويحرمه يــوم الحصادة باذره
أيعمر ذو الاجهــاد قصرا ممردا ... ولا يسكن القصر الممــرد عامره ؟
أيحمل وزر الناس من عف مطعما ... لينجو من وزر على الدهر وازره ؟

* * *

وتلون هــذه « المفارقة التصويرية » اعمق ابعادا ، واقوى ايحاء حين يتوهج وجــدان الشاعر ، فيخلع نفسه من مجتمع يتمرد هــو على أوضاعه الغالطة ليعيش مأساة « الحمال » الذى قضى فى سوق « حسبة الخضر » فى حيفا ، وبجانبه حبله وسلته ، والناس يمرون به دون أن يلتفت اليه أحــد . هــذا الحمال بثوبه الرث الخلق ، وجسده الخامد اليابس ، وصمته الرهيب ، كل أولئــك جعــل من الشاعر انسانا ناقما رافضا لأوضاع هــذا المجتمع الظالم رفض كاره ناقم ثائر حتى أنه ليغلق نفسه عن كل مظهر من مظاهر الجمال والرفاهية فى دنيا الناس . يقول الشاعر مخاطبا هــذا الحمال الذى قضى دون أن يهتم به أحــد :

يا موقظ النقمة فى أضــــلعى ... بشعت فى عينى الجمـــال العجيب
لثوبك الرث واخــــلاقه ... كرهت أثواب الحرير القشيب
والجسد الجامد فى يبســـــه ... كره لى الغصن الطرى الرطيب
وصمتــك الرائع يا موحشى ... بغض لى الصوت الحنون الطروب(١٠٦)

---

(١٠٥) جرار السابق ٢٩٤ .
(١٠٦) الديوان ١٦٢ .

ان المفارقة التصويرية هنا عناصرها النفسية أو فى من عناصرها الظاهرة المشهودة ، ولكنها تنتهى بنا الى المقابلة بين من يموتون فى صمت وهــدوء ضحية للظلم الاجتماعى وبين هؤلاء الذين يتفيئون جمال الحياة وسحرها ، ويلبسون الحرير القشيب ، ويتمتعون بطراوة الحياة ، ويشنفون أسماعهم بكل صوت حنون طروب . انهم هؤلاء الذين أجــدبت قلوبهم من الرحمــة فكانت المــأساة التى وقعت وتتكرر ما قام للظلم قائمة ، وبقى المجتمع ما بين طاحن ومطحون ، وآكل ومأكول ، وناهب منهوب .

وقــد لا تكون المفارقة التصويرية فى قصيدة كاملة ــ كما رأينا فيما سبق ــ بل تكون فى البيت والبيتين كما نرى فى البيتين الآتيين :

متى أرى الحــق وأصــــحابه	**يعلون من أدنى الى شـــاهق**
وأبصر الشر وأربـــــابه	**يهوون من أعلى الى ســـاحق**(١٠٧)

***

التصــوير القصصى :

والمقصود بالتصوير القصصى ما يتوفر فى شعر الشاعر من عناصر قصصية مثل السرد والحوار والتشخيص(١٠٨) وغير ذلك من العناصر والطوابع القصصية التى أفاد منها الشعر الحــديث على نطاق واسع .

والقصيدة القصصية غير القصة الشعرية فالأولى قصيدة لا تخلو من عناصر قصصية ، اما الثانية فهى عمل قصصى متكامل يتوفر له كل عناصر القصة النثرية ، زيادة على ما يتمتع به الشعر من موسيقا وخيال بديع .

والعنصر القصصى فى الشعر يتوافر فيه الايحاء ، وتكتسب به العواطف الذاتيــة مظهر الموضوعية ، ثم أن العنصر القصصى لا يتفــق بطبيعته مــع

---

(١٠٧) الديوان ١٦٣ .

(١٠٨) المقصود بالتشخيص هنا فن رسم الشخصيات .

« النغمة الخطابية التى قد توجد فى الشعر الغنائى غير القصصى ، فتضعف من قوته . هذا الى ان الشعر الوجدانى متى كان ذا طابع قصصى كانت الوحدة العضوية فيه أظهر ، وبدا متماسكا لا تستقل أبياته كما كانت فى الشعر القديم »[١٠٩] .

والتصوير القصصى ملحوظ فى بعض قصائد عبد الرحيم فى مرحلته الفنية الثانية ، وهو ليس كثيرا فى شعره ، ولكنه ملحوظ على أية حال . والاتجاه القصصى فى الشعر يعد أثرا من آثار التجديد كثر عند شعراء أبولو وشعراء المهجر ، وكان لخليل مطران القدح المعلى فى هذا المجال .

والتصوير القصصى عند عبد الرحيم ينعكس فى شكلين : المقطوعة القصصية والقصيدة القصصية :

والشكل الأول يتمثل فى مشهد يراه الراوية رأى العين ويحكيه ثم ينتهى منه الى حكم مكثف فى صورة استفهام استنكارى صارخ كأنه « لحظة التنوير » فى الأقصوصة . أو « القرار الحاسم » فى المسرحية .

وفى المشهد التالى — وهو احد هذه المشاهد — يوظف الشاعر هذا الأسلوب القصصى فى النقد الاجتماعى والسياسى ، فهو يبرز جناية **الزعماء الجوف** على الأمة ، وكيف يضحون بها وبقيمها فى سبيل الزعامة والجاه والسلطان :

رأيت يوما للخطابات	**زعيما قائما**
قد جمع الناس لكى	**يسمعهم شتائما**
وصب فى آذانهم	**من عنده مزاعما**
وراح يهوى معولا	**للكرامات هادما**
أيقظ فيهم فتنة	**هيج حقدا نائما**
وبث فى نفوسهم	**من نفسه سخائما**
وقسم الناس لدى	**خوض الوغى قسائما**

(١٠٩) د. غنيمى هلال : النقد الأدبى الحديث ٤٥٥ .

ولم يبـــال ان يمـــوتوا كــى يظــل ســـالمــا
فقــلت ختــام ســـيبقى الشعب أعمى هائمـــا ؟[110]

أما الشكل الثانى فهو « القصيدة القصصية » ومثالها فى شعر عبد الرحيم قصيدته « **احاجى فى ذكرى وعـــد بلفور** »[111] ، وهى قصيدة طويلة من اثنين وسبعين بيتا ألقاها فى فندق فلسطين سنة ١٩٤٧ . وهى تتكون من مقطوعات كل مقطوعة تصور أبعاد شخصية من الشخصيات التى كان لهـــا دور ايجابى فاعـــل فى مأساة فلسطين دون أن يصرح بالشخصية ، بل يلبسها الشـــاعر قناعا رمزيا روائيا ، ويجعل ذلك على هيئة « أحجية » يحلها احـــد الطلاب . ففى هـــذه المطولة نلتقى بالشخصيات الرمزية الآتية :

ـــ **البخيل** الذى يجود بما لا يملك ، ويعنى الشاعر به الانجليز .

ـــ **المعوز** الذى لا يملك الا كسرات من الخبز ، ويعنى به شعب فلسطين .

ـــ **الكسيح المقعد** ويعنى به الرئيس روزفلت .

ـــ **الصاعدون على اكتاف الناس** ، ويعنى بهم الزعماء النفعيين .

ويرمز بأبيات الى **الثورة** ، وبأبيات أخرى الى **صندوق الأمة** .

ولنقرأ هـــذه الأبيات التى تصور شخصية الزعيم النفعى ، وكيف صعد على اكتاف الشعب المحروم لتحقيق مآربه الخاصة . وصور الشاعر الشعب فى صورة محروم يمشى فى بستان ، ولا يستطيع أن يجنى ثمرة واحدة من أية شجرة ، لأن أشجار الروض كانت أعلى من قامته ، فاضطر أن يحمل على هامته فتى آملا أن يقطف له ما يحتاج اليـــه من ثمـــار . ولكن هـــذا « الراكب » لم يحقق طلبـــــة هـــذا المحروم . ليس هـــذا فحسب ، بل استطاب هامة هـــذا المحروم وظهره ، فرفض النزول عن « هـــذا المركب الوثير » . يقول عبد الرحيم :

---

(١١٠) جرار السابق ٢٥٤ .

(١١١) جرار السابق ٢٥٦ .

ومشى المحروم فى روض المنى ... واشتهى لو نال من بعض الثمار

كلما مد يدا يجنى انثنت ... يده ملأى بفرم وخسار

قال : فلأصعد على هامى فتى ... يقرب القاصى ويحمى لى ذمارى

فامتطى ذاك الفتى أكتافه ... واستوى مثل مليك فى اغترار

واستطاب القعدة العليا فلم ... يجن شيئا غير صيت واشتهار

قال فانزل أنت لم تجن جنى ... ولقد طال اصطبارى وانتظارى

لا أرى لى فيك جدوى انما ... أنت مضاغ كلام وفخار

فأبى الراكب أن ينزل عن ... عرشه وهو كما تعلم عار

من ترى يعرف هذا ؟ كلكم ... عالم بعض الذى أعنى ودار

يحكم الأمة من أسياده ... حسب ما يؤمر يمشى ويجارى

أيها القوم وهذى قصة ... وبها وجه لفكر واعتبار

فسروها مثلما شئتم ولا ... تسألونى،واقبلوا منى اعتذارى(١١٢)

والشاعر كذلك يستعير فى تصويره عنصرا روائيا آخر هو عنصر الحوار الذى نلتقى به فى تضاعيف بعض القصائد . وخصوصا قصائد الغزل وقد يطغى هذا الحوار على قصيدة كاملة فيستغرق أغلبها مثل قصيدة « **مخلوقة أنت** »(١١٣) ، وهذا ما سنقف عنده فى الصفحات التالية ... فى سياق حديثنا عن ألفاظه وأدائه التعبيرى .

---

(١١٢) جرار : السابق ٢٥٩ .

(١١٣) الديوان ١٧٦ .

اللغـــة والأداء التعبيرى

اذا كان العمل الأدبى — بعامة — يتوقف على الدقـــة فى الصياغة ، فان أولى ميزات الشعر هى استثمار خصائص اللغـــة بوصفها مادة بنائه . فعلاقة تجربة الشاعر بلغته أوثق واهم من علاقة تجربة القاص أو مؤلف المسرحية فى العصر الحـــديث . وذلك أن الشاعر يعتمد على ما فى قـــــوة التعبير من ايحاء بالمعانى فى نغته التصويرية الخاصة به . وفى لغـــة الشعر يخضع التعبير لقوانين اللغة العامة ، ولكنه يفيد مع ذلك من اعتماده على دلالات القرائن ، وما يمكن ان تضيفه هـــذه الدلالات على التصوير عن طريق موسيقية التعبير ، وموقعه ، وتآزر كلماته وأثر ذلك كله فى التصوير(١١٤) .

والألفاظ فى العمل الأدبى يجب أن تكون حية نابضة ذات نظام ونسق « يسمح لها بأن تشع اكبر شحنها من الصور والظلال والايقاع ، وأن تتناسق ظلالها وايقاعاتها مع الجـــو الشعورى الذى تريد أن ترسمه ، وألا يقف بهـــا الأديب عند الدلالة المعنوية الذهنية . . . فوصول اللفظ الى الحالة التجريدية معناه أنه مات واصبح رمزا فحسب ، والأديب الموهوب هـــو الذى يرد عليه حياته فيجعله يشع صورة وظلا ، ويرسم حالة ومشهدا(١١٥) .

واذا كانت هـــذه هى قيمة الكلمة فى العمل الأدبى — بصفة عامة — فانها فى الشعر — بصفة خاصة — يجب أن تكون اقوى دلالة ، وأكثر ايحاء واشعاعا اذا ما توفرت لهـــا الشرائط السابقة ، وأخـــذت مكانها الذى خلقت لـــه فى البناء الشعرى . لذلك يفقد الشعر — كما يرى اليوت — كثيرا جـــدا من روائه وروحه بالترجمة ، بعكس النثر الفنى الذى لا يفقد بالترجمة الا قـــدرا قليلا من جماله ، اما الانتاج العلمى فلا يكاد يفقد بالترجمة شـــيئا يذكر من قيمته(١١٦) .

(١١٤) د. غنيمى هلال : النقد الأدبى الحديث ٤٠٩ .

(١١٥) سيد قطب : النقد الأدبى : أصوله ومناهجه ٤٣ .

(١١٦) انظر T. S. Eliot : On Poetry and Poets P. 18 — 19.

والشاعر العبقرى المطبوع هو الذى لا تكون الكلمات عنده مجرد وسيلة اداء وتعبير فقط ، بل تكون الكلمات ذات كيان خاص لخلق ما يتجاوز المدلول اللغوى . يقول سارتر « أما الشاعر فانه بعد أن يصب عواطفه فى شعره ينقطع عهده بمعرفتها ، اذ تكون الكلمات قد سيطرت عليها ، ونفذت خلالها ، والبستها أثوابا مجازية ، فلم تعد الكلمات تدل عليها حتى فى نظر الشاعر نفسه ، فقد اصبح الانفعال شيئا له كثافة الأشياء ، وبدت عليه مسحة الغموض ، اذ اكتسب الخصائص الغامضة للألفاظ التى صار حبيسها »(١١٧) .

* * *

والظاهرة اللافتة للنظر فى شعر عبد الرحيم محمود **هى التفاوت الصارخ ، وهو تفاوت شامل فى التصوير والتعبير والوجدان** حتى يخيل لقارئه أنه امام شاعرين أو شعراء مختلفين فى المستوى الفنى . ويرجع اختلاف المستوى الفنى للشاعر — اى شاعر — الى مجموعة متشابكة من الأسباب منها موقفه النفسى ومدى تفاعله وتوهج وجدانه واستجابته لموضوعه وتطور تجاربه ونموه الثقافى وثراء معجمه الشعرى . وقد رأينا من قبل كيف أن شعره فى المرحلة الثانية (سنة ١٩٣٩ وما بعدها) انضج بكثير من شعره فى المرحلة الأولى .

ومن أهم ملامحه فى أدائه التعبيرى حرصه على الكلمة العربية الأصيلة والقوالب المأثورة ، وكان فى شعر المرحلة الأولى بصفة خاصة يضمن شعره كثيرا من العبارات والألفاظ القرآنية وأساليب الشعر العربى وصوره . وهو أحرص على اللفظ العربى الأصيل فى شعر الحماسة بصفة خاصة ، واعنى به الشعر الوطنى والشعر القومى ، وما كان فخرا بالأمجاد العربية والاسلامية الأولى ، وما كان استنهاضا للهمم ، واثارة للعزائم ، حتى أن القارىء ليشعر أنه أمام فحولة المتبنى ، وجزالة بشار ، وجلال ابى فراس الحمدانى . كما نرى فى قصيدته « **ذكرى الزمان** »(١١٨) وفيها يقول :

---

(١١٧) سارتر : ما الأدب ١٦ .

(١١٨) ديوان عبد الرحيم ١٣٧ .

غضبة للحــق كانت حبــــذا **عيشة المرء مخــوف الغضبات**
هبــة للثـــار كانت اننـــا **لذوو بطش شـــديدو الفتــكات**
لم نطق خسفا ولم نصبر على **عيشة الــذل ولا كبر العــداة**
نحـــن اذللنـــا الوجـــودا **نحـــن للـــكبر مثـــل**
واذا رمـــت شـــهودا **فســل التــاريخ ســل**

غضبة للحق — هبة للثار — لم نطق خسفا — البطش — الفتكات ...
كلها كلمات وقوالب تسبح فى جـــو الأنفة العربية الموروثة بما فيها من قـــوة وجزالة وجرس قـــوى قارع .

وفى قصائد للشاعر تأخـــذ الكلمات مكانها المناســـب فى السياق بحيث تعطى .. بل تفرغ فى سياقها ما فيها من ايحاء ، وكثيرا ما يلعب جرس الكلمة دورا كبيرا فى اشاعة الجـــو المطلوب كما نرى فى الأبيات التالية :

اذا رق احساسنا فى الوجـــود **واضحت نفوس لنـــا شاعره**
اذا ما صهرنا قيـــود العبيـــد **بنـــار من القـــوة القـــاهره**
اذا ما نعمنـــا بلقيـــا المنى **وقرت رغـــاب لنـــا حائره**
اذا كان هـــذا فثمـــة عيـــد **وتلك مظـــاهره الســـــاحره**

فالكلمات فى البيت الأول هامسة بجرسها ، وترية الوقع ، فيها رقـــة ووضوح تسبح فى جـــو رقيق صاف حالم ، والأمر كذلك فى البيت الثالث . أما البيت الثانى فكل ما فيه يوحى بالقـــوة والعنف : الصهر — القيود — النار — القهر . وجرس الكلمات هنا جرس نحاسى صاخ ، زاده قـــوة توالى « القافات » فى البيت : قيود — قـــوة — قاهرة . وواضح أن جرس القافات هنا عكس جرسها فى « رق » فى البيت الأول ، و « لقيا » فى البيت الثالث .

❋ ❋ ❋

ومن الملاحظ اللافتـــه للنظر أن الشاعر **كثير الاستعمال للأســـاليب الانشائية ،** بل ان الأساليب الانشائية قـــد تستغرق أغلب القصيدة وخصوصا

---

(١١٩) الديوان ١٥٩ .

ما كان منها طلبيا . ويكثر استعماله هـذه الأساليب فى حالة ارتفاع درجة انفعال الشاعر وتوهج عاطفته ، وأكثر ما يستعمله أفعـال الأمر والنهى . ولننظر الى قصيدة واحـدة هى قصيدة « **يا حيـاتى** »[١٢٠] وهى قصيدة من أربعة عشر بيتا ، وقـد استعمل فيها الشاعر اربعة عشر من هـذه الأفعال وهى على الترتيب :

[انظرى — اجعلى — أغمزينى — ابسمى — دعى — لا تناسـينى — افرضينى — انظرى — اتركينى — اجتلى — انظرى — أغرزى — اذبحينى — ادفنينى] . وكثرة من هـذه الأفعال تطرد فى كثير من قصائده .

وأعتقد أن هـذه السمة الفنية انما هى انعكاس لطبيعـة الشـاعر النفسية ... طبيعه الرجل العسكرى ، والمعلم الموجه ، وكلاهما وجهـان أو جانبان لشخصية تؤمن بوجودها وحقها فى « اصدار » التوجيه والارشاد .

ويقول نافع عبد الله[١٢١] « ويخيل الينا انه (عبد الرحيم) كان يحاول ايجاد التعادل بين عـدد الأفعـال الواقعة فى القصيدة الواحـدة ، وبخاصة بين الفعلين المـاضى والمضارع ، فهنـاك ما لا يقـل عن احـدى عشرة قصيدة فى ديوانه يتقارب عـدد الأفعال المـاضية فيها من الأفعال المضارعة وتتراوح النسب بينها على نحـو قريب ، كأن تكون مثلا ١٦ — ١٧ (وعـد بلفـور) ، أو ١٨ — ١٥ (شعب فلسطين) أو ٦ — ٧ (الى كل متهاود)

وهو استنتاج غالط من وجهة نظرى :

١ — لأن الشاعر الذى يتعمد ذلك لا يكون شاعرا ، وما ينظم اعتمادا على ذلك لا يكون شعرا .

٢ — وليس هناك ايه قيمة فنية لتحقيق هـذا التناسب او التقـارب بين عـدد هـذه الأفعال .

---

(١٢٠) السابق ١٧٠ .

(١٢١) نافع : الشاعر عبد الرحيم محمود ١٠٨ .

٣ — والكاتب لم يكن دقيقا فى هـــذا الاحصاء . فاذا ما نظرنا الى قصيدة « الى كل متهاود »[١٢٢] وجـــدنا فيها ٤ أفعال ماضيه — ٦ أفعال مضارعه ، وفعل أمر واحـــدا . والخطأ أفـــدح فى احصاء الأفعال فى قصيدة « شـــعب فلسطين » ففيها : ٢٧ فعلا ماضيا — ١٥ فعلا مضارعا — فعلا أمر . على أن الفعل المضارع المنفى بلم يدل على النفى فى المـــاضى وفى هـــذه الحال يجب أن يحصى ضمن الأفعال المـــاضية ، وفى القصيدة ثلاثة أفعال منفية بلم فتكون الأفعال الدالة على المـــاضى ٣٠ فعلا والدالة على المضارع ١٢ فعلا . والفرق واضح بين هـــذه الاحصائية واحصائية نافع السابقة .

❊ ❊ ❊

والشـــاعر يكثر من اســـتعمال التضـــاد من طبـــاقات ومقـــابلات وهـــو يستعمل هـــذا اللون البديعى استعمالا ناجحا دون تكلف أو تصيد . وقـــد وفينا هـــذه السمة حقها فى سياق حـــديثنا عن « المفارقة التصويرية » فى شعره ، فالمعروف أن المفارقة التصويرية تعتمد على أسلوب التضاد .

❊ ❊ ❊

ويستخدم الشاعر فى بعض قصائده **أسلوب الحوار** ، والحوار عنده يأتى من ناحيتى الكم والكيف على مستويات متعـــددة على النحو التالى :

١ — فقد يكون فى أبيات قليلة من قصيدة طويلة ، كذلك الحوار الداخلى فى آخر قصيدة « **الشهيد** »[١٢٣] .

٢ — وقد يستغرق القصيدة كلها كما نرى فى قصيدة «**مخلوقة أنت**»[١٢٤]

٣ — ومنه الحوار الخارجى كالقصيدة الســـابقة ، وهـــو ما يسمى

---

(١٢٢) الســـابق ١٢٩ .

(١٢٣) ديوان عبد الرحيم ١٣١ .

(١٢٤) الســـابق ١٧٦ .

« بالديالوج » . ومنه الحوار الداخلى أو « المونولوج » كقصيدة « **بينى وبين قلبى** »[١٢٥] .

يلاحظ ان أغلب حوار الشاعر يأتى فى القصائد الغزلية وكان موفقا فى بعضه ، ولكن قصيدته الحـــوارية « **نجوى المحتضرة** »[١٢٦] دون المستوى الفنى بكثير .

***

ومن المـــآخـــذ التى تسجل على لغة الشاعر وادائه التعبيرى :

١ ــ هبوط اسلوبه وتهافته احيانا حتى يكاد يكون اسلوبا عاميـــا . ومن الشواهد على ذلك :

يعـــلو عليـــــك واو وانت منـــــــه دون

واغمزينى فلقـــد طـــا ل انتظـــارى غمـــزاتك

قابلى الحسنى بعطـــف هـــكذا تقضى المحبـــة

ان تجـــد باب الأمانى مغلقـــا لا تكشر أو تلم من ســـكره

يا رب ذى وجـــد لقـــد ضمها فارتاح بالضمة ممـــا وجـــد

اغضضى أو ســـعرى خدك لى وخـــذى غيرى عشاقا جـــدادا

وهـــل ارتاحت قـــلوب شغف من سخيمات هبـــابا وسخاما

ألم تر أن الوحش يهبر بعضــــه وتعدو على مستضعفيه كواسره

وقالوا ثائر يبغـــــى اهتزاما لعالمهم فهـــل هـــــذا كلام ؟[١٢٧]

٢ ــ اخطاء لغوية ونحـــوية . ومن ذلك :

واذا الضـــلال له هنـــاك سرادق مضروبة عبـــدت بهـــا الأصنام

---

(١٢٥) الســـابق ١٧٩ .

(١٢٦) الســـابق ١٨٢ .

(١٢٧) أنظر بالترتيب الديوان ١٥٤ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٦٠ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، جرار ٢٧٠ ، ٢٩٧ ، الديوان ١٥٧ .

(انث كلمة : سرادق مع أنها مذكرة) .

غـــدا أرى غيرك لى وافيــــا   وأبدل انحب بحب جـــديد

[يقصد انه سيحل حبا جـــديدا بدل القـــديم ، ولكن الباء فى هـــذا الاستعمال لا تدخل — فى الأفصح الأغلب — الا على المتروك] .

من رأى أمى قـــد ساد على   كل هـــذى الناس عدلا وذماما

[والصحيح أميا . وعـــدم صرف المصروف ضرورة قبيحة] .

واذا نحن خرجنا فى غـــــد   هل يرجى النـــاس للأقصى بزورة

[والفعل يرجى عداه الشاعر بحرف مع انه يتعدى بدون حرف] .

وما باريس الا دار عهـــــــر   بهـــا وهـــن ومـــين لارشادا

[والصحيح لارشاد : يضم الدال لأن لا هنا نافية عاطفة] .

وطاوع نفسه وبهـــــا غرور   وتاه عن الهدى المثلى وحادا[128]

[والصحيح الأمثل ، لأن الموصوف وهو : الهدى مذكر] .

* * *

ويجنح الشاعر فى أسلوبه نحو السهولة والوضوح ، وان لم يخـــل شعره من بعض الألفاظ الغريبة ، وقـــد يلتوى بأسلوبه فى بعض الأحيـــان حرصـــا على الوزن والقافيه — كما سنعرف فى صفحات تالية . ولكننـــا نستطيع أن نقول — بصفة عامه — ان فكر الشاعر ومعانيه أعلى مستوى من أسلوبه ولغته ، وأن معجمه الشعرى أضيق حـــدودا وأقصر مدى من معجم صاحبيه : ابراهيم طوقان وأبى سلمى .

---

(١٢٨) انظر بالترتيب الديوان ١٤١ ، ١٧٦ ، جرار ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

كان القـدماء من علماء العربية لا يرون فى الشعر أمرا جـديدا يميزه من النثر الا ما يشتمل عليه من الأوزان والقوافى ، وكان قبلهم ارسـطو فى « كتاب الشعر » يرى أن الدافع الأساسى للشعر يرجع الى علتين : أولاهما : غريزة المحاكاة أو التقليد ، والثانية غريزة الموسيقا أو الاحساس بالنغم(١٢٩) .

ويرى صاحب العمدة أن الوزن أعظم اركان حـد الشعر وأولاها به خصوصية ، وهـو مشتمل على القافية وجالب لهـا ضرورة(١٣٠) . وبلغ من اعتزاز القـدماء بهـذا الجانب ان عرف بعضهم الشعر بأنه الـكلام الموزون المقفى ، ولكن « ابن طباطبا » — على الرغم من اعترافه بأهمية الوزن يرى — بحق — أنه لابد أن ينضاف الى هـذا العنصر المهم عناصر أخرى هى صحة المعنى ، وعـذوبة اللفظ(١٣١) . فاذا ورد عليك الشعر اللطيف المعنى الحلو اللفظ التام البيان المعتدل الوزن مازج الروح ، ولاءم الفهم ، وكان أنفـذ من نفث السحر ، وأخفى دبيبا من الرقى — واشـد اطرابا من الغناء(١٣٢) . ثم بدأ النقاد فى العصور المتأخرة يرون فى الشعر امورا أخرى يعبرون عنها بالصـور والأخيلة حينا ، ويصفونها بالعاطفة والانفعال النفسى حينا آخر(١٣٣) .

واذا كان هناك خلاف ضار بين اصحاب الشعر الخليلى ودعاة الشعر الحر ، فالذى لا ينكره احـد ، ويتفق عليـه الجميع أن الشعر لا يمكن ان يسمى شعرا ما لم يتوفر له عنصر الموسيقى وينحصر الخلاف بعـد ذلك ـه

---

(١٢٩) د. ابراهيم انيس : موسيقى الشعر ١٤ .
(١٣٠) ابن رشيق : العمدة ١/١٣٤ .
(١٣١) عيار الشعر ٢١ .
(١٣٢) السـابق ٢٢ .
(١٣٣) د. أنيس : السابق نفس الصفحة .

فى « حدود » هذه الموسيقا ومداها : وهل اساسها « البحر » أم التفعيلة ، والقافية الواحـــدة ؟ أم القافية المختلفة المتعـــددة ، على ما هـــو معروف ، مما يخرج عن نطـــاق بحثنا .

* * *

وقـــد استخدم عبد الرحيم محمود اغلب البحور الشعرية ، وكان البحر الكامل هـــو صاحب « النصيب الأوفى » فى شعره . ولسنا مع الذين يعطون كل بحر أبعادا معنوية ونفسية وايحائية يختص بها دون البحور الأخرى « **فالـــكامل** مثلا له نغمة خطابية ، وحلاوة انشاد . **والرمل** له رقة وعذوبة ، ونغم خفيف مطاوع يحلو لك ترويده والترنم به بخاصة اذا كان الشعر فى الصبابة والوجـــد والحرقة . **والمتقـــارب** تحس بموسيقاه الداخليـــــة ، وشحنته المؤثرة ، وطاقته الايحائية القادرة على نقل المشاعر والانفعالات ، بحيث يسهل عليك غناؤه . **والبسيط** فيه شىء من الانكسار . وهـــــدوء النفس لا سيما اذا كان الموضوع عن الحزن او التحسر والفراق . **والخفيف** يشتمل على السلاسة والسهولة وليونة المقاطع ... الخ »[١٣٤] .

ومثل هـــذه الأحكام مبالغة بل تهويل لا يعتد به نقـــديا ، وليس له قيمة عملية **لعـــدة أسباب تتلخص فيما يأتى :**

١ — أن الخلوص الى هـــذه الأحكام جاء من النظر الى بعض القصائد ، فهى ملامح مستخلصة من « القصيدة » لا « البحر » ، لأن البحر مجردا لا يمكن أن يعكس هـــذه الصفات .

٢ — انه حتى على الاعتبار السابق ، يقوم الحكم على استقراء ناقص . فغرض شعرى كالحماسة مثلا — وهـــو غرض يعتمد فى شكله على القـــوة والجزالة — استغرق على مدار التاريخ العربى كل بحور الشعر .

(١٣٤) نافع عبد الله : الشاعر عبد الرحيم محمود ١١٤ .

٣ — والشاعر المطبوع لا يضع البحر نصب عينيه ، وينسج عليـــه قصيدته ، انما الأمر — فى الأغلب الأعم — ان عملية النظم او الابداع الفنى تتم « فى غيبة البحر » الذى « توزن » به القصيدة بعـــد تمام عملية « الميلاد الفنى » ، « فالمطبوع — من الشعراء — مستغن بطبعه عن معرفة الأوزان ، وأسمائها ، وعللها لنبو ذوقه عن المزاحف منها والمستكره . والضعيف الطبع محتاج الى معرفة شىء من ذلك يعينه على ما يحاوله من هـــذا الشأن »[١٣٥] ، وذلك كالخطيب المطبوع يتدفق فى خطبته ببيان سليم ساحر ، دون أن يكون فى ذهنه القواعـــد النحوية التى تؤكد سلامة منطقه ، وصحة بيانه .

فمناسبة البحر للغرض ، ومدى اتساعه أو انقباضه ، وقـــوته أو رقته ، كل أولئك لا يقاس بهـــذا المعيار الحسابى الصارم ، انما مرجعها للشاعر ذاته ، والى شعره وعناصره الفنية وما فيه من صـــدق فى الاحساس وبراعة فى الخيال وعـــذوبة فى الألفاظ ..

ولنعـــد الى عبد الرحيم محمود ، ولنقتطف أبياتا مفردة من شعره فى غرض وأحـــد هـــو **الفخـــر** — جماعيا كان أو فرديا — على أوزان مختلفة ، ومن قصائد متعـــددة :

العرب ما خضعوا لسلطة قيصر ... يوما ولا هانوا أمام تجبر[١٣٦]

غايتى ألقى المنايا عاجـــــلا ... فى مجالى العلم أو ساح النضال[١٣٧]

فانا الفخور باننى لا ينتمى ... للعجم اخوالى ولا اعمامى[١٣٨]

ومن للحرب ان هاجت لظاها ... ومن الا كم قـــدح الزناد[١٣٩] ؟

---

(١٣٥) العمـدة ١/١٣٤ .
(١٣٦) ديوان عبد الرحيم ١٢٦ .
(١٣٧) الســـابق ١٣٢ .
(١٣٨) الســـابق ١٣٣ .
(١٣٩) الســـابق ١٤٧ .

فهــذه الأبيات من بحور أربعة مختلفة هى بالترتيب : الكامل ـــ الرمل ـــ الرجز ـــ الوافر . ومع ذلك فكلهـــا تلتقى فى قـــوة الجرس ، وجزالة الألفاظ وجلال العبارة وقـــدرة الايحاء . وكلها شواهد تؤيد ما ذهبنا اليه من أن البحر ـــ أى بحر ـــ ليس له « خصوصية » فنية مجردة ، انما الحكم لكل قصيدة على حـــدة . **فالرمـــل** الذى للحماسة عند عبد الرحيم ، اتسع كذلك للغزل فى بعض قصائده(١٤٠) .

* * *

وللقافية قيمة موسيقية فى مقطع البيت ، وتكرارها يزيد فى وحـــدة النغم ، ولدراستها فى دلالتها اهمية عظيمة . فكلماتها ـــ فى الشعر الجيد ـــ ذات معان متصلة بموضوع القصيدة ، بحيث لا يشعر المرء أن البيت مجلوب من اجل القافية ، بل تكون هى المجلوبة من أجله . ولا ينبغى أن يؤتى بهـــا لتتمة البيت ، بل يكون معنى البيت مبنيا عليها ، ولا يمكن الاستغناء عنهـــا فيه ، وتكون كذلك نهاية طبيعية للبيت ، بحيث لا يسد غيرها مسدها فى كلمات البيت قبلها(١٤١) .

وما قلناه عن البحور نقول مثله عن القافية ، فليس هناك حرف من حروف الروى له « خصوصية ذاتية مطلقة » كالقول مثلا بأن حروفا كالميم والراء والسين هى أنسب الحروف رويا للغزل ووصف الطبيعة . وحروفا كالقـــاف والصاد والضاد . هى الانسب للحماسة والهجاء .

واستقراء الشعر العربى ـــ قـــديمه وحـــديثه ـــ يرفض مثل هـــذه المقولة : فالميم مثلا كانت قافية أرق قصيدة للبحترى فى وصف الطبيعة ، وهى التى مطلعهـــا :

اتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا   من الحسن حتى كاد أن يتـــكلما

---

(١٤٠) انظر فى ديوان عبد الرحيم قصيدة يا غزالا ١٧٨ ـ وقصيدة : كبرياء الحب ١٨١ .

(١٤١) د. غنيمى هلال : النقد الأدبى الحديث ٤٧٠ .

كما كانت رويا لأقـــوى قصائد المتنبى واجزلها وأعمرها بالمعـــــانى الجليلة فى مدح سيف الدولة وشجاعته وحروبه ومنها ميميته المشهورة التى مطلعهـــــا :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم(١٤٢)

* * *

وقـــد رأينا عبد الرحيم محمود يعتد بالشكل التقليدى للقصيدة ذات الوزن الواحـــد والقافية الواحـــدة ... وان خروجه عن هـــذا الشـــكل كان فى نطاق المقطوعة وهـــو لا يعـــد تمردا أو تجـــديدا بالمفهوم الحـــاد . ولكنه من ناحية أخرى استخدم الألف اللينة رويا فى قصيدتين طويلتين همـــا قصيدة « الشهيد »(١٤٣) وقصيدة « طـــوفان سورية »(١٤٤) ، فوجـــدنا أبياته تنتهى بالكلمات الآتية : الردى . العـــدى . المنى . الحمى . الخطى . الصبا . البها . الثرى . الرؤى . فـــذا . لظى ... الخ .

واتخاذ الحروف اللينة رويا نادر فى الشعر العربى ، « والذى قـــد يضعف من اعتبارها رويا ، ويقلل من موسيقاها فى أسماعنا طبيعة القافيـــة العربية ، ومجيئها متحركة الروى فى غالب الأحيان ، فآذاننا قـــد تعودت أن تسمع بعـــد الروى حركة ، وحركة الروى قـــد تكون ضمة ، وقـــد تكون كسرة ، وقـــد تكون فتحة ، وقـــد اعتبرت هـــذه الحركة فى الوزن الشعرى بمثابة حرف مد »(١٤٥) .

ويرى الدكتور انيس أنه ليس هناك ما يمنع من وقوع حروف المد رويا لأنها تقـــوم مقام الحروف الأخرى وتؤدى الغرض الموسيقى منها(١٤٦) ولكن

---

(١٤٢) ديوان المتنبى ٩٤/٤ .

(١٤٣) ديوان عبد الرحيم ١٣١ .

(١٤٤) جرار : شاعران من جبل النار ٢٨١ .

(١٤٥) د. انيس : موسيقا الشعر ٢٥٧ .

(١٤٦) الســـابق ٢٥٦ .

الواقـــع يقـــول غير ذلك فشعور القارىء يكون دائما بالحرف الســـابق على الحرف اللين . ولنقرأ هـــذه الأبيات للشاعر :

بنفسى عقـــدا نظيمـــا يفض وشملا تبـــدد يلقـــى الردى
فمن صـــائح : يا أبى يا أبى ومن صارخ : واأخا .. واأخا
ومن لائذ بذيول الفــــــرار ولات فرار يزيل القضـــــــا

فالقارىء يحس أنه أمام ثلاث قواف مختلفة حروفها الدال والخاء والضاد لا قافية واحـــدة ... وذلك يجعل هـــذا اللون أقرب ما يكون من الشعر المرسل الذى رفع لواءه أو كبره الشاعر عبد الرحمن شكرى ولم يعمـــر طويلا . وربما لجـــأ عبد الرحيم محمود الى هـــذه القافية « الألفية » حلا .. أو مخرجا من مشكلته مع القافية . كما ستعرف بعد قليل .

***

وموسيقا عبد الرحيم وان كانت ترتبط جهارة وهمسا بطبيعة الفكرة أو الموضوع فى بعض الأحيان كما رأينا فى الأبيات التى تمثلنا بها من قصيدة فى « العيد » ، الا أن موسيقاه ــ بصفة عامة يغلب عليها الجهارة والرنين العالى ، ومثل هـــذا الشعر يروق فى الأسماع والشاعر ملقى منشورا اكثر منه مقروءا ، وهـــذه الجهارة ملحوظة حتى فى شعر الغزل ، وجرس الألفاظ يلعب دورا كبيرا فى هـــذا المجـــال . وترجـــع هـــذه الجهـــارة الى طبيعته الشخصية التى شرحنا أبعادها فى الفصل الثانى ، ويضيف أحـــد النقاد(١٤٧) عاملا آخر وهـــو طبيعة المرحلة التى عاشها الشاعر ، تلك المرحلة التى كان الشعر فيها هـــو ميدان الخطابة الأمثل ، وسلاحا مهما من أسلحة النضال .

ومن أهم الوسائل والأدوات الموسيقية عند عبد الرحيم أسلوب المقابلة وحسن التقسيم .. والأمثلة على ذلك كثيرة منها قوله :

---

(١٤٧) الياس خورى فى مجلة « فلسطين الثورة » السنة الثانية العدد ٣١٤ سنة ١٩٨٠ .

فاما حيـــاة تسر الصــديق	**واما ممات يغيظ الاعـــدا[١٤٨]**
أشاع الجمـال بقبح الحيـاة	**وافشى الحياة ببالى الرمم[١٤٩]**
كـلام العظيم عظيم الـكلام	**فعـز العظيم وعـز الكلم[١٥٠]**

❊ ❊ ❊

ويظهر أن عبد الرحيم كان يحاول النظم أحيانا دون أن يتوفر له الجو النفسى المناسب والتوهج العاطفى المطلوب ، فكان الشعر يستعصى عليه ، أو كان يشعر أنه بما نظم لم يف بالمنشود المرجو . وهـو يرجـع ذلك الى هزيمته أو ضعف قـدرته امام القافية ، فهو يشكوها فى حسرة ومرارة فى أكثر من موضـع ، فأحيانا يصف قوافيـه بالقحط[١٥١] . ويرى ان عجزه أمام القافية هـو سر عجزه وامتهانه ، فيقول :

انظم الشعر من عـذابى فابكى	**والقوافى مذلتى وامتهـانى[١٥٢]**

ويشرح سر عـذابه هـذا بشىء من التفصيل فيقول :

أرى المعنى بقلبى جـد واف	**وان انظمه يصبح غـير واف**
فأبحث عـن بقـاياه فالقى	**بقـاياه بأسنان القـوافى[١٥٣]**

ان معانيه حبيسة فى نفسه ، وهى معان وافية قيمة ، وهـو يحرص على التعبير عما فى نفسه ، ولكنه أمام قهر القافية وعجزه أمامها مكره الى التضحية ببعض ما عنده من افكار ومعان .

وهـو نقـد ذاتى يعتمد على صراحة تحمد للشاعر ، فهو يعبر عن واقع فنى فعلى عاشه وعانى منه . وهـذا الواقع **يقرر انه لم يكن موفقـا**

---

(١٤٨) الديوان ١٣١ .
(١٤٩) وليد جرار ٢٦٧ .
(١٥٠) السـابق ٢٦٩ .
(١٥١) انظر قصيدته : رثاء حمال فى ديوانه ١٦٢ .
(١٥٢) السـابق ١٦٤ .
(١٥٣) السـابق ١٥٨ .

فى كثير من قوافيه ، وأن شعره لم يتنزه عن عيوب القافية ، ومن هــذه العيـــوب :

١ — كلمات مجلوبة للقافية : وهى كلمات تنتهك البلاغة العربية ، بل غالبا ما تكون تافهه المعنى متهافتة المضمون . كما نرى فى مدحـــه للشيخ « محمـــود حنـــون » .

وان به لمـــا يجـــدى بلادا — وان به لمـــا يهـــدى ضـــلالا
نودعـــه وفى المرغـــوب الا — نودعـــه ولكن لا مـــلالا(١٥٤)

ويقول فى حـــديثه عن دمشق :

انسلم للعـــداة وقـــد اقاموا — قيـــامة جلق ودع البـــلادا
هبيهم دمروا ورموا شـــواظا — فهل يجدى توحشهم مفادا(١٥٥)

ويقول فى قصيدته عن النيل :

من فنـــه كمـــل الجمـــال — ورام عن نقص يشوبه(١٥٦)

ويقول عن سياسة الزعماء ولجوئهم الى الكلام والخطب :

وما الخطب الطوال الحمس الا — مصايد للظهـــور وليس الا(١٥٧)

* * *

٢ — الاقـــواء وهـــو مخالفة حركة القافية . كما نرى فى البيت التالى :

ان فيكم لبقـــايا طيبـــــات — لم يزل فى الدم مجراها وخيره(١٥٨)

---

(١٥٤) جرار ٣٠٨ ·
(١٥٥) الســـابق ٢٨٤ ·
(١٥٦) الســـابق ٢٨٥ ·
(١٥٧) الســـابق ٢٥٣ ·
(١٥٨) الديوان ١٥١ ·

فلابد نحـويا من رفع الراء فى كلمة (خيره) وهـذا يخالف النصب وهـو حركة الراء فى كل القصيدة[159] ومطلعها :

يوم مجد فات ما أجمل ذكره   فيه لو نفطن آيات وعـبره

***

٣ — السناد : وهـو اختلاف القوافى نحو : نقيب وعيب — قريب وشـيب[160] .

وهـذا العيب فى القافية كثير الورود فى شعر عبد الرحيم . ومنه :

ويسجد طائعـا لله زورا   نظيف الردن مسبول اليـدين
وليس يعف عن مال اليتـامى   ولا عن عرس مسكين مدين[161]

ومن ذلك ما جاء فى قصيدته « **انشودة التحرير** »[162] :

من جـديب الصـحراء أوفى علينـا الخصب من فيض حـق وخـير

على الرغم من المد بالواو أو الياء قبل حرف الروى وهـو الراء وذلك على النحـو التـالى :

ان ايامنا ابتسامة ثغـر   لم يدر مثلهـا بثغر الدهـور
نشرت ميت الأمـانى وأحيت   أملا عارما بقلب كسـير

***

وبعـد هـذه المسيرة مع فن الشاعر الشهيد ... لا ازعم اننى قـد قلت الكلمة النهائية فى هـذا الفن .. فذلك ما يختلف فيه التقـدير ، وتختلف فيه زوايا النظر ووجهاته . غـير أنى أعتقـد أن هـذا الجانب التقييمى لا يستوفى حقة الا بوقفة متانية مع الشاعرين مجتمعين ... مع الأسـتاذ والتلميذ .. مع الصـديق والصـديق .. مع ابراهيم طوقان وعبد الرحيم .. فى الفصل السادس والأخير ... وبه ينتهى البحث .. ولكن لا ينتهى الـكلام .

---

(١٥٩) الهاء هنا ليست رويا لعـدم توفر شرطيها وهما : أن تكون أصلا من أصـول الكلمة وجزءا من بنيتها (مثل يتوجه — يتأوه — يقهقه) وأن يسبقها حرف مد (مثل : نكراه — انساه) والا صار الحرف الذى قبلها هـو الروى [أنظر أنيس ٢٥٣ — ٢٥٦] .

(١٦٠) المرزبانى : الموشح ١٨ .

(١٦١) جرار ٣٢٦ .   (١٦٢) الديوان ١٤٥ .

الفصل السادس

بين الشاعرين عبد الرحيم وابراهيم طوقان

وجـوه شـبه والتقـاء ...

لا يستطيع دارس لعبد الرحيم محمود وشعره أن يمر مرورا عابرا بما بين الشاعرين : عبد الرحيم محمود وابراهيم طوقان من تلاق واضح فى كثير من الاتجاهات والطوابع النفسية والاجتماعية والظواهر الموضوعية . ولاعجب فى ذلك فقـد تتلمذ عبد الرحيم على أستاذه ابراهيم فى كلية النجاح ، وكان الأستاذ معجبا بتلميذه وما ينظمه من شعر ، وارتقت الرابطة بينهما الى صداقة حميمة لم تنقطع .

وعاش كلاهما اهم الأحـداث واخطر الظروف التى هبت على وطنهما الحبيب ، وكان شعرهما شاهدا على العصر .. يعكس أهم ما وقـع على الساحة الفلسطينية . ومن عجـب أن يعيش الشاعران عمـرين يكادان يتساويان[1] . وكان ابراهيم ملء الأسماع والأبصار وخصوصا بعـد قصيدته « الثلاثاء الحمراء » .

ولا نكاد نجـد كاتبا يؤرخ للشعر الفلسطينى قبل النكبـة الا وذكر عبد الرحيم محمود مرتبطا بابراهيم طوقان ، وقـد تتسع الدائرة قليـلا

---

(١) ولد ابراهيم طوقان سنة ١٩٠٥ ، ومات سنة ١٩٤١ . وولد عبد الرحيم سنة ١٩١٣ واستشهد سنة ١٩٤٨ . فابراهيم عاش ٣٦ سنة ، وعاش عبد الرحيم ٣٥ سنة .

لتشمل أبا سلمى (عبد الكريم الكرمى) . وعبد الرحيم « يأتى فى المرتبة الثانية بعد ابراهيم طوقان فى هذا الباب من القول ، ولكنه فوق جميع الذين قالوا لأنه كان من المجاهدين الشهداء »(٢) .

وقد رأينا كيف كانت فلسطين وطنا وشعبا وكفاحا ومعاناة هى المحور الأساسى الذى دار حوله شعر عبد الرحيم ، كذلك كان الشعر الوطنى هو الغرض الغالب على الأغراض الأخرى عند ابراهيم طوقان . وكان شعره الوطنى — كما تقول شقيقته فدوى طوقان : يحمل طابعا فلسطينيا خاصا كان حتما أن تطبعه به أحوال بلاده المضطربة فى هذا العهد المظلم من عهود فلسطين ، وما كان ابراهيم ليفوز بلقب شاعر الوطن وشاعر فلسطين لو لم يسجل قضية بلاده فى شعره القومى الذى يمتاز بذلك الطابع الفلسطينى الخاص ، ولو لم تنعكس فى ذلك الشعر اصدق صورة لهذا الوطن فى ذلك العهد(٣) . فكان شعره بحق سجلا تاريخيا للأحداث ، وتعبيرا صادقا عن الشعب وارادته ، وتمجيدا لبطولته وبذله وفدائه(٤) .

فى هذا الجو الاجتماعى والسياسى الواحد عاش الشاعران بمنازع ومشارب تتشابه وتلتقى فى كثير من المناحى والوجهات . وطبيعة البحث تقتضينا شيئا من تفصيل هذه الوجوه بعد هذا التعميم وذاك الاجمال .

* * *

بيئة البيت وطبيعة التربية :

نشأ كل منهما فى بيئة دينية محافظة ، ونهل كل منهما فى صباه من مناهل الأدب العربى الأصيل ، وبيان القرآن الكريم والبلاغة النبوية ، والتراث العربى . فكان من اكبر الأسباب التى أعانت ابراهيم طوقان على أن يقول الشعر فيجيده بالقياس الى صغر سنه هو كثرة حفظه الشعر المنتخب ، واحتفاله الكبير بالقرآن الكريم ، فقد كان كثير التلاوة له ، عميق النظر فيه ، وذلك يرجع بدواعيه وأسبابه الى بيئة فى البيت يعنى أصحابها بتنشئة

(٢) عمر فروخ : شاعران معاصران . هامش ١٠٤ .

(٣) أخى ابراهيم (فى صدر ديوان ابراهيم طوقان) ٣٢ .

(٤) هارون هاشم رشيد : الكلمة المقاتلة فى فلسطين ١١ .

اطفالهم على تلاوته ، والتشبع بروحه ، ولم ينفك ابراهيم منذ صغره يقرأ القرآن ، ويطيل التأمل فيه حتى اصبح له ذلك دينا لا يعوقه عنه عائق ، ولا يصرفه عنه تقلبه فى مختلف معاهـــد العلم الأجنبية فيما بعـــد . ولم تكن تلاوته لقرآن الكريم تلاوة سطحية عابرة ، بل كان يتجه اليه بقلبه وروحه ، ويحس له فى نفسه وقعا عجيبا ، وأثرا بعيدا ، فيهزه اعجازه هزا ، وتفعل فيه بلاغته فعل السحر ، ويستولى عليه خشوع عميق يصرفه عن كل ما يحيط به(٥) .

وحينما عمل مراقبا للقسم العربى باذاعة القـــدس سنة ١٩٣٦ ، وعلى مدى أربع سنوات كانت كل أحاديثه تعتمد على محاور ثلاثة : الآية القرآنية ، والحـــديث الشريف ، والمثل المشهور(٦) . وكان من الطبيعى — وقـــد نشأ ابراهيم مثل هـــذه النشأة ، وعاش بمثل هـــذا الحب للقرآن ، والعكوف عليه — أن نسمع وجيب القرآن ، ونشهد بصمات أسلوبه العظيم وتراكيبه وتشبيهاته وصوره فى كثير من قصائده ، ونسوق فيما يأتى بعضا من هـــذه الشـــواهد :

فمن الصور القرآنية الرائعة التى صورت جمود الكفار وتبلد شعورهم ، وصـــدهم عن الاستجابة للحق قوله تعالى :

« .. ثم قست قلوبكم من بعـــد ذلك فهى كالحجارة أو أشـــد قسوة ، وان من الحجارة لمـــا يتفجر منه الانهار ، وان منها لمـــا يشقق فيخرج منه المـــاء ، وان منها لمـــا يهبط من خشية الله »(٧) .

ونرى بصمات هـــذه الصورة الأخاذة فى قول ابراهيم طوقان مصورا قساوة المستعمر وظلمه الغاشم :

انى لشاك صـــوته أن يسمعا	**انى لباك دمعه أن ينفعـــا**
صخر أحس رجاءنا فتصـــدعا	**واتى الرجاء قلوبهم فتقطعـــا**

(٥) انظر فـدوى طوقان السابق ١٥ ــ ١٦ .

(٦) المـــسابق ٣٣ .

(٧) البقـــرة ٧٤ .

لا تعجبوا فمن الصخور نبع يفور
ولهم قلوب كالقبور بلا شعور[8]

وهؤلاء الذين لا يحسون بما يعانيه وطنهم من مواجع وآلام ، بل كل همهم الحرص على دنياهم والمظهر الكاذب ... هؤلاء يراهم ابراهيم غير جديرين بشرف الرجولة بعد أن ماتت قلوبهم ومشاعرهم ، فهم :

حسبوا فى الرجال هل كانت الأنعام الا لمثلهم اشباها[9]

وهو تشبيه ورد كثيرا فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى :

اولئك كالأنعام بل هم اضل ، اولئك هم الغافلون[10]

ومن الألفاظ والعبارات القرآنية فى شعره ما نراه فى الأبيات الآتية :

اليوم يشرب موطنى كاس الهناء لكم دهاقا[11]
بالعاديات لدية ضبحا والأسنة فى اللبان[12]
وثم وحش فمه دامى الزبد فى جيده حبل غليظ من مسد[13]

واوضح من ذلك وأدل ما نراه من هيمنة سورة كاملة هى « **سورة الرحمن** » على قصيدة طويلة كاملة تزيد على الأربعين بيتا هى قصيدة « **حطين** »[14] . ونحس بعبق السورة يسرى فى أعطاف القصيدة : فقافيتها هى النون ، وهو الحرف الذى تنتهى اليه الفواصل فى السورة ، وآيات السورة قصيرة ، والشاعر قد اختار لقصيدته بحرا مجزوءا وكلمات ذات جرس متنوع فى رسم الجو المنشود .

---

(٨) ديوان ابراهيم ٤٥ .
(٩) السابق ٥٨ .
(١٠) الأعراف ١٧٩ . وانظر الفرقان ٤٤ – ومحمد ١٢ .
(١١) ديوان ابراهيم ٥٢ – وانظر النبأ ٥٤ .
(١٢) ديوان براهيم ٧٣ – وانظر العاديات ١ .
(١٣) ديوان ابراهيم ٢١٠ . وانظر المسد آية ٥ .
(١٤) ديوان ابراهيم ٧٢ .

وتتدفق الكلمات والعبارات القرآنية فى القصيدة تنطق بتمكن الشاعر من لغته بشاعرية فذة فائقة . ونقتطف من القصيدة بعض الأبيات الدالة على هذا التأثر وهيمنة السورة على القصيدة بجوها وجرسها وألفاظها[١٥] .

يا باكى الفيحاء[١٦] حين أبت تقيم على الهوان
أيام كانت وردة بدم البواسل كالدهان
البيت مما قلته فيه تخايل جنتان
أبدا رثاؤك فيهما عينان دمعا تجريان
هذا وان جناهما للصعب فاعجب وهو دان
ترمى بمارجها وما غير العجاجة من دخان
وسيوفهم ماء الحميم على مضاربهن آن[١٧]

وهيمنة السورة بروحها وتراكيبها وجرسها على القصيدة تنم — كما تقول فدوى طوقان — على أن معرفة ابراهيم بالقرآن كانت معرفة بعمق ومعايشة ، وأن تلاوته له « لم تكن تلاوة سطحية عابرة ، بل كان يتجه اليه بقلبه وروحه » .

وللأثر النبوى الشريف كذلك بصمات على شعره ، ونجتزىء هنا بمثال واحد . يقول ابراهيم مخاطبا أحمد شوقى :

جبريل ينفخ فى فؤادك ما يفيض على اللسان
وأمد بالنفحات روحك حين طوف بالجنان[١٨]

فهو فى هذين البيتين يشير الى ما جاء فى الأثر من اختيار النبى — عليه السلام — لحسان بن ثابت لكى يكون الشاعر الذى يذب عن الاسلام

---

(١٥) المخاطب بهذه القصيدة هو أحمد شوقى . وقد نظمها ابراهيم يوم عزم شوقى على زيارة فلسطين ، ولكن الزيارة لم تتم . وفى القصيدة يحاول ابراهيم اثارة شوقى لينظم شعرا فى فلسطين وقضيتها

(١٦) يشير الى قصيدة شوقى القافية فى نكبة دمشق .

(١٧) ارجع الى سورة الرحمن وبخاصة الآيات ١٥ ، ٣٧ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٥٤ .

(١٨) ديوان ابراهيم ٧٢ .

بلسانه ، ويهجو الكفار ، ويبرز مثالبهم ونقائصهم قائلا له « **اجب عنى ، اللهم أيده بروح القــدس** »[١٩] .

وفى تضاعيف شعر ابراهيم غير قليل من الطوابع والقيم والعبارات الدينية كما نرى فى الأبيات التالية :

لا ترج عفــوا من ســواه ... هــــو الالــــه
وهــو الذى ملكت يداه ... كـــــل جــــاه
جبروته فوق الذين يغرهم ... جبروتهم فى برهم والأبحر[٢٠]

* * *

واخيرا نرى فى شعر ابراهيم آثارا من مقروءاته فى الأدب العربى القديم لفحول الشعراء . فقوله :

بالعــاديات لــــديه ضجــــا ... والأســـــنة فى اللبـــان[٢١]

يذكرنا بقول عنترة فى معلقته :

يدعون عنتر والرماح كانهـــا ... اشطان بئر فى لبـــان الأدهم[٢٢]

كما نحس بروح أبى فراس الحمدانى اذ يقول :

معللتى بالوصل والموت دونه ... اذا مت ظمآنا فلا نزل القطر[٢٣]

---

(١٩) انظر تاريخ الأدب العربى للزيات ١٥٢ . وانظر كذلك : صحيح مسلم كتــــاب « فضائل الصحابة » المجلد الخامس ١٥٣ .

(٢٠) ديوان ابراهيم ٤٩ .

(٢١) ديوان ابراهيم ٧٣ .

(٢٢) شرح المعلقات السبع للزوزنى ١٥١ (والأشطان : الجبال - جمع شطن . واللبـان هـو الصـدر) .

(٢٣) ديوان أبى مراس الحمدانى ٢١٠ .

تسرى فى أعطاف قـول ابراهيم طوقان :

ايا وادى الرمـان لا طبت واديا — اذا هى لم تنعم بظلك سرمدا
ويا وادى الرمان لا ساغ طعمه — اذا انا لم امدد لذاك الجنى يدا[24]

❋ ❋ ❋

وكذلك نشأ عبد الرحيم محمود ــ كما عرفنا ــ فى بيت أدب وعلم ودين من أب فقيه متدين شاعر ، وعاش عبد الرحيم متدينا يعتز بذوى العلم والدين والجهاد من امثال عز الدين القسام وعبد الرحيم الحاج محمد ومحمود حنون ، وقـد رأينا كيف تأثر بالقرآن الكريم ، وكيف رصع شعره بكلماته وعباراته الوضـيئة . فكان هـذا وجـه الشـبه الأول بين الشـاعرين ابراهيم وعبد الرحيم .

الشاعران وقضية العصر :

وكما ألمحنا من قبل كانت قضية فلسطين شغلا شاغلا للشاعرين ، وقـد استغرقت كثيرا من قصائدهما ، وتعـددت الجوانب والموضوعات التى تناولها الشاعران مرتبطة بهـذه القضية ، وكان شعرهما مطبوعا بالطابع الفلسطينى الحاد ، وان لم يعـدم الطوابع الانسانية العامة التى تجعل من قضية فلسطين جزءا من كيان انسانى مظلوم .

وارتبط شعرهما فى القضية بالأحـداث التى كانت تتوالى تترى على الأرض الفلسطينية ، فكان سجلا للواقـع الفلسطينى بجوانبه السياسية والاجتماعية والنضالية . ويلتقى الشاعران ويتشابهان فى غير قليـل من القصائد تشابها يكاد يكون توأميا فى تناول هـذه الموضوعات ، وفى المضامين الفكرية ، وفى القيم الشعورية ، فنرى عبد الرحيم محمود قبل النكبة بثلاثة عشر عاما ، وقبل سقوط القـدس فى يد اليهود باثنتين وعشرين سنة يرى

(٢٤) ديوان ابراهيم ١١٠ .

ببصيرة نافـــذه ، وشعور عميق ضياع المسجد الأقصى ، واستباحة اليهود لحرمه ، وسلبهم ارض فلسطين فيقول مخاطبا الأمير بسعود سنة ١٩٣٥ :

المســجد الاقصى اجئت تزوره ام جئت من قبل الضياع تودعه ؟
حرم تبــاح لكل أوكع آبــق ولكل افاق شريد اربعــــه

ويعيش ابراهيم طوقان برؤية شعرية قادرة هــذا المستقبل الفاجع الذي ينتظر وطنه ، ويلح على المعنى نفسه فى عــدد من القصائد محــذرا ومنذرا وقارعا ناقــوس الخطر الذى يؤذن بالنكبة المــاحقة فهــو يرى أن المستقبل القريب :

فيـــه الرحيـــل غـــدا الى وادى الفنــــاء
فاليــــوم أمرح كاســـيا وغــدا سانبذ بالعــراء(٢٥)

ويصرخ الشاعر بقومه النوم اللاهين الذى شغلوا عن القضية بالخلافات والصراعات من اجل حزبية بغيضة ومناصب تافهة :

يا قــوم ليس عـــدوكم ممــن يلـــين ويرحم
يا قــوم ليس أمامــــكم الا الجـــلاء فحــزموا(٢٦)

وقــد اتسعت رؤية الشاعر فتنبأ بهــذا المصير الأسود لا للفلسطينيين فحسب ، بل للعرب جميعا بعــد أن شغلوا عن الجــد بالعبث ، وعن اعدائهم بأنفسهم ، فكان ما كان ممــا نعرفه جميعا :

أمامك أيهـــا العربى يوم تشيب لهوله سود النــواصى
وانت كما عهدتك لا تبالى بغير مظـــاهر العبث الرخاص
مصــيرك بات يلمسه الأدانى وســار حــديثه بين الأقاصى
فلا رحب القصور غــدا بباق لساكنها ولا ضيق الخصائص(٢٧)

---

(٢٥) ديوان ابراهيم ٦٠

(٢٦) السابق ٨٨

(٢٧) السابق ٩٣ • وانظر كذلك ٥٥ ، ٥٧ ، ٨٩ •

ولعل نبوءة الشاعر هنا قد تحققت فيما نراه من تمزق الصف العربى ، والصراع الدامى بين العرب بعضهم بعضــا ، وانشغالهم بعبث الحياة وتفاهتها ممــا جعل اسرائيل تعربد كمــا تشاء ، وتضرب كيفما واينما تريد •

الزعماء الجوف ومسئولية الضياع :

وكلا الشاعرين كان صرخة مدوية ، وروحا رافضة متمردة على كل ما يسىء الى القضية الأم ... قضية فلسطين التى ظهرت مقدمات نكبتها وارهاصات ضياعها فى حياة الشاعرين ، فحمل كل منهما حملات ضارية على المتواكلين من ابناء الشعب ، ولكن الحملة كانت أشد وأعتى على الزعماء الذين شغلوا بانفسهم ، وبالتفاهات وبالتطاحن والمظهرية الجوفاء عن الوطن الذى كان يذبح على مرأى منهم[٢٨] دون تقدير عملى لخطورة الموقف الذى كان يجب أن يلقى من هؤلاء الزعماء نفوسا متماسكة ، وقلوبا متحدة لمجابهة العدو ، ولكن الوضع المؤسف كما يقول عبد الرحيم محمود :

انا بايدينا جرحنا قلبنا — وبنا الينا جاءت الآلام
والخطب فرقنا قبائل جمة — والخطب عند عداتنا لمام[٢٩]

ويصور ابراهيم طوقان ملامح هؤلاء الزعماء الجوف : فهم رجال خطابات منمقة ، وأبطال احتجاجات ومظاهرات وهتافات[٣٠] . وهم قد فرطوا باهمالهم فى قضية الوطن ، وضرموا الأحقاد بين ابنائه[٣١] . لذلك يتهكم الشاعر تهكما مرا على هؤلاء الزعماء « المخلصين !! » و « أفضالهم !! » الجمة على الوطن من اجتماعات واحتجاجات ، ويعترف لهم بهذه « الأيادى » وتلك « الأفضال » :

ما جحدنا افضالكم غير أنا — لم تزل فى نفوسنا امنيه

فى يدينا بقية من بلاد — فاستريحوا كى لا تطير البقيه[٣٢]

---

(٢٨) انظر ديوان عبد الرحيم محمود ١٤١ ، ١٤٧

(٢٩) السابق ١٤٢ .

(٣٠) انظر ديوان ابراهيم ٧٩ .

(٣١) انظر السابق ٨٢ .

(٣٢) السابق ٨٣ .

وكأنما قــد يئس الشاعر يأسا مطلقا من تقويم هؤلاء الزعماء ، وسيرهم على جادة الصواب ، واحساسهم بآلام الشعب وخطورة القضية ، فانصرف بكل قــوته الى تحــذير أبناء الشعب منهم حتى لا يظلوا ضحية منكوبة بهم :

فالى متى يا ابن البــلاد	وانت تؤخـــذ بالحماســة
والى متى زعمــــاء قـــو	مك يخلبــونك بالكياســة
ولــكم احطنــا خائنــا	منهم بهــالات القداســة
ولــكم اضــاع حقوقنـــا	الرجل الموكل بالحراســة
والله ليس هنــاك الا	كــل قنــاص الرياســة
تاتيــه من بيــع البـــلا	د وما اليه من الخساســة[٣٣]

انها نفس الصورة التى أبرزها عبد الرحيم محمود فى شعره وخصوصا قصيدته « الى كل متهاود »[٣٤] والتى كثف خلاصتها فى النهاية مخاطبــا شــعبه المنكوب :

يا شــعب يا مســكين لــم	تنــكب بنــكبتك الشعوب
قلــدت امرك من بهــم	لا يرجــع الحــق الغصيب[٣٥]

وقــد تعرض أغلب الشعراء الفلسطينيين آنذاك لهــؤلاء الزعمـــاء بقوارص القــول ، غير ان ابراهيم طــوقان كان أكثرهم الحاحا على هــذا الموضوع من غيره[٣٦] .

وتتوالى المؤامرات والأحــداث الدامية على الشعب الفلسطينى تنفيذا لمخطط الاستعمارى الصهيونى الذى دبر وخطط بليل ، وكان من استهلالاته الغــادرة الخسيسة « وعــد بلفــور » فى ٢ من نوفمبر ١٩١٧ ، والــذى بمقتضاه اعطى من لا يملك حقا لمن لا يستحق » وذلك على حساب اصحاب الأرض والبلاد الأصليين .

---

(٣٣) الســـابق ٦٣ .
(٣٤) ديوان عبد الرحيم محمود ١٢٩ .
(٣٥) الســابق نفس الصفحة .
(٣٦) خالد على مصطفى : الشعر الفلسطينى الحــديث ٢٩ .

وكان لشاعرينا ما نعيابه على غــدر المستعمر الانجليزى بهذا الوعد بعــد أن ضحى العرب ما ضحوا فى الثورة العربية الكبرى ضــد الأتراك ســنة ١٩١٦(٣٧) .

البطــولة والأبطــال :

وكان للبطولة والأبطال والتضحية والفــداء مكانها الأسمى فى شعر الشاعرين ، فينظم ابراهيم طوقان قصيدته الملحمية الرائعــة « الثــلاثاء الحمراء » فى الشهداء الثلاثة حجازى وجمجوم والزير الذين شنقهم الانجليز لاشتراكهم فى ثورة ١٩٢٩(٣٨) وينظم قصيدة « الشــهيد »(٣٩) فى الذكرى الرابعة لهؤلاء الشهداء(٤٠) وينظم كذلك رائعته « الفــدائى »(٤١) . وهى تدور فى نفس الفلك الذى تسبح فيه قصيدته « الشهيد » .

وينظم عبد الرحيم قصــيدته « الشــهيد »(٤٢) ، وقصــيدته « مــوت البطــل »(٤٣) .

وكانت كل هــذه القصائد تعبيرا صادقا عن احساس عميق بقيمة البطولة والفــداء والتضحية بالنفس ، والوفاء للوطن ، والاستهانة بالأخطار فى سبيل تخليصه . وعلى الرغم من أن هــذه القصائد قــد نظمها الشاعران فى مناسبات تاريخية معروفة الا أنهما استطاعا ببراعة أن ينطلقا من هــذا المحــدود التاريخى الى آفاق انسانية عليا أوسع مدى من « الحدث المحدود » والواقع المشهود بحيث تصبح « واقعة » الفــداء او الاستشهاد مثلا أعلى ،

---

(٣٧) انظر ديوان ابراهيم طوقان ٨٢ . وانظر قصيدة « وعد بلفور » لعبد الرحيم محمود فى ديوانه ١٢٩ .

(٣٨) ديوان ابراهيم ٤٢ .

(٣٩) الســابق ٤٠ .

(٤٠) فدوى طوقان : اخى ابراهيم : السابق ٢٩ .

(٤١) ديوان ابراهيم ٦٩ .

(٤٢) ديوان عبد الرحيم ١٣١ .

(٤٣) الســابق ١٣٤ .

ومبدأ جليلا تحتذبه الشعوب التى تتطلع للحرية وتستشرف حياة الكرامة والشرف :

لعمرك هــذا ممات الرجال ومن رام موتا شريفــا فــذا[٤٤]

ولا يعــد الممات شهادة ما لم يرتبط بسمو الهــدف ونبل الغاية ، ومن يحرص على الفــداء وسلوك طريق الشهادة يجب أن تكون :

نفســـه طـــوع همـــة وجمــت دونهـــا الهمم
وهى من عنصر الفـــدا ء ومن جـــوهر الــكرم
ومن الحـــق جـــذوة لفحهـــا حـــرر الأمم[٤٥]

ليس هــذا فحسب ، بل يلتقيان فى كثير من المعانى والأفكار الجزئية . منها على سـبيل التمثيل :

يقول ابراهيم طوقان فى قصيدته « الشهيد » :

عبس الخطب فابتســـم وطغى الهــول فاقتحم[٤٦]

ويقول عبد الرحيم فى قصيدته « الشهيد » :

وبان على شفتيه ابتســام معانيه هزء بهذى الدنى[٤٧]

ويقول ابراهيم طــوقان :

ورمى النـــار فى القــلو ب فمـا تعرف الضغن[٤٨]

ويقول عبد الرحيم محمود :

بقلبى سارمى وجــوه العــدا وقلبى حــديد ونارى لظى[٤٩]

---

(٤٤) ديوان عبد الرحيم ١٣١ .
(٤٥) ديوان ابراهيم ٤٠ .
(٤٦) السـابق ٤٠ .
(٤٧) ديوان عبد الرحيم ١٣١ .
(٤٨) ديوان ابراهيم ٤١ .
(٤٩) ديوان عبد الرحيم ١٣١ .

ويقول ابراهيم طـوقان :

صـعد الـروح مرسـلا لحنـــه ينشـد المـلا[50]

ويقول عبد الرحيم :

اذا قلت اصغى لى العـالمون ودوى مقـالى بين الورى[51]

ويستهل ابراهيم قصيدته « الفـدائى » بهـذا البيت :

لا تسـل عـن سـلامته روحـه فـوق راحتـه[52]

ويستهل عبد الرحيم قصيدته « الشهيد » بالبيت التالى :

ساحمل روحى على راحتى وألقى بها فى مهاوى الردى[53]

* * *

العربية الفصحى :

ويلتقى الشاعران كذلك فى عشق العربية الفصحى ، والوفاء لهـا ، والدفاع عنها ضـد المؤامرات التى حيكت وتحاك لهـا بأيدى الأعـداء من المستعمرين،وأيدى الأدعياء من ابنائها الذين يترسمون خطا الغرب والفرنجة. وقـد أشرنا فى معرض حـديثنا عن مسيرة الشـاعر عبد الرحيم محمود الى مدى اعتزازه بالفصحى ، ودفاعه عنها ، ونعيه على « العربى » الذى يطعم كلامه ببعض الكلمات الأجنبية ، مـع أن العربية غنية كل الغنى بألفاظها التى تلبى حاجات الحياة والعلم والحضارة . ويبلغ اعتزاز عبد الرحيم بالعربية الفصحى أنه يرى ان استعادة العرب لمجـدهم ومكانتهم السلبية تتـوقف بادىء ذى بدء — على تمسكهم بلغتهم ، واعتزازهم بهـا ، ودفاعهم عنها ضـد من يقصدها بسوء :

---

(٥٠) ديوان ابراهيم ٤١ ·

(٥١) ديوان عبد الرحيم ١٣١ ·

(٥٢) ديوان ابراهيم ٦٩ ·

(٥٣) ديوان عبد الرحيم ١٣١ ·

لن يستعيد العرب سالف مجدهم ولسانهم غرض لرمى ســهام
ان يرفعــوا ما انقض من بنيانهم فالضاد أول حائط ودعام(٥٤)

وفى حياة ابراهيم طــوقان صفحة مجيدة فى هــذا المجال ، فقــد عمل باذاعة القــدس عندما تاسست سنة ١٩٣٦ ، ووقع الاختيار عليه ليكون مراقبا للقسم العربى فيها ، فاحتضن هــذا القسم ، وتعهده بعنايته مدة أربع سنوات(٥٥) .

ولعل من اهم ما قام به هناك تصــديه لفئة غير عربية كانت تسعى سعيها لتنشيط اللغة العامية ، وجعلها اللغة الغالبة على الأحاديث العربية المذاعة — وكانت حجتها فى ذلك أن الاذاعة لا يمكنها أن تحقق الغرض الذى هــدفت اليه وهــو نفع الطبقة المتوسطة اذا جرت على استعمال اللغــة الفصحى لأن هــذه الطبقة من اهــل المدن والفلاحين لا تحسن اللغـــة الفصحى ، على حــد تعبير أصحاب القول بتنشيط اللغة العامية ، ولا تفهم اللغة العربية القــديمة التى جرى عليها المذياع .

وقف ابراهيم وقفة حازمة امام هــذا الرأى ، ونقضه يومئذ بحجج دامغة ، وأظهرهم فيها على ان المذياع لم يجر على اللغة العربية القــديمة ، وانما هى لغة عربية سهلة صحيحة يفهمها المتعلم والأمى على السواء ، وان الفلاحين لتقرأ عليهم الجريدة فيناقشون القارىء فى افتتاحيتها ، ولا يعقــل أن يناقش المرء فى شىء لم يفهمه . هــذا وان العرب — مسلمين ومسيحيين — يدينون بالقومية ، وهــذا مشروع غايته القضاء على اللغة العربية ، وهى عندنا كل ما بقى من ذلك التراث الطويل العريض الذى اجتمع لنا من الفتوحات والحضارات والعلوم والآداب والفنون . فما من عاقل اليــوم يعرف قــدر نفسه ، ويعتز بعربيته يرضى عن العبث بهــذا التراث الباقى والقضاء عليه بيــــده(٥٦) .

---

(٥٤) الســابق ١٣٣ .

(٥٥) فدوى طوقان : أخى ابراهيم . الديوان ٣٢ .

(٥٦) انظر الســابق ٣٣ — ٣٤ .

... وملامـــح الاختـــلاف

ولكن هـــذه المشابه فى كثير من المشـارب النفسية ، والاتجاهات الفكرية والموضـوعية والطوابع الفنية ... كل ذلك لا يعنى ان احـــدهما ذاب فى الآخر ، فثمة فروق بينهما فى السمات الشخصية والفنية كما سنرى :

الاســـتعداد الجســـدى :

فاذا نظرنا الى البعـــد الحسى راينا عبد الرحيم شـابا قـــوى البنية ، جلدا ، قادرا على الحركة وتحمل أعباء العيش والكفاح والحياة ، ومن ثم رفـــع القلم والسلاح ، وكان جهاده بالكلمة والبندقية ، وتجسد ايمانه بوطنه فى صورة عملية تطبيقية تتمنطق بالقوة والنضال المسلح لتحرير الوطن من اعـــــدائه .

أما ابراهيم طـــوقان فلم يكن مهيئا جسديا لمثل هـــذا اللون من الكفاح المسلح ، فاكتفى بالكلمة الشاعرة تتفجر بالنقمة ، وتتدفق فى مواجهة الأعداء سعيرا . لقـــد عاش حياته مضعوفا محروما من نعمة العافية وهـــو فى ريعان الشباب(٥٧) . ولاحقته الأمراض فى فجر شبابه ، واشتد به المرض سنة ١٩٢٤ وهـــو طالب فى العام الدراسى الثانى بالجامعة الأمريكية ببيروت مما اضطر معـــه الى العـــودة الى نابلس قبـــل انتهاء الفصل الدراسى الأول(٥٨) . وفى أواخر سنة ١٩٣٢ ألح عليه السقم ، ولازمته العلة ، واجريت له عملية خطيرة فى معـــدته تعرض فيها لموت محقق حتى أقر الطبيب يومذ أن « ســـلامة مريضه كانت من معجزات الله ، لا شأن لفن الطب فيها ، ولا لخـــدمة الطبيب ، اذ كانت حال ابراهيم فوق هـــذين كليهما »(٥٩) .

---

(٥٧) فـدوى طـوقان : السابق ٢٧ .

(٥٨) الســـابق ١٧ .

(٥٩) الســابق ٢٦ .

ولم يرحمه المرض بعـــد ذلك فلاحقه فى العراق بعـــد ان ترك عمـــله بالاذاعـــة سنة ١٩٤٠ ، ولم يتركه الى أن لفظ آخر أنفاسه فى الثانى من مايو سنة ١٩٤١[٦٠] .

مثل هـــذا الجسد النحيف الهش ، ومثل هذه الصحة المنهوبة المنهوشة لم يهيأ صاحبها للكفاح والنضال المسلح على عكس عبد الرحيم محمود ، بل لم يهيأ صاحبها لأى عمل شاق . واذا كان عبد الرحيم محمود قـــد عاش مناضلا مقاتلا حتى جاد بروحه فى سبيل وطنـــه كما كان معشوقه الثانى — بعـــد الكفاح المسلح — هـــو التعليم حتى كان يرى أن الشهادة فى ميدان العلم والتعليم صنو الشهادة فى ميدان القتال ... فان ابراهيم طـــوقان — وقـــد عمل معلما فى مدرسة النجاح بنابلس لمدة عام ، وفى الجامعـــة الأمريكية ببيروت لمدة عامين ثم استقال وعاد الى فلسطين معلما فى المدرسة الرشيدية بالقـــدس — لم يحتمل جسمه المضعوف المنهوك مشاق هـــذه المهنة ، فضاق بها وهجرها بعـــد رأى من المسئولين فى هـــذه المعاهد التى عمل بها ما يناقض مثله العليا فى تحقيق العـــدل ، ونبل الغايات[٦١] . وقـــد عبر عن ضيقه بهـــذه المهنة ، وكراهيته لهـــا بقصيدة يعارض بها لاميـــة شوقى المشهورة فى المعلم والتى استهلها بقوله :

قم للمعلم وفـــه التبجيـــلا	**كاد المعلم أن يكون رسولا[٦٢]**

يقول ابراهيم طـــوقان :

شوقى يقول وما درى بمصيبتى	**قم للمعلم وفـــه التبجيـــلا**
اقعد فديتك هل يكون مبجلا	**من كان للنشء الصغار خليلا**
ويكاد يفلقنى الأمير بقـــوله	**كاد المعلم أن يكون رســـولا**
لو جرب التعليم شوقى ساعة	**لقضى الحياة شقاوة وخمـــولا**
حسب المعلم غمـــة وكـــآبة	**مرأى « الدفاتر » بكرة وأصـــيلا**

(٦٠) ناصر الدين الأسد : الشعر الحديث فى فلسطين ١٤٣ .

(٦١) انظر : عمر فروخ : شاعران معاصران ١٤٥ — ١٤٦ .

(٦٢) الشوقيات ٢٢٤/١ (والقصيدة القاها احمد شوقى فى حفل قام به نادى المعلمين العليـــا) .

ويستعرض فى هــذه القصيدة المتاعب والمشاق التى يعانيها المعلم ، والجهود الجبارة التى يبذلها بلا ثمرة ، ثم يختمها بقوله :

يا من يريد الانتحار وجــدته ان المعلم لا يعيش طويلا[٦٣]

والخلاصة أن الاستعداد الجسدى مكن عبد الرحيم محمود من أن يضطلع برسالتين : النضال المسلح والتعليم ، بينما عجز ابراهيم طــــوقان ببنيته الضعيفة التى هــدها المرض أن يرفع السلاح دفاعا عن وطنه . كما عجز عن مواصلة مهمته معلما لمــا تتطلبه هــذه المهنة من قــوة وجلد وصبر وتحمل ، وهــو الذى عاش محروم الصحة مسلوب العافية .

الثقافة : مصادرها ومداها :

ومن وجــوه الاختلاف كذلك فى عناصر الشخصية وأبعـــادها أن عبد الرحيم وقفت به ثقافته عند الدائرة العربية — كما عرفنا — فقد أطلع على الأدب العربى وخاصة القـــديم منه ، كما كان القرآن الكريم من مصادره الثقافية الأساسية ، وانفتح الى حــد ما على الثقافة والتيارات الأدبية التى عاصرته ، أما معرفته بالانجليزية فلم تكن بالدرجة التى تمكنه من ملاحقة آداب هــذه اللغة أو الوقوف عندها طويلا أو الافادة منها على نطاق واسع ، وقـــد عرضنا لذلك فى الفصل الثانى من هـــذا البحث .

أما ابراهيم طوقان فقد كان يتقن الانجليزية ، ويعرف الأدب الانجليزى معرفة صحيحة ، وكان له اطلاع واسع على آثار اصحاب المذهب الوجـــدانى (الرومانتيكى) أمثال كولريدج (١٧٧٢ — ١٨٣٤) وكيتس (١٧٩٥ — ١٨٢١) وشيلى (١٧٨٢ — ١٨٢٢) وبيرون (١٢٨٨ — ١٨٢٤) . وكذلك كان له المـــام يسير بالفرنسية من تعلمه فى الجامعة الأمريكية ، ويبدو أنه كان يعرف شيئا يسيرا أيضا من التركية ، كما انه حرص مدة على تعـــلم الألمـــانية . . . ثم انه تعلم بضع دروس من اللغة الأسبانية[٦٤] .

---

(٦٣) انظر القصيدة كلها فى ديوان ابراهيم ١٤٨ — ١٤٩ .

(٦٤) انظر : فروخ : شاعران معاصران ٧ وناصر الدين الأسد : الشعر الحديث فى فلسطين والاردن ١٤٤ .

فطوقان اذن كان يمتح من معينين ثقافيين : المعـــين العربى والمعـــين الغربى وخصوصا الأدب الانجليزى ، وكان لهـــذا وذاك آثار فى شعره تكاد تتساوى ، أما عبد الرحيم محمود فحظ الجـــديد فى شعره ـــ شكلا وموضوعا ـــ اقـــل من حظ ابراهيم بكثير . وليس من حقنا أن نطلب من الشاعر فوق ما تتحمله طاقاته وامكاناته واستعداده الثقافى والفنى .

الخيـــال والرومانسية :

وكان من الطبيعى أن يفيد ابراهيم طوقان ـــ على نطاق واســـع من مقروءاته فى الأدب العالمى ، وأن يتأثر بالاتجاهات والمبادىء والقيم الفنيـــة الرومانسية وخصوصا فى ذلك الخيال الابتكارى المحلق البعيد ، والمزج بين أبعاد النفس وعناصر الطبيعة ، على نطاق واسع . ولننظر الى قصـــيدة « **الشـــهيد** » لعبد الرحيم محمود وقصيدة « **الشـــهيد** » لابراهيم طوقان ، وهما قصيدتان تحملان عنوانا واحـــدا ، وتكادان تتساويان فى عـــدد الأبيات ، ولنجتزىء ببعض الأبيات من كل منهما :

يتحـــدث عبد الرحيم بلسان الشهيد معتزا بعزيمته القـــوية وابائه الضيم وقـــوته الفائقة فى مقاومة الأعـــداء فيقول :

فكيف اصطبارى لكيد الحقـــود — وكيـــف احتمالى لســـوم الأذى
أخـــوفا وعندى تهـــون الحياة — وذلا وانى لرب الابـــا ؟
بقلبى سارمى وجـــوه العـــدا — وقلبى حـــديد ونارى لظى
وأحمى حياضى بحـــد الحسام — فيعلم قـــــومى بانى الفتى

فالصورة هنا محـــدودة الجوانب ، والخيال ضيق المدى مقصوص الجناحين ، يكاد يقترب من الواقع دون أن يواصل التحليق فى آفاق عليـــــا ، وكل ذلك فى قوالب تقليدية مطروقة .

ويصور ابراهيم طوقان شخصية البطـــل الشهيد وأبعـــادها النفسية فيقـــول :

نفسه طوع همة وجمت دونها الهمم
تلتقى فى مزاجها بالأعاصير والحمم
تجمع الهائج الخضم الى الراسخ الأشم
وهى من عنصر الفدا ء ومن جوهر الكرم
ومن الحق جذوة لفحها حرر الأمم

فالصورة هنا ممتدة الأرجاء ، ليس فيها ملمح تقريرى مباشر ، والخيال هنا خيال رومانسى ابتكارى من أدواته تجسيم المعنوى ، وتشخيص المادى ، وكذلك المزج بين هذه النفس العظيمة ... نفس المجاهد الفادى ومظاهر الطبيعة المختلفة مزجا يصل الى درجة الحلول : فهمته تفوق كل الهمم قدرة وقدرا ، وقد تجسدت فى نفسه مظاهر « **الوجود المتمرد** » و « **الطبيعة الثائرة** » فى عنفوانها المتفجر فى أعاصير وحمم ، وبحر هائج ، وراسخ أشم . وكلها مظاهر تشد منا النظر والسمع والمشاعر النفسية : فالمتحرك الموار منها يوحى بملمح فريد فى ابعاد الصورة من قوة وثورة وغلية ، والثابت منها يضيف الى ابعاد الصورة بعدا آخر يتمثل فى الصمود والاباء والشمم ، لأن مثل هذه النفس قد صيغت من جوهرين عزيزين : جوهر الفداء والتضحية وجوهر الكرم والجود : لا بالمال ولكن بالنفس ، والجود بالنفس أقصى غاية الجود .. بل ان جوهر الكرم ليستوعب ما هو اكثر من ذلك — انه يستوعب « النزول » عن كل ما يشد نفوس الناس الى دنيا الناس مما يحرصون عليه من مال وبنين وزخرف وزينة . والبطل الشهيد يسلك هذه السبيل دفاعا عن **حق مشروع ،** وكل أولئك يجعل منه « مثلا أعلى » تحتذيه الأجيال فى الكفاح والنضال لتحقيق الحرية والحياة الكريمة .

ومن الأدوات الفنية فى هذا التصوير أيضا **الكلمة الراسمة** لا بمضمونها المعنوى فحسب ، ولكن بجرسها القارع الصارخ الذى يناسب هذه النفس فى مزاجها القوى الجبار مثل : **الأعاصير — الحمم — الهائج — الخضم — الراسخ — الأشم ... الخ .**

وساعد على خلق هذا الجو : الوزن القصير المتلاحق النغم وقافية الميم الساكنة فكأنها قرع طبول الحرب فى معركة عاتية . فالصورة عند

طوقان كما هى عند الرومانسيين « وسيلة للكشف عن الحقائق النفسية والخلجات الشعورية عن طريق الحدس والخيال ، فترتسم الحقيقة واضحة محسوسة لا منطقية مجردة ، ويتعاون على رسمها المضمون والشكل »[٦٥] .

ونكتفى بهذا التمثيل لسمة فارقة توسع فيها ابراهيم طوقان وهى طابعه الرومانسى فى خياله وتصويره ، وقد ظهرت هذه النزعة الرومانسية عند ابراهيم فى بداياته الشعرية مثل قصيدة « **ملائكة الرحمة** »[٦٦] ، وفى كثير من قصائده الأخرى مثل « **لمن الربيع** »[٦٧] وقصيدة « **معين الجمال** »[٦٨] .

الأغراض والآفاق الشعرية :

لعبد الرحيم محمود عدد من القصائد والمقطوعات تدين الظلم الاجتماعى والاستغلال الطبقى وتنتصر للعمال الكادحين ، وقد تفوق عبد الرحيم فى هذا النوع من الشعر على أستاذه « حين خاطب الطبقات الدنيا فى المجتمع كالعمال والحمالين وغيرهم ، فنفخ فيهم من روحه الثائرة ، وحيا فيهم صمودهم وصبرهم وكفاحهم . ولعل السبب فى ذلك انما يعود الى ان عبد الرحيم كان اكثر التصاقا بهذه الطبقات الفقيرة من أستاذه الذى كان على علاقة اجتماعية ما بطبقات المجتمع المخملى »[٦٩] .

فابراهيم طوقان من أسرة غنية ميسورة الحال بعكس عبد الرحيم الذى عاش فى ضيق من الرزق ولم يكن له من الدخل الا القليل الذى يأتيه من وظيفته بدليل أن آل طوقان كانوا يمدون له يد العون . ويظهر أن ذلك كان بصورة منتظمة لا تنقطع . والباعث الذى كان يدفع عبد الرحيم لمثل هذا الشعر لم يكن متوافرا عند ابراهيم طوقان .

---

(٦٥) د. غنيمى هلال : دراسات ونماذج فى مذاهب الشعر نقده ٧٩ .
(٦٦) ديوان ابراهيم ١٤٢ .
(٦٧) السابق ٨٧ .
(٦٨) السابق ١٠٠ .
(٦٩) وليد جرار : شاعران من جبل النار ٣٧٥ .

ويتفوق عبد الرحيم كذلك على أستاذه فى « الاسلاميات » او شعر المناسبات الاسلامية . وقد راينا له فى هذا المجال أربع قصائد من اطول ما نظم من الشعر . أما ابراهيم طوقان فليس له فى هذا المجال ما يستحق التوقف .

وينفرد عبد الرحيم بما يمكن أن نسميه بشعر الأحاجى ، وله فى هذا اللون قصيدة تزيد على السبعين بيتا .

ولكن اذا نظرنا نظرة شمولية راينا أن الآفاق التى حلق فيها ابراهيم طوقان اوسع مدى ، وخصوصا فى الغرض الرئيسى الذى اشتهر به كل منهما وهو الشعر الوطنى الفلسطينى أو شعر « **المعاناة الفلسطينية** » وهو الشعر الذى يواكب الأحداث ، ويصور نضال الشعب الفلسطينى فى مواجهة الانجليز واليهود بما فيه من بطولات وتضحيات . كان ما نظمه عبد الرحيم فى هذا الغرض يدل حقا على طبيعة الأحداث ، وملامح هذه الفترة من تاريخ فلسطين ، ولكنه لا يعطينا الخطوط الكاملة لخريطة هذه المرحلة ، وان تدفق ما نظم بحرارة العاطفة ونبل الشعور ، فهناك فجوات زمنية طويلة بين هذه القصائد .

اما ابراهيم طوقان فكان شعره فى هذا الغرض سجلا حافلا منتظما لنبض الأحداث والرجال والمواقف ، وهو سجل اتسع لكل الأنماط حتى المتناقض منها : فحديثه عن الخيانات والتفريط وسماسرة الأرض والزعماء الجوف والمهادنين فى حق الوطن لا يقل عما نظمه فى مواقف البطولة والجلال والتضحية والفداء ، فعبد الرحيم محمود ــ كما قال عمر فروخ[٧٠] « يأتى فى المرتبة الثانية بعد ابراهيم طوقان فى هذا الباب من القول ، ولكنه فوق جميع الذين قالوا ، لأنه كان من المجاهدين الشهداء » .

الحنين الى الوطن :

ولعبد الرحيم محمود قصيدتان فى الحنين الى الوطن . وحنين الشاعر الى وطنه أمر طبيعى ، وهو موضوع له مكانه الأصيل فى الشعر العربى

(٧٠) شاعران معاصران ٠ هامش ١٠٤ ٠

قـديمه وحـديثه ، سواء اكان ذلك فى قصـائد مستقلة ، أو أبيـات فى تضاعيف قصيدة .

وقـد يلفت النظر أن ابراهيم طوقان ليس له قصيدة واحـدة فى هـذا الغرض على الرغم من انه فارق وطنه الى لبنان ومصر والعراق لفترات من الزمن يمتد مجموعها الى عـدة سنوات وقـد يرجع ذلك الى أن خروجه من الوطن كان « سفرا » اختياريا غير مصحوب بتسلط أو اكراه كالحال بالنسبة لعبد الرحيم محمود الذى فارق وطنه تحت ضغط مطاردة المستعمر للوطنيين والمجاهـدين ، وشتان ما الدافعان والباعثان .

على أن حياة ابراهيم طوقان فى بيروت بخاصة كانت ولا شك اكثر وداعة وهـدوءا واستقرارا وسلاما من حياة عبد الرحيم فى العراق ، وهى حيـاة كانت مشحونة بالعمل الشاق ، والنضال المسلح ضـد الانجليز . بل كانت سنوات الطلب فى بيروت اهنأ سنوات حياة ابراهيم حيث ظلله « أفق ادبى واسع لا عهد له بمثله فى فلسطين . هنالك الأدباء والشعراء ، وهنالك الدنيا براقة خلوب »(٧١) . وهناك اشتعل قلبه حبا وهياما بفتنة تمثلت فى صورة فتاة فلسطينية طالبة بالجامعة الأمريكية(٧٢) .

وبعـد أن عاد الى بيروت معلما فى الجامعة الأمريكية سنة ١٩٣٠ عادت المرأة ، أو بالأحرى عاد الجمال يحرك قلب ابراهيم ، وكان هـذه المرة فى شكل فتـاة أسبانية تعرف اليها فى بيروت(٧٣) . فبعـد ابراهيم عن وطنـه اذن لم يكن مصحوبا بمرارة الاغتراب ، وحرقة الحرمان « اذ كانت بيروت عنده بمنزلة الوطن الثانى له ، يرى فى أهلها اهله ، وفى عشيرتها عشيرته »(٧٤) أو كما قال هـو :

بيروت انعم بالهوى الأول(٧٥)　　　أول عهـدى بفنـون الهـوى

(٧١) فدوى طوقان : اخى ابراهيم ١٦ .
(٧٢) السـابق .
(٧٣) السـابق ٢٥ .
(٧٤) السـابق ٢٤ .
(٧٥) ديوان ابراهيم ١٢٨ .

ومن حقنا بعـــد ذلك أن نقول أن ابراهيم طوقان انصرف عن الحنين الى الوطن . . الى قصـــة حب عاتية فى سنوات الطلب ، والى عشق الجمال فى فتاة اسبانية اشبيلية فى سنوات العمل فلم يشتعل قلبه لهفة وتطلعـــا وشوقا الى العودة الى الوطن[٧٦] .

اما عبد الرحيم محمود فكانت سنوات الغربة مختلفة — كما رأينا — فى دوافعها وصورتها ، ومن ثم كان عجبنا من يكون له فى « الحنين الى وطنه » قصيدة أو قصيدتان فحسب .

المراة والغزل :

فالحنين الى الوطن غرض تفوق فيه عبد الرحيم على ابراهيم طوقان ، وان شئت فقـــل : انفرد به دونه . وهـــذا الحـــديث يجرنا الى ملمح فارق آخر يتعلق بحياة الشاعرين وفنهما ، وأعنى به : **مكان المراة** فى حيـــاة كل منهما من ناحية ، **وطبيعة شعر الغزل** فى ديوان كل منهما من ناحية أخرى .

لقـــد كان للمرأة وجودها القاهر الحاد فى حياة ابراهيم ، فعاش قصة حب جارف فى بيروت سنة ١٩٣٦ ، وكان لهـــذا الحب أثره الكبير فى نفسه وشعره « فصار قوى الملاحظة ، حاضر العاطفة ، متوفز الأعصاب ، كثير المطالعة ، صيادا للمعانى ، بسيط العبارات ، وشغل ابراهيم بالغزل سماعا وقراءة ونظما »[٧٧] ونظم فى حبيبته قصيدة أثارت كلاما كثيرا وهى قصيدة « **فى المكتبة** »[٧٨] وتوالت قصائده بعـــد ذلك تحكى قصة حبه الذى شاء القدر

---

(٧٦) انظر قصة حبه لغادة كفركنة (م·ص) أو مارى صافورى من ص ١١٩ الى ص ١٣٤ من كتاب « ابراهيم طوقان فى وطنياته ووجدانياته » للبدوى الملثم · ومن ص ٣٠ الى ص ٥٢ من كاتب « الغوانى فى شعر ابراهيم طوقان » للكاتب نفسه · وأنظر قصة غرامه فى بيروت بالراقصـــة الأسبانية الأشبيلية من ص ١٥٦ الى ص ١٦٦ فى الكتاب الأول · ومن ص ٨٠ الى ص ٩٤ من الكتاب الثانى · وقد كان حبه الأول أعمق أثرا وأبعد مدى بكثير من حبـــه الثانى ·

(٧٧) فدوى طوقان : السابق ٢٠ ·

(٧٨) ديوان ابراهيم ٩٨ ·

أن ينتهى بمأساة . وتجـدد هـذا الحب ، وان لم يكن بنفس القدر والحدة فى بيروت ، وكانت الحبيبة هـذه المرة هى الأسبانية الحسناء .

اما عبد الرحيم محمود الذى كان النضال المسلح هـو همه الأول فلم يكن للمراة فى حياته هـذا الحضور القوى القهار ، فلم تشغل حياته — من وجهة نظرى — قصة حب من هـذا اللون الحاد . وهـذا لا يعنى أن قلبه لم يتحرك بحب « سلمى » أو غيرها ، ولكنى أعنى انه لم يكن عميق الأبعاد ضارب الأطناب مستغرقا للنفس كما رأينا عند ابراهيم طوقان . وهـذا يقودنا الى ملاحظة فارقين مهمين فى الغزل عند كل منهما : الفارق الأول : يتعلق **بالطبيعة الفنية** لهـذا الغزل . والفارق الثانى يتعلق **بصورة المحبوبة** .

فغزل ابراهيم طوقان يتسم بصدق الاحساس وتدفق الشعور وحرارة الوجـدان . ورهافه حسه تشعرك بانك امام شـاعر محب حقيقى « حاضر العاطفة ، متوفز الأعصاب » وحضور عاطفته جعلته دقيق الملاحظة يعطى من دقائق المحبوبة فى الحركة والملامح ما قـد يغيب أو يغفل عنه غير الشاعر المحب الذى يعيش حبه ومحبوبه . وهى سمة فنية تسترفد مصدرين : عمق الشعور ودقة الملاحظة ، كما نرى فى قصيدته « **فى المكتبة** »[79] . وهى أول قصيدة نظمها فى الفتاة الفلسطينية طالبة الجامعة الأمريكية التى علقها قلبه ، وفيها يصور هيئة صاحبته وهى تقرأ وتقلب صفحات الكتاب :

يا ليت حظ كتابهـا	**لضـلوعى المتعـذبه**
حضنته تقرأ ما حـوى	**وحنت عليـه وما انتبـه**
فاذا انتهى وجـه ونا	**ل نكاؤها ما استوعبه**
سمحت لأنملهـا الجمي	**ـل بريقهـا كى تقلبـه**

وفى هـذه الأبيات وغيرها تمتزج وتتعانق بساطة التعبير والتصـوير مع عمق الشعور بلا تصيد أو تكلف . وكل ذلك هـو جوهر الصدق الفنى . ولننظر بعض ابياته ، وهـو يعطى ملمحا **صوتيا** لحبيبته بعـد ان عرض لهـا ملمحا **حركيـا** :

---

(٧٩) ديوان ابراهيم ٩٨ .

وسمعت وهى تفمـــــ	**ـــفم الكلمات نجوى مطربه**
ورأيت فى الفم بدعـــــة	**خــــلابة مســــتعذبه**
احــدى الثنــايا النيـــــ	**ـــرات بدت وليس لهــا شبه**
مثلــوبة من طرفها ..	**لا تحسبنها مثلبـــــه**
هى لو علمت من المحــا	**ســـن عنــد أرفــع مرتبــه**
هى مصــدر الســــينا	**ت تكسبها صدى ما أعذبه**

وتطرد هـــذه العاطفة الأصيلة بصدقها الفنى فى اغلب قصائده الغزلية مثل « **عند شباكى** »(٨٠) و « **معين الجمـــال** »(٨١) و « **حملتنى نحـــو الحى اشجانى** »(٨٢) . ولكن ابراهيم له عـــدد من القصائد الغزلية ذات الطـــابع الحسى الصارخ مثل قصيدته « **فى دير قديس** »(٨٣) ، وقصيدة « **اشربى** »(٨٤) . ولم تخل بعض قصائده الغزلية من اسراف ومبالغات يعوزها نبض الشعور وصـــدق الاحساس مثل قصيدته « **هـــواك جبار** »(٨٥) .

ولعل ما نراه من حسية وتهتك فى بعض غزليات ابراهيم كان صـــدى لليالى بيروت الصاخبة ، ممـــا يدخـــل فى باب « **الغزل اللاهى** » . ولكن ذلك يعـــد قليلا اذا قيس بقصائد غزله الصادق الأصيل .

أما أغلب غزليات عبد الرحيم فما أراها الا من قبيل **المجــاراة الفنيـــة** لشعراء العصر الذين ليس فيهم الا ومن عنده للغزل نصيب يستوى فيهم من أحب ومن لم يحب . لذلك جاء كثير منه باردا لا يهز النفس ، ولا يحرك الاحساس . بل نحس فى أغلب غزلياته ـــ وقـــد قلنا ذلك فى الفصل الثانى من هـــذه الدراسة ـــ بلهجة « **الآمر الناهى** » أو « **الثائر الرافض** » ، وهى النبرة العالية الغالبة على هـــذه الغزليات .

---

(٨٠) الســـابق ٩٦ .

(٨١) الســـابق ١٠٠ .

(٨٢) الســـابق ١٠٢ .

(٨٣) الســـابق ١٠٨ .

(٨٤) الســـابق ١٢٠ .

(٨٥) الســـابق ١١٥ .

طبيعــة المحبــوبة :

وابراهيم طوقان محب متسق مع نفسه الرقيقة ، ومحبوبته شخصية سوية ، وهــو ــ غالبا ــ المحــب المستعطف ، ومحبــوبته هى المطــلوبة المستعطفة التى يطلب منها الصفح والعفو والمغفرة والحنان والوصال . وتلك هى طبيعة المحبين ، فهو يظل على الوفاء ، ويستبد به الحنين بعــــد أن هجرته حبيبته وفقــد بذلك « **فؤاده والأمانى والهــدى** » ، وأبقت له لوعــة « **الهــوى والسقم والحنين المؤبد** »(٨٦) . ومن هنا كانت نظرته للمرأة نظرة سوية لأنها نظرة **المحب العاشق** الى نموذج المرأة المعشوقة ... نموذج الانثى السوية التى تحب وتحب ، وتجفــو وتهجــر لتترك فى قلب الحبيب الشاعر المــا عبقريا يفيض شعرا وأدبا .

واذا استثنينا القليل الأقل من **غزليات** عبد الرحيم وجــدنا انثــــاه شــــخصية « **سيكوبانية الهــوى** » أو شــــخصية « **سادية الطبيعة** » غادرة لا تعرف الوفاء ، ولا تصون للحب عهدا ، كأنما قــد غــذيت بالغــدر ، وتربت عليه ، وهو فى مواجهتها يقف موقف التجهم والرفض والاستعلاء :

بنيت وأعليت الأمانى ضــلة … فهدمت لى بالغدر شامخ أحلامى(٨٧)
غدرت وجئت الآن تستغفريننى … لنقضك عهد الحب من بعد ابرام(٨٨)
وقلبك هــذا يا لقلبك غادرا … سأسحقه ثأرا لقلبى بأقــدامى(٨٩)
اذا تلاقينــــا فــــلا تنظرى … أرى وميض الغدر فى ناظريك(٩٠)
قالت أتنسى ؟ قلت لم لا وقــد … نسيت ميثاقى وخنت العهــود(٩١)

ففى هــذه الأبيات **الغزلية** ــ وغيرها كثير ــ تطل علينا معانى الغدر والخيانة ونكث العهــود ونقض الوعود وتخريب الآمال ... الخ ، وتلك هى

---

(٨٦) انظر قصيدة « خطرة فى الهـوى » ديوان ابراهيم ١٠٩ .
(٨٧) ديوان عبد الرحيم ١٨٥ .
(٨٨) السابق : نفس الصفحة .
(٨٩) السابق : نفس الصفحة .
(٩٠) الســـابق ١٧٥ .
(٩١) الســـابق ١٧٦ .

صـــورة **الحبيبة ،** ويقف الشاعر **المفجوع** موقف الرافض المتحدى ، وهـــو شاكى السلاح كأنه فى ساحة من ساحات الوغى .

روح الميدان والقتال :

ومن السمات الفارقة بين الشاعرين ســمة تتلخص فى أن شـــعر عبد الرحيم فى مجموعة **شـــعر جـــاد** تحس فيه صلابة الفرسان ، وجهـــامة المعاناة قبل أن تحس فيه برقة الشاعر ، ورفاهة الفنـــان .... انه شـــعر يعكس **طبيعة الميدان** الذى رفـــع فيه السلاح مناضلا مقـــاتلا ، وهـــذه السمة لازمته حتى فى اغلب غزلياته كما رأينا .

وهـــذه الجهامة ، وتلك الجـــدية الحادة حتى فى الأغراض التى تحتاج الى الرقة والتدفق العاطفى لا نجـــد منها أثارة فى شعر ابراهيم طـــوقان الذى يتدفق شعره فى كثير من قصائده بالرشاقة وخفة الروح والفكاهة ، حتى فى مواقف الشدة والكرب « وانك لتتصفح ما خلفه من مآثره الأدبية فتراه قـــد عرض فيها مرارا عـــديدة لذكر مرضه وسقمه ، ولكنه عرض مرح مبتسم لا روح للتشاؤم فيه ، ولا اثر لشكوى الزمان اذ كان المرح والابتسام خلقه فى ابراهيم ، فلم يكن لينظر الى الدنيا الا من وجهها الضاحك المشرق »(٩٢) .

ومن أمثلة ذلك ما قاله فى ابان مرضه فى قصيدته « **الدم الخفيف** »**(٩٣) :**

وطبيب رأى صـــحيفة وجهى	**شاحبا لونها وعـــودى نحيفا**
قال لابد من دم لك نعطيـــ	**ـــه نقيا ملء العروق عنيفـــا**
لك ما شئت يا طبيب ولـــكن	**أعطنى من دم يكون خفيفـــا**

وهـــذه الابتسامة الفكهة تتحول الى سلاح ماض من أسلحة النقـــد الاجتماعى والسياسى فى شكل سخرية مرة من الأحزاب المتطاحنة ، والزعماء الجـــوف المشغولين بأنفسهم عن الأمة وعن الكفاح العملى من أجلها ، فهم

---

(٩٢) فـدوى طـوقان : أخى ابراهيم ٢٧ .

(٩٣) ديوان ابراهيم ١٤٥ . وانظر كذلك قصيدته « الشاعر المعلم » ١٤٨ .

أبطال ؟ !! تقف بطولتهم عند **الاحتجاجات والمظاهرات والهتافات**[٩٤] . كما يسخر بالانجليز و « **عـــدالتهم** » وصداقتهم ، ولطفهم وأفضالهم[٩٥] !!!

القصص الرمزى :

ويكاد ابراهيم طوقان ينفرد بغرض شعرى لمسه عبد الرحيم لمسا خفيفا وان لم يضرب فيه بسهم واف وأعنى به **القصص الرمزى** ، فلابراهيم فى هـــذا الغرض آيات رائعات مثل « **الحبشى الذبيح** »[٩٦] التى نشرت فى جريدة « البرق » سنـة ١٩٣١ ، والتى قـــدم لهـــا شارحا الرمز فيها بقوله :

« هـــذه الديكة الحبشية او الديكة الهندية التى يذبحونها على رنين الأجراس ، وافراح المعيدين لتكون (عروس المـــائدة) تعمل فيها المـــدى تقطيعا وتشذيبا لتمتلىء بها البطون مروية بكئوس الخمر من بيضاء وحمراء . كذلك هى الأمم المغلوبة على أمرها كانت وما برحت « عروس الموائد » شأن « الحبشى الذبيح » . اما ريشه فتحشى به الوسائد ، وأما لحمه فتحشى به البطـــون » .

واذا كانت قصيدة « **الحبشى الذبيح** » تمثل لقطة قصصية واضـــحة الرمز ، فان رائعته الطويلة « **مصرع بلبل** »[٩٧] — وهى قرابة ثمانين بيتا — تعتبر فنا جـــديدا فى القصة الشعرية نلمس فيها تأثر ابراهيم بالأدب الغربى دون أن يفقد مميزات خياله الخاص ، وتعبيراته الشعرية الخاصة[٩٨] وهى ذات مغزى اجتماعى أخلاقى رفيع اذ تصور واقعـــا يتكرر دائما بلا انقطاع فالشاب الريفى ابن القرية الصغيرة يهبط المدينة الكبرى لأول مرة فيلقى بنفسه مبهورا فى أحضان مفاتنها ومنازل التهتك فيها ، فيخسر المـــال والصحة والمستقبل ، وتدور القصة على محاور ثلاثة مشخصة هى **البلبل** وهـــو رمز

---

(٩٤) انظر ديوان ابراهيم ٧٩ . مع ملاحظة ان عبد الرحيم عالج بعض هـذه الأفكار معالجة فيها سخرية وفكاهة ولكنها لا تعـد شيئا – كما وكيفا – اذا قيست بما ماضت به روح ابراهيم الساخرة المتهمكة الفكهة .

(٩٥) انظر السابق ٨٢ .

(٩٦) ديوان ابراهيم ١٤٦ .

(٩٧) ديوان ابراهيم ١٨٤ .

(٩٨) فـدوى طـوقان : أخى ابراهيم ٢٨ .

للشاب المبهور المخـــدوع ، **والوردة** وهى رمز لبائعة الهوى والعبث والمتعة . أما **الروض** فهو رمز الحانة أو الملهى ، وبتعبير أكثر سماحة هـــو رمز المجتمع البـــاهر الجـــديد .

وتمضى الطـــوابع القصصية الدرامية مع طوقان بعيدة عن الجفـــاف التقريرى ، فهو فى الأحـــداث التى يسوقها فى الحوار بنوعيه : الخارجى والداخلى نحس معه بتدفق الشعور ، وتوهج العاطفة ، ونبض الموســـيقا النفسية الأسرة ، ولكن يعيبه أنه فى ثنايا قصته الرمزية يصرح ببعض العناصر الرمزية مما يفقد الرمز قيمته بهـــذا التصريح كتصريحه بأنه يعنى بالوردة حــــواء :

هى حواء ذلك الخلد فاحـــــذر لا تكونن أنت (آدم) فيـــه
لا تهب قلبـــك الكريم لئيمـــا تحت رجليه عابثا يلقيــــه(٩٩)

والطابع القصصى يلازم ابراهيم طوقان فى كثير من قصائده كما نرى فى مطولته الدرامية « **الثلاثاء الحمراء** »(١٠٠) ، وتلازمه هـــذه النزعة كذلك فى كثير من قصائده القصصية مثل قصيدة « **فرحتى** »(١٠١) وقصيدة « **هـــواك جبـــار** »(١٠٢) وقصـــيدة « **كـــارثة نابلس** »(١٠٣) ، وقصـــيدة « **صـــاحب عمران** »(١٠٤) . ففى هـــذه القصائد وغيرها انعكست ثقافة ابراهيم الأدبية الأجنبية ، فتوفر لهـــا طوابع وعناصر درامية مثل الحوار والتعقيد الفنى والارتداد الى المـــاضى لعلاقة مشابهة بينه وبين الحاضر وغير ذلك .

وقـــد ذكرنا من قبل ان عبد الرحيم قـــد انفرد — دون أستاذه — بما يمكن ان نسميه **بشعر الأحاجى** وقـــد تمثل ذلك فى قصيدة طويلة تزيد على السبعين بيتا ترسم أحاجيها الشخصيات التى تعتبر اطرافا أنضجت مأساة

---

(٩٩) ديوان ابراهيم ١٨٨ .
(١٠٠) الســـابق ٤٢ .
(١٠١) الســـابق ١١٢ .
(١٠٢) الســـابق ١١٥
(١٠٣) الســـابق ١٥٧ .
(١٠٤) الســـابق ١٦١ .

فلسطين ويمـــكن اعتبار هـــذه القصيدة مطـــولة قصصية رمزية ، ولكن عبد الرحيم فى هـــذا الفن مقـــل ولا يرقى لمستوى أستاذه وصديقه ابراهيم .

وقـــد حاول عبد الرحيم فى قصيدته « **نجـــوى المحتضرة** »(١٠٥) ان يضع « قصة حوارية » أو مشهدا دراميا فى هيئة حوار بين ابراهيم طوقان وحبيبته « ليلى الصفورى »(١٠٦) ، ولكنه لم يحرز نجاحا فى هـــذه المحاولة التى جاءت فى ثمانية وثلاثين بيتا على وزن واحـــد وقافية واحـــدة ، فالخيال ضعيف قعيد ، والمعانى سطحية ساذجة ، وفى الحوار ضعف وتزيد وكلمات دارجـــــة .

ولكن عمليه الجليلين « **رثاء حمال** » و « **حجر فى كثبان رمل** » يمكن أن ينظر اليهما من زاوية « الرمزية الموضوعية » ، وهى نظرة يرجحها الأوضاع الاجتماعية والسياسية فى فلسطين آنذاك . ولن يبعـــد ويسرف من قال ان الأولى ارهاص « بضياع الوطن » وأن الشاعر يرثيه فى شـــخصية هـــذا الحمال ، وينعى على أبناء الوطن تفريطهم وتهاونهم . وربما أراد ان يتخـــذ من الحجر رمزا للانســـان الفلسطينى ، أو لفلسطين نفسها التى انفردت تناضل ، وحولها تقر من الضمائر الخربة ، وعواطف من المؤامرات والغـــدر والخيـــانات .

الأناشـــيد :

وأخيرا ينفرد ابراهيم طوقان بباب من الشعر ندر ان يكون لعبد الرحيم منه نصيب وهـــو « الأناشيد »(١٠٧) . وهـــو لم يقتصر فى هـــذا البـــاب على وطنه فلسطين فحسب ، بل كان للبلاد العربية من هـــذا الباب النصيب

---

(١٠٥) ديوان عبد الرحيم ١٨٢ .

(١٠٦) الصحيح أن اسمها « مارى الصفورى » ، وهى الفتاة التى احبها ابراهيم فى بيروت ، وكان يرمز اليها بالحرفين (م٠ص) .

(١٠٧) أنظر ديوان ابراهيم طوقان ١٩٢ ــ ٢٠٤ .

الوافى مثل « نشيد رثاء غازى » و « أشـــواق الحجـــاز » و « فتية المغرب » و « نشيد بطـــل الريف » ، وبعض هـــذه الأناشيد لحن وغنى .

❋ ❋ ❋

الأسلوب والشكل الفنى :

فاذا ما تركنا جانب الأغراض والمضامين الى جانب اللغة والأداء التعبيرى وجـــدنا ابراهيم طـــوقان أوفى لغـــة ، ومعجمـــه الشعرى أغنى وأثرى ، وأسلوبه أسلس وأطـــوع ، كما أنه أكثر حـــداثة وتحررا فى أسلوبه من عبد الرحيم الذى ظـــل الى آخر حياته وفيا للقوالب الكلاسيكية . وهـــذا الفارق نتيجة طبيعية للفارق بين ثقافة الشاعرين كما وكيفا ، فابراهيم طوقان أوسع ثقافة من عبد الرحيم اذ جمع ابراهيم — على نطاق واسع بين القديم والجـــديد ، وثقف الأدبين العربى والانجليزى كما أن الظروف الاجتماعية والأدبية والثقافية فى بيروت كانت تعطيه من الأمداد اللغوية والفكرية ما لم يتوفر لشاعر مقاتل مطارد لا يقر له قرار ، ولا يهدأ له مقام أو بال .

ونتيجة لهـــذا الفارق الثقافى والاجتماعى والنفسى كان ابراهيم طوقان أكثر تجـــديدا فى شكل القصيدة من عبد الرحيم محمود . صحيح أنهما يشتركان من الناحية الشكلية فى أمرين :

الأول : اطراد شكل القصيدة التقليدية ذات الوزن الواحـــد والقافيـــة الواحـــدة فيما نظما .

الثانى : انحصار التجـــديد الشكلى فى نظام المقطوعة .

ولكن عبد الرحيم — على الرغم من اعتماده كثيرا على المقطوعة ذات الروى المخالف — التزم غالبا البحر الواحـــد من أول القصيدة الى آخرها ، على الرغم من اختلاف المقطوعات فى الروى كما ذكرت . وهـــو تجـــديد فى الشكل محـــدود المـــدى ، وقـــل أن نجـــد عنده فى القصيدة الواحـــدة المقطوعات المختلفة وزنا وقافية .

أما ابراهيم طوقان فلم يقف عند حـــدود المغايرة فى روى المقطوعات مقطوعة مقطوعة ، ولكن تجـــديده فى هـــذا النطاق اخـــذ أشكالا متعـــددة ، كمـــا نرى فى قصـــائده « **الثـــلاثاء الحمراء** »(١٠٨) و« **حملتنى نحـــو الحمى أشجانى** »(١٠٩) و « **فرحتى** »(١١٠) و « **هـــواك جبار** » (١١١) و « **مصـــرع بلبـــل** »(١١٢) .

❋ ❋ ❋

تفـــاوت المستوى الفنى :

ونختم هـــذه الموازنة بوقفة مع ظاهرة « اختلاف المستوى الفنى » فى شعر كل منهما . وهـــذه السمة ليست خصيصة اختص بها الشاعران « فكل شاعر يمر فنه بمراحل ومستويات يتفاوت فيها هـــذا الفن صعودا وهبوطا ، تقـــدما وتأخرا ، اتساعا وانقباضا . وقـــد تنتظم درجات التطور فى تصاعدها النظيم . وقـــد يفتر فن الشاعر فى مرحلة متأخرة من عمره الأدبى . وقـــد تختلف الدواعى النفسية قـــوة وضعفا ، فيتذبذب المستوى الفنى للشـــاعر ، ويكون شعره كساحة الملوك تضم الدر والنوى »(١١٣) .

فاختلاف المستوى الفنى بين قصائد الشاعر الواحـــد أمر طبيعى وحقيقة لا تنكر ، كاختلاف الشعراء بعضهم عن بعض ، واختلاف المستوى عند الشاعر الواحـــد يرتبط بعـــدة عوامل من أهمها « المستوى الوجـــدانى » أثناء عملية الابداع الفنى ، كما يرتبط بالتطور الفكرى والثقافى عند الشاعر ومن ثم لم يكن من اللازم اللازب أن يكون انتـــاج الشاعر أرصن وانضج من انتاجه السابق بدعوى انه فى حاضره أكثر خبرة واطول معاناة وانضج ثقافة

---

(١٠٨) ديوان ابراهيم طوقان ٤٢ .
(١٠٩) الســـابق ١٠٢ .
(١١٠) الســـابق ١١٢ .
(١١١) الســـابق ١١٤ .
(١١٢) الســـابق ١٨٤ .
(١١٣) جابر قميحة : منهج العقاد فى التراجم الأدبية ٤٢٩ .

لأن من يعملون هـــذه القاعـــدة على اطلاقها يغفلون أو يتغافلون عن عنصر مهم جـــدا وهـــو مدى تفاعل الشاعر مع موضوعه واستجابته له ، ودرجة التوهج الوجـــدانى ساعة الابداع الشعرى .

فتطور شعر الشاعر — أى شاعر — لا يمثل بالضرورة خطا بيانيا مطرد الارتفاع ، بل قـــد يتذبذب هـــذا الخط ويتعرج تصويرا وتعبيرا ... ارتفاعا وانخفاضا تبعا للمستوى العاطفى . ونحن بذلك لا نغض من قيمة العناصر السابقة من ثقافة وخبرة وتمكن لغـــوى ، فكلها مآصـــل أساسية يسترفدها الشاعر ، ولكنها تفقد قـــدرتها فى صورتها المثلى ما لم يكن الشاعر متوهج العاطفة صادق الشعور . وتأسيسا على ذلك يجب ألا يأخـــذنا العجب اذا ما رأينا بعض شعر البدايات الابداعية عند الشـــاعر أنضج من بعض شعره اللاحـــق ، وهـــذا ما لمسناه فعـــلا عند شـــاعرنا عبد الرحيم محمود : فقصيدته « **نجم السعود** »(١١٤) ، أصـــدق عاطفة وأمتن نسجا وأسلس أسلوبا من بعض قصائده التى نظمها بعـــد ذلك بعـــــدة سنوات مثل قصيدة « **نجـــوى المحتضرة** »(١١٥) .

ويصـــدق هـــذا أيضا على ابراهيم طوقان ، فقـــد كانت أول قصيدة لفتت اليه الأنظار فى لبنان — وهـــو دون العشرين — قصيدته « **ملائـــكة الرحمة** »(١١٦) ، وقـــد قال عنها الأستاذ فروخ أن ابراهيم أتى فيهـــا بكل احسان ، وبلغ ذروة الشاعرية من حيث الأسلوب والموضوع والعبقرية(١١٧) ، أما القصـــــيدة التى نظمها الشـــاعر بعـــد ذلك واسمها « **عـــارضى نوحى بسجع** »(١١٨) ، فكانت كما قال عنها شقيقه أحمد « سخيفة المعنى ، ركيكة

---

(١١٤) نظمها الشاعر والقاها بحضرة الأمير سعود بن عبد العزيز فى ١٤ـ٨ـ١٩٣٥ .

(١١٥) نشرت سنة ١٩٣٨ فى احدى المجلات البيروتية .

(١١٦) فـدوى طـوقان : أخى ابراهيم : الديوان ١٧ . وانظر القصيدة فى الديوان ١٤٣ .

(١١٧) عمر فروخ : شاعران معاصران ٧١ . وقـد نظمها ابراهيم سنة ١٩٢٤ . أما أول قصيدة نشرت له فقبل ذلك بعام .

(١١٨) لم تنشر القصيدة بالديوان ، ويظهر أنها من القصائد التى حـذفها ابراهيم بنفسه لأنه هـو الذى أجاز ما ينشر فى الديوان قبل أن يمـوت [انظر تقـديم شقيقة أحمد للديوان ٩ — ١٠] .

المبنى .. وكلها تكلف وحـــذلقة . وقال عنها الشيخ سعيد تقى الدين : انها لا شىء بالنسبة الى قصيدة : ملائكة الرحمة »[119] كما أن قصيدة « ملائكة الرحمة » هـــذه تفوق فى خيالها ونسجها قصيدة طويلة لطوقان نظمها بعـــد ذلك باحـــدى عشرة سنة ، وهى قصيدة « **مرابع الخلود** »[120] .

ومن يقرأ ديوان ابراهيم طوقان لا يستطيع أن ينكر أن هناك تفاوتا فى شعره . ويرى الأستاذ عمر فروخ[121] انه تفاوت كبير جـــدا فى خصائصه اللغوية ، وخصائصه المعنوية ، ويعلل هـــذا التفاوت المعنوى بأن ابراهيم شاعر وجـــدانى فى صف عمر بن ابى ربيعة وبشار وابى نواس وابن الرومى وابى فراس ، والشاعر الوجـــدانى لا يجيد الا اذا انفعلت نفسه انفعالا شديدا ، أما اذا أراد أن ينظم فانه يبطىء فى نظمه كثيرا ، ويتعثر ، ثم لا يرضى بعـــد ذلك كثيرا مما تأتى قريحته ، وكذلك كان ابراهيم . فمن الأمثلة البارزة على شعره الوجـــدانى الرائع قصائده « ملائكة الرحمة » و « والفـــدائى » و « الثلاثاء الحمراء » و « غادة أشبيلية » .

أما شعره الذى لم يرض عنه — وان كان قـــد أجاد فيه — فمنـــــه قصيدته « فى مهرجان المتنبى » مثلا ، ثم قصائد أو أقسام من قصائد لم ير أن يضمها الى ديوانه . وشعره الضعيف ليس من عهده الأول بنظم الشـــعر فحسب ، ولكنه معرق فى جميع حياته الشعرية .

ويرى الأستاذ فروخ كذلك أن التفاوت فى لغـــة ابراهيم كان تابعـــا للتفاوت فى خصائصه المعنوية ، فحيث اتسقت لغته مع وجـــدانه كانت لغة قـــوية ، أما اذا جانب طبعه فى النظم فان لغته كانت ترك احيانا .

***

---

(١١٩) فدوى طوقان : أخى ابراهيم ١٨ .

(١٢٠) ديوان ابراهيم ٢٠٥ .

(١٢١) شاعران معاصران ص ٧١ وما بعدها .

ونحن نتفق مع الأستاذ فروخ فى وجـود هـذا التفاوت فى شـعر ابراهيم . ولكن هـذا التفاوت لم يكن بالضخامة التى صورها بل لعـل ابراهيم طوقان يعتبر من اقل الشعراء تفاوتا فى شعره ويرجع ذلك الى شاعريته القـوية الباكرة من ناحية ، واقبـاله الدائم على العلم والأدب والثقافة الأجنبية من ناحية أخرى ، أى انه قـد بلغ درجة كبيرة من النضج وتفتح الشاعرية والثقافة فى بداياته الأدبية ، ومن ثم قـل التفاوت بين البدايات وما يليها ، وقـد يضاف الى ذلك عامل آخر وهـو « قصر عمره » ... فهو لم يعمر طويلا حتى تتسع حياته لعـدد من المراحل الزمنية الفنية مختلفـة السمات متفاوتة المستوى .

هـذا وقـد يقلل من قـدر هـذا التفاوت أن ابراهيم أعرض عن كثير من القصائد التى لم يرض عنها ، ولم يجز نشرها فى ديوانه الذى أشرف بنفسه على ترتيبه واختيار قصائده فى حياته ، وان كان الديوان لم يطبع الا بعـد موته ، وقـد ذكرنا أن من القصائد التى لم تطبع فى الديوان قصيدته « عارضى نوحى بسجع » وهى القصيدة الى استهجنها شقيقه أحمد والشيخ سـعيد تقى الدين .

ونتفق مع الأستاذ فروخ كذلك فى تعليل هـذا التفاوت معنويا ولغويا ، ولكننا نكرر أنه لم يكن من الضخامة التى تنال من شاعريته .

اما عبد الرحيم محمود فالتفاوت بين شعره فادح لا يخطئه النظر ، حتى يخيل لمن يقرأ شعره أنه لأكثر من شاعر للتفاوت الوجـدانى واللغوى بين كثير من قصائده . ويظهر هذا التفاوت واضحا بين شعر المرحلة الأولى وهو شعر ما قبل ١٩٣٩ وشعر المرحلة الثانية الذى يمتد من سنة ١٩٣٩ الى أن لقى ربه شهيدا . وقـد ذكرنا فى الفصل الخامس ما يثقل بعض شعره من عيوب فى التصوير والتعبير والأوزان والقوافى ..

* * *

وآمل أن أكون قـد أبنت فى الصفحات السابقة عما التقى فيه الأستاذ وتلميذه وعما اختلف فيه الصـديق وصـديقه ، وكلاهما كان له الكلمـة الخالدة فى محراب الفن وميدان الكفاح ، وان انفرد عبد الرحيم بأن شـفع الكلمة بالجهاد ، وأيد القول بالدم .. يرحمهما الله .

الخاتمة

لقد عشنا الشاعر الفلسطيني الشهيد .. عبد الرحيم محمود ... على مدى امتد بنا قرابة ثلاثمائة صفحة عشناه انسانا ... وعشناه شاعرا ... عشناه في نضاله الدامي ضد الاستعمار والصهيونية ، وعشناه في ترقبه .. وحذره .. وربما خوفه .. وهو يتسلل بليل عبر الصحاري والجبال الى العراق .. عشناه تلميذا يفتح أذنيه وقلبه وعقله لكلمات معلميه في عنبتا وطولكرم ونابلس .. وعشناه معلما يحارب ... وفدائيا يعلم ... وكما قلنا في مطلع البحث أن تاريخ عبد الرحيم **صنعته نقطتان : نقطة حبر خط بها « الكلمة » ، ونقطة دم سجل بها « التضحية والفداء » ، ومن تعانق النقطتين وتلاحمهما الصادق كانت الملحمة الحية النابضة « ملحمة الكلمة والدم » .**

وعاش الشاعر حياته متدرعا برجولة شماء ، ونفس عزيزة أبية ، وايمان بالله والوطن والقيم العليا لا يعرف الحدود . وجاءت كلماته تنتصر للشمم والعزة والاباء والايمان . وانطلق شعره يعصف بالذلة والاستسلام والخيانة والاستغلال .

بحرقة بكى قائده وزميل كفاحه عبد الرحيم الحاج محمد ... بكاه بقصيدة دامعة دامية ... ولكن قارئها — أو بتعبير ادق — معايشها يشعر أن الدموع دموع « رجل » ... رجل محزون فتت الدمع قلبه ، ولكنه لم يحن هامته .. من هنا كان للقيم العليا مكانها السامق الرفيع في القصيدة .

وهذه الروح التي لا تعرف الانحناء المنكسر ظلت على عهدها في الصلابة والاباء والترفع على كل ما يعيب الرجال .. حتى في الغزل وهو غرض « الدموع والتقرب واهتزاز النفس » كان وراءه . « بطل مقاتل » لا شاعر متفكك العزيمة والأعضاء .

كان يؤمن ان للشعر رسالة انسانية يجب ان يلتزم بها ، واعتز فى مقـــاله النقـــدى ببيت لشوقى اتخـــذه عقيدة تمثل بها فى مواجهة من هاجم استاذه ابراهيم طـــوقان .

والشعر ان لم يكن ذكرى وموعظة وعبرة فهـــو تقطيع وأوزان

والشعور بهـــذه الرسالة كان نابعا من « واقعه النفسى » وهـــو واقع كان خلاصة لواقع وطنه : أرضا وقيما ... أرضا درج عليها ... وقيما حملتها الأرض فنمت وترعرعت فى رحاب العـــدل الأكبر وظلال الانتصارات الوطنية بأيدى المسلمين والعرب الذين انطلقوا فى هـــذه الأرض ومن هـــذه الأرض يحققون « للانسانية » معجزات ...

لذلك رفضنا — ومعنا الحق — قول من راح ينسبه الى اشتراكية او يسارية أو غيرها ... كان ديننا وعروبتنا وحضارة قرون اسلامية وعربية زاهية خلو من قيم العـــدل والانصاف والثورة على الظلم والاستغلال .. وكأن هـــذه القيم لا توجـــد الا فى يسار أو يمين .

* * *

هـــذه صفوة ما يقال عنه انسانا . اما صفوة ما يقال عنه فنـــانا فتذكرنى ببيت قاله حافظ فى رثاء مصطفى كامل :

قد ضاق جسمك عن مداك فلم يطق صبرا عليك وأنت شـــعلة نار

ويعنى حافظ أن مصطفى كامل عاش بروح متوثبة وذكاء خارق ونفس عالية وآمال طامحة ولقب كبير ... فلم يطق جسمه المضعوف أن يتحمل كل هـــذه الآماد الضخمة الثقيلة ..اقول ما قرأت شعر عبد الرحيم الا وتذكرت هـــذا البيت ... ففكر عبـــد الرحيم « اقـــدر » من الفاظـــه ، وأرقى من عبـــاراته ... كان معجمه الشعرى أحيانا يخـــونه .. وكانت قـــوافيه كذلك تغـــدر به .. فيجأر منها بالشكوى ، وربما كان هـــذا هـــو السر

فى لجـوئه الى قافية الألف اللينة .. ففيها فرج وفيها مخرج من « أزمته » مع القوافى ... ومن النادر أن نجـد فى الشعراء قـديما وحـديثا من لجـأ الى قافية الحروف اللينة وخصوصا الألف . واقرأ قصيدته فى أبى العلاء . وهى من ارقى شعره واسماه فكرا وأعمره بالنقـد الاجتماعى والانسانى .. وستجد قوالبه لم تكن على مستوى مضامينه العظيمة الراقية .

ولكن لعبد الرحيم من القصائد ما يتوازن فيها اللفظ والمعنى ويتناسب فيها القالب والمضمون مثل : رثاء جمال — حجر فى كثبان رمل . وقصـيدته (موت البطـل) فى رثاء عبد الرحيم الحاج محمد وهى من أروع القصـائد -- لا أقول فى الشعر الفلسطينى — ولكن أقول فى الشعر العربى كله . ومع ذلك يبقى الحكم صادقا لا ينقضه هـذا القليل : شاعر موهوب هـو ... قادر الموهبة بلا شك ، ولكن لغته أضيق من مداه ، وأداءه اقـل مستوى من فكره ، وتقليده يرجح تجـديده . ثم أين مكانه فى الرقعة الأدبيـة الفلسـطينية ؟

— هـو شاعر من أهم شعراء فلسطين فى الربع الثانى من القرن العشرين .

— وهـو شاعر المقاومة الأول فى العقد الخامس من هـذا القرن . وهـو شاعرها الثانى فى حياة أستاذه ابراهيم طوقان . ولكنه — كما يقـول عمر فروخ — فوق جميع الذين قالوا لأنه كان من المناضلين المجاهدين ، وقـد سـقط شـهيدا .

— وهـو فى الصنعة الفنية يأتى فى المرتبة الثانية بعـد شاعرى فلسطين ابراهيم طوقان وابى سلمى عبد الكريم الكرمى .

* * *

واخيرا : هل بقى ما يمكن أن يقال عن هـذا الشاعر الشهيد ؟

انه سؤال يقودنا الى عـــدد من الأسئلة طرحنا بعضها من قبـــل ، ونعـــود فنسأل : اين « عراقيات » الشاعر ؟ أيعقل ان يعيش فى العراق قرابة ثلاث سنوات عامرة بالترقب والعمل والاستعداد والتفاعل مع شعراء العراق والاشتراك فى ثورة الكيلانى ولا نقرأ له فى ذلك الا ابياتا قليـــلة فى « تمور البصرة » و « رثاء الملك غازى » ؟

ثم : هـــذا العاشق للأرض والوطن والأهل والشعب أيعقل ألا يكون لـــه فى أثناء سنوات ثلاث الا قصيدتان فى الحنين الى ارض الوطن وعبيره ومرابعـــــه ؟

ثم أين « المعلم العظيم » والصـــديق الحميم فى شعره ؟ ... نعم اين فى شعره طوقان حيا ؟ واين فى شعره طوقان مريضا نفسا تساقط أنفسا ، وتذوى كما يذوى القضيب من الرند ؟ واين فى شعره طوقان ذكرى عاطره بعـــد أن غيبته اطباق الثرى ؟ الم يلهمه أستاذه وحبيبه وصـــديقه قصيدة واحـــدة : تحية أو رثاء ووفاء ؟

ثم أين اوراقه الخاصة ؟ أين رسائله الى طوقان — بصفة خاصة ؟ لقد قرأنا واحـــدة فرايناها أدبا رفيعا تعبيرا وتصويرا وترسلا . امن المعقول أن تكون هى الرسالة اليتيمة فى حياته ؟ ..

ثم أين مذكراته التى أشار اليها بعض الكتاب وذكر أنها تتدفق بروح النقـــد والنقمة على قادة ورؤساء لم يرض عنهم ؟

* * *

كل اولئك صفحات سقطت سهوا أو عمدا من كتاب حياته ، أو غابت فى غيبة البحث الدقيق والتنقيب الشاق . وظهورها ولا شك يفتح البـــاب لدراسة ... بل دراسات اوفى واعمق بكثير مما كتبت انا ومما كتبه غيرى من قبلى عن الشاعر .

لقــد ذكر الأستاذ وليد جرار فى كتــابه عن طــوقان وعبد الرحيم « شاعران من جبل النار » أنه اعــد للطبع الديوان الكامل لعبد الرحيم محمود . وأنا على يقين أن شعره سيكون أضعاف ما نشر له فى الطبعات السابقة ، ودليلى على ذلك — وأنا لم ار هــذا الديوان المخطوط الذى يعده وليد للطبع — أن ما تمثل به وساقه شواهد من مخطوطه أكثر فى كمه ممــا نشره نافع عبد الله فى الطبعة الثالثة من الديوان . لأنه ليس من المعقول أن يستشهد الدارس بكل ما عنده من شعر الشاعر . كما انه كان يستعمل حين الاستشهاد حرف الجر « من » الدال على التبعيض . ولكن هل توصل الدارس الى مذكرات عبد الرحيم ورسائله وانها ستكون ضمن ما ينشر ؟ هــذا ما لم يذكره صاحب « شاعران من جبل النار » .

ونعود الى السؤال الذى طرحناه آنفــا : هــل بقى ما يمكن ان يقال عن شاعرنا الشهيد ؟ نعم .. نعم يمكن ان يقال الكثير والكثير اذا ما ظهر الى حيز الوجود من أعماله كل أو بعض ما اشرت اليه فى شكل تساؤلات ... بل يمكن أن يقلب هــذا الجــديد موازين الأحكام التى رصــدتها ورصــدها غيرى فى دراساتهم ... وهــذه هى طبيعة البحث العلمى .. تقال فيــه كلمات ، وتصــدر فيه احكام ... أما الكلمة النهائية فتبقى معلقة الى أن يرث الله الأرض ومن عليها . والحمد لله فى الأول والآخر .

د. جابر قميحة



المراجـــع

اولا : المراجع العربية

١ ــ **آراء فى الآداب والفنون ــ عباس العقاد**

الهيئة العامة للكتاب ــ القاهرة (د.ت) .

٢ ــ **ابراهيم طوقان فى وطنياته ووجــدانياته ــ البدوى الملثم (يعقوب العودات)** ط ١ . المكتبة الأهلية . بيروت ١٩٦٤ .

٣ ــ **أبو نواس : الحسن ابن هانى (دراسة فى التحليل النفسانى والنقــد التاريخى) ــ عباس العقاد** . مكتبة الانجلو . القاهرة . (د.ت) .

٤ ــ **الاتجاهات الأدبية فى فلسطين والاردن ــ د. ناصر الدين الأســـد**
ط ١ معهد الدراسات العربية العالية . القاهرة . ١٩٥٧ .

٥ ــ **الاتجاهات الفنية فى الشعر الفلسطينى المعاصر ــ د. كامل السوافيرى**
مكتبة الانجلو المصرية . القاهرة . ١٩٧٣ .

٦ ــ **الاتجاه القومى فى الشعر المعاصر ــ عمر دقاق**
معهد الدراسات العربية العالية . القاهرة . ١٩٦١ .

٧ ــ **أحــداث النكبــة ــ محمد نمر الخطيب**
ط ٢ . مكتبة الحياة . بيروت . ١٩٦٧ .

٨ ــ **أخى ابراهيم ــ فدوى طوقان (دراسة بقلمها صدر بها ديوان ابراهيم طــــوقان)**

مكتبة المحتسب . عمــان . ١٩٨٤ .

٩ ــ **الأدب العربى المعاصر فى فلسطين (١٨٦٠ ــ ١٩٦٠) ــ د. كامل السوافيرى**
دار المعارف . القاهرة . ١٩٧٩ .

١٠ — **الأدب فى ظـــل القومية العربية — د. محمد محمد حسين**
ط ٢ . بيروت . ١٩٦٩ .

١١ — **اضواء على الأدب العربى المعاصر — انور الجندى**
دار الكاتب العربى . القاهرة . ١٩٦٩ .

١٢ — **الأعــــلام — الزركلى : خير الدين**
ط ٤ . دار العلم للملايين . بيروت . ١٩٧٩ .

١٣ — **الأيديولوجية الصهيونية (دراسة حـــــالة فى علم اجتماع المعرفة)**
القسم الأول . د. عبد الوهاب المسيرى
الكويت . ١٩٨٢ .

١٤ — **بشار بن برد : شعره واخباره — احمد حسين القرنى**
مطبعة الشباب . القاهرة . (د.ت) .

١٥ — **تاريخ العراق السياسى الحــــديث — السيد عبد الرازق الحسنى**
مطبعة العرفان . صيدا . لبنان . ١٣٦٧ — ١٩٤٨ .

١٦ — **تقـــديم احمد أمين لديوان الشاعر حافظ ابراهيم .**

١٧ — **تقـــديم أحمد طوقان لديوان أخيه الشاعر ابراهيم طوقان .**

١٨ — **تقـــديم ناجى علوش لديوان عبد الرحيم محمود**
(فى طبعته الثانية ١٩٧٤) .

١٩ — **جبل النار (ديوان شعر) — برهان الدين العبوشى**
الشركة الاسلامية للطباعة والنشر . بغـــداد . ١٩٥٦ .

٢٠ — **جميل بثينة — عباس العقاد**
دار الشعب . القاهرة . (د.ت) .

٢١ — **حافظ ابراهيم شاعر النيل — د. عبد الحميد الجندى**
ط ٣ . دار المعارف . القاهرة . ١٩٨١ .

٢٢ — **الحصاد المر (فلسطين بين عامى ١٩١٤ و ١٩٧٩) سامى هداوى . ترجمة د. فخرى حسين يغمور**
ط ١ . مطبعة التوفيق — عمان — الاردن . ١٩٨٢ .

٢٣ — **الحنين الى الأوطان — الجاحظ : أبو عثمان بن بحر . تحقيق الشيخ طاهر الجزائرى**
ط ٢ المطبعة السلفية . القاهرة . ١٣٥١ هـ .

٢٤ — **الحنين والغربة فى الشعر العربى الحــديث — د. ماهر حسن فهمى**
معهد الدراسات العربية . القاهرة . ١٩٧٠ .

٢٥ — **حيــاة الأدب الفلسطينى الحــديث من اول النهضـــة حتى النكبــة د. عبد الرحمن ياغى**
المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت . ١٩٨ .

٢٦ — **دائرة المعارف الاسلامية — جماعة من المستشرقين**
دار الشعب . القاهرة . (د.ت) .

٢٧ — **دراسات ونماذج فى مذاهب الشعر ونقــده — د. محمد غنيمى هلال**
دار نهضة مصر . القاهرة . (د.ت) .

٢٨ — **الدين والأخلاق فى شعر شوقى — على النجدى ناصف**
ط ٢ . مكتبة نهضة مصر . القاهرة . ١٩٦٤ .

٢٩ — **ديوان ابراهيم طوقان — ابراهيم طوقان**
ط ١ . مكتبة المحتسب . عمان . ١٩٨٤ .

٣٠ — **ديوان ابراهيم ناجى (الأعمال الكاملة) — ابراهيم ناجى**
دار العودة . بيروت . (د.ت) .

٣١ — **ديوان ابن الرومى — ابن الرومى : أبو الحسن على بن العباس بن جريج . تحقيق د. حسين نصار**
مطبعة دار الكتب . القاهرة . ١٩٧٣ .

٣٢ ــ **ديوان أبى سلمى (الأعمال الكاملة) ــ ابو سلمى . عبد الكريم الكرمى**
ط ١ . دار العودة . بيروت . ١٩٧٨ .

٣٣ ــ **ديوان ابى فراس الحمدانى : أبو فراس : الحارث بن أبى العــــلاء سعيد بن حمدان ــ تحقيق سامى الدهان**
المطبعة الكاثوليكية . بيروت . ١٩٤٥ .

٣٤ ــ **ديوان ايليا أبى ماضى (الأعمال الكاملة) ايليا أبو ماضى**
دار العودة . بيروت . (د.ت) .

٣٥ ــ **ديوان بشار بن برد ــ بشار بن برد**
شرح وتحقيق محمد الطاهر بن عاشور . لجنة التاليف والترجمــة والنشر . القاهرة . ١٩٥٧ .

٣٦ ــ **ديوان جميل شاعر الحب العــذرى : جميل بنى معمر**
جمع وتحقيق وشرح د. حسين نصار ط ٢ . دار مصر للطباعــة . القاهرة . ١٩٦٧ .

٣٧ ــ **ديوان الخليل ــ خليل مطران**
ط ٣ . دار الكتاب العربى . بيروت . لبنا ١٩٦٧ .

٣٨ ــ **ديوان صفى الدين الحلى : ابو المحاسن عبد العزيز بن سرايا بن أبى القاسم التنيسى**
مطبعة خالد . دمشق . ١٢٩٧ هـ .

٣٩ ــ **ديوان عبد الرحيم محمود ــ عبد الرحيم محمود**
جمع اللجنة الثلاثية . عمان . ١٩٥٨ .

٤٠ ــ **ديوان عبد الرحيم محمود ــ عبد الرحيم محمود**
جمــع القصائد وصــدره بدراسة عن الشاعر وشــعره . د. كامل السوافيرى . دار العودة . بيروت . ١٩٧٤ .

٤١ ــ **ديوان عمر أبى ريشة ــ عمر أبو ريشة**
ط ١ . دار العودة . بيروت . ١٩٧١ .

٤٢ ـ **الديوان فى الأدب والنقد ـ عباس محمود العقاد وابراهيم المـازنى**
ط ٣ . دار الشعب . القاهرة . (د.ت) .

٤٣ ـ **الرومانتيكية ـ د. محمد غنيمى هلال**
مكتبة نهضة مصر . القاهرة . (د.ت) .

٤٤ ـ **رياح عز الدين القسام (ديوان شعر) محمد القيسى**
ط ١ . بغـداد . ١٩٧٤ .

٤٥ ـ **السرقات الأدبية ـ د. بدوى طبانة**
مطبعة الرسالة . القاهرة . (د.ت)

٤٦ ـ **سليمان البستانى فى مقـدمة الالياذة ـ جورج غريب**
دار الثقافة . بيروت . (د.ت) .

٤٧ ـ **سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين فى النصف الأول من القرن العشرين ـ د. حسن صبرى الخولى**
دار المعارف . القاهرة . ١٩٧٣ .

٤٨ ـ **شاعر الغزل عمر بن ابى ربيعة ـ عباس العقاد .**
ط ٥ . دار المعارف . القاهرة . ١٩٦٥ .

٤٩ ـ **شاعران معاصران (ابراهيم طوقان وأبو القاسم الشابى) : عمر فـروخ**
ط ١ . المكتبة العلمية . بيروت . ١٩٥٤ .

٥٠ ـ **شاعران من جبل النار : (ابراهيم طوقان ـ عبد الرحيم محمود) وليـد سـعيد جرار**
ط ١ . شركة الشرق الأوسط للطباعة . عمان . ١٩٨٥ .

٥١ ـ **الشاعر عبد الرحيم محمود : نافع عبد الله**
ط ١ . مطابع صوت الخليج . الشارقة . ١٩٧٩ .

٥٢ — **الشاعر عبد الرحيم محمود . بطل معركة الشجرة — رشيد جـــبر الأســــــعد**
مطبعة العانى . بغـــداد . ١٤٠٥ — ١٩٨٥ .

٥٣ — **شرح القصائد العشر : التبريزى : أبو زكريا يحيى بن على**
ادارة الطباعة المنيرية . القاهرة . ١٣٦٩ .

٥٤ — **شرح المعلقات السبع — الزوزنى : أبو عبد الله الحسين بن أحمــد ابن الحسين**
دار نشر الكتب الاسلامية . لاهور . باكستان . (د.ت) .

٥٥ — **شرح ديوان المتنبى — عبد الرحيم البرقوقى**
دار الكتاب العربى . بيروت . (د.ت) .

٥٦ — **شروح سقط الزند لأبى العلاء المعرى (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب : ١٣٦٦ — ١٩٤٧) . باشراف طه حسين وآخرين .**
الدار القومية للطباعة والنشر . القاهرة .

٥٧ — **الشعر العربى الحـــديث فى ماســــــاة فلسطين من سنة ١٩١٧ الى سنة ١٩٥٥ — كامل السوافيرى**
ط ١ . مكتبة نهضة مصر . القاهرة . ١٩٦٤ .

٥٨ — **الشعر الفلسطينى الحـــديث (١٩٤٨ — ١٩٧٠) خالد على مصطفى**
دار الحرية للطباعة . بغـــداد . ١٩٧٨ .

٥٩ — **الشعر الفلسطينى فى نكبة فلسطين — د. عبد الرحمن الكيالى**
المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت . ١٩٧٥ .

٦٠ — **الشعر فى اطار العصر الثورى — د. عز الدين اسماعيل**
الدار المصرية للتأليف والترجمة . القاهرة . ١٩٦٦ .

٦١ — **الشعر والشعراء — ابن قتيبه — تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر**
ط ٣ . دار الشعب . القاهرة . ١٩٧٧ .

٦٢ — **شوقى : شعره الاسلامى — د. ماهر حسن فهمى**
ط ٢ . دار المعارف . القاهرة .

٦٣ — **الشوقيات — احمد شوقى**
دار الكتاب العربى . بيروت . (د.ت) .

٦٤ — **صــــحيح مسلم — الامام مسلم بن الحجــاج بن مسلم القشـــيرى النيسابورى بشرح النووى**
دار الشعب . القاهرة . (د.ت) .

٦٥ — **الصهيونية بداية ونهاية — أبو مازن (عضو اللجنة المركزية لحركة التحرير الفلسطينى . فتح)**
(بدون تاريخ وبلد الطبع) .

٦٦ — **الصورة الشعرية — سى — دى لويس . ترجمة : د. احمد نصـــيف الجنـــابى وآخرين**
بغــداد . ١٩٨٢ .

٦٧ — **الصورة والبناء الشعرى — د. محمد حسن عبد الله**
دار المعارف . القاهرة . ١٩٨١ .

٦٨ — **العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقــده — ابن رشيق القيروانى : أبو على الحسن بن رشيق القيروانى الأزدى . تحقيق محمـــــــد محيى الدين عبد الحميد**
ط ٤ . دار الجيل . بيروت . ١٩٧٢ .

٦٩ — **عيار الشعر — محمد احمد بن طباطبا العلوى**
ط ١ . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ١٩٨٢ .

٧٠ — **الغوانى فى شعر ابراهيم طوقان : البدوى الملثم (يعقوب العودات)**
دار ريحانى للطباعة والنشر . بيروت . ١٩٥٧ .

٧١ — **فى اللغة والأدب — د. ابراهيم بيومى مدكور**
دار المعارف . القاهرة . ١٩٧١ .

٧٢ — **القاموس السياسى — احمد عطية الله**
ط ٤ . دار النهضة العربية . القاهرة . ١٩٨٠ .

٧٣ ــ **القــدس ــ احمد عباس**
مطابع شركة الاعلانات الشرقية . القاهرة . (د.ت) .

٧٤ ــ **قضايا معاصرة فى الأدب والنقــد ــ د. محمد غنيمى هلال**
دار نهضة مصر للطبع والنشر . القاهرة . د.ت .

٧٥ ــ **الكلمة المقاتلة فى فلسطين ــ هارون هاشم رشيد**
الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٣٩٣ ــ ١٩٧٣ .

٧٦ ــ **ما الأدب : سارتر (جان بول) ترجمة د. محمد غنيمى هلال**
مكتبة الانجلو . القاهرة . ١٩٦١ .

٧٧ ــ **مجمع الأمثال : الميدانى : ابو الفضل احمد بن محمد النيسابورى**
مكتبة عبد الرحمن محمد . القاهرة . ١٣٥٢ هـ .

٧٨ ــ **محاضرات عن شعر الحماسة والعروبة فى بلاد الشام ــ د. امجــد الطرابلسى .**
معهد الدراسات العربية . القاهرة . ١٩٥٦ .

٧٩ ــ **محاضرات فى الشعر الحــديث فى فلسطين والاردن ــ د. ناصر الدين الأســـد**
معهد الدراسات العربية . ١٩٦٠ .

٨٠ ــ **مشاريع الاستيطان اليهودى ــ د. أمين عبد الله محمود**
الكويت . ١٩٨٤ .

٨١ ــ **مصر وفلسطين ــ د. عواطف عبد الرحمن**
الكويت . ١٩٨٠ .

٨٢ ــ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ــ محمد فؤاد عبد الباقى**
مطابع دار الشعب . القاهرة . ١٣٧٨ .

٨٣ ــ **مقــدمة فى دراسة العراق المعاصر ــ د. زكى صالح**
مطبعة الرابطة . بغــداد . ١٩٥٣ .

٨٤ — **مناهج الدراسة الأدبية فى الأدب العربى — شكرى فيصل**
مكتبة الخانجى . القاهرة . ١٩٥٣ .

٨٥ — **منهج العقاد فى التراجم الأدبية — د. جابر قميحة**
مكتبة النهضة المصرية . القاهرة . ١٩٨٠ .

٨٦ — **موسيقى الشعر — د. ابراهيم أنيس**
مكتبة الانجلو المصرية . القاهرة . ١٩٨١ .

٨٧ — **الموشح (مآخذ العلماء على الشعراء فى عدة أنواع من صناعة الشعر) . المرزبانى : أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى — تحقيق على محمد البجاوى**
دار نهضة مصر . القاهرة . ١٩٦٥ .

٨٨ — **النقد الأدبى : أصوله ومناهجه — سيد قطب**
دار الفكر العربى . القاهرة . (د.ت) .

٨٩ — **النقد الأدبى الحديث — د. محمد غنيمى هلال**
دار نهضة مصر للطبع والنشر . القاهرة . ١٩٧٣ .

٩٠ — **النكبة (الجزء الثالث) عارف العارف**
صيدا . لبنان . ١٩٥٦ .

٩١ — **الوثائق الرسمية فى قضية فلسطين**
اصدار الجامعة العربية بالقاهرة . ١٩٥٧ .

ثانيا : مراجـــع بالانجليزية

1. On Poetry and Poets. T. S. Eliot London 1959.

2. The Palestine Diary (Volume Two, 1945-1948). Robert John — Sami Hadawi.

   (Published by Palestine Research Center, Beirut, Lebanon, 1970) .

3. Zionism and Arabism in Palestine and Israel. Elie Kedourie and Sylvia G. Haim. London 1982.

4. Zionism, Imperialism and Racism. A.W. Kayyali. London 1979.

ثالثا : الدوريات

١ ـــ الدوحـــة (القطرية) .

٢ ـــ الرائد (الكويتية) .

٣ ـــ شئون فلسطينية تصـــدر عن مركز الأبحـــاث فى منظمة التحرير الفلســـطينية) .

٤ ـــ الشـــعر (المصرية) .

٥ ـــ فلسطين الثورة (المجلة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية) .

٦ ـــ العـــالم (تصور فى لنـــدن بالعربية) .

٧ ـــ المســـلمون (المصرية) .

الفهرس

وخلافات الزعماء • الكفاح المسلح العفوى . حكومة الانتداب تعدم المناضلين الفلسطينيين . ابراهيم طوقان والثلاثاء الحمراء . **الشعر وملحمة الشـــهادة والشهداء** • ثورة فلسطين الكبرى سنة ١٩٣٦ . عز الدين القسام رائد حركة المقـــاومة الفلسطينية المنظمة . بداية سرية بتكوينه « اليـــد السوداء » سنة ١٩٣٠ . ارتكاز نضاله على أساس دينى . اتجاه عملى لا شعارى . اتجاهه الى أصحاب الولاء الحقيقى . استشهاد القسام . **القسام فى الشعر الفلسطينى والعربى** • الخـــديعة الكبرى : ملوك العرب وتوقف الثـــورة الفلسطينية سنة ١٩٣٩ الحرب العالمية الثانية وتنديد الشـــعر الفلسطينى بالانجليز والحلفاء . الشعر واحتفاؤه بالجامعة العربية . الشعر الفلسطينى ينـــدد بقرار التقسيم سنة ١٩٤٧ . الشعر الفلسطينى عاش القضية الفلسطينية ... قضية العصر وتفاعل معها .

الفصـــل الثانى

مسيرة الحياة وأبعاد الشخصية

(٥٩ ــ ١٠٤)

أيام الدراسة • فى عنبتا . فى طولكرم . فى كلية النجـــاح بنابلس . اللقاء الأول بابراهيم طوقان . براعم شعرية يشجعها طوقان .

فى الشرطة : كيف يقبل العمل تابعا لحكومة الانتداب فى جهـــاز لقهر الشعب ؟ احتمال أدائه مهمة وطنية سرية . تركه الوظيفة بدافع وطنى .

المعلم : سبيل أستاذه ابراهيم طـــوقان . التعليم وســـيلة لغرس المبادىء والقيم الوطنية .

القسام والثورة : اعتزاز الشعب بالقسام . ايمان عبد الرحيم قـــولا وعملا بالقسام ومنهجه فى الجهاد . شعره فى هـــذا المجال . عبد الرحيم يجاهـــد تحت لـــواء عبد الرحيم الحاج محمـــد . استشهاد القـــائد ورثاء عبد الرحيم فيه .

فى العـــراق : استكمال ثقافته العسكرية . معلم فى العراق . اشتراكه فى ثورة رشيد عالى الكيلانى . تفاعله مع النشاط الأدبى والشعرى هناك . مع الرصافى والزهاوى والجواهرى . حنينه الى الوطن فى قصيدتين . اين العراق فى شعر عبد الرحيم ؟

عـــودة الى فلسطين : معلم فى كلية النجاح من جـــديد . اعمر سنوات عمره بالشعر . تغنيه بالشهادة وتغزله فى الموت . شهيد معركة الشجرة ســـنة ١٩٤٨ .

الشعر والخبر . اهمية الشعر فى رسم ملامح الشخصية . لا غناء عن الأخبار والوقائع لتعرف الشخصية .

الشاعر المؤمن : الأتقياء فى حياته : عز الدين القسام . عبد الرحيم الحاج محمد . الشيخ محمود حنون . تفنيد ما قال به بعضهم من هروب الشاعر الى الخمر .

مفهوم الوطـــن فى نظره : الوطـــن ارض وتراث . ربط النضـــال بأيديولوجية اجنبية وخطورته . نبل الرسالة العربية وانسانيتها .

اللغة العربية واعتزازه بها .

ميدان القتال وساحة العلم . المدرسة معهد اعداد وتفريخ للمجاهدين .

الثائر المتمرد : دعوته للجهاد . حملته على القادة والزعماء الجوف . حملته على المستغلين . مقاومة الظلم همه ورسالته . المجتمع قـــد يكون مسئولا عن جرائم الأفراد . حياة بلا وسطية .

غربة نفسية : شعوره الحاد بالغربة الروحية فى مجتمع الاهتراء . الشعور بهـــذه الغربة ليس انسحابا انعزاليا .

منهج فى النقـــد : النقـــد المباشر والحملة الصريحة على الفســـــاد ومظاهره . اسلوب التعريض والنقـــد غير المباشر . قيمة هـــذا المنهج .

الحب فى حياته : الحب لم يستغرق حياته ، ولم يتعمق وجـــدانه . سمة الثائر الرافض فى غزلياته .

تمرد موروث .. طبيعة ابيه الشيخ محمود تعتمد على القوة والشدة وعمق المواجهة . انعكاس ذلك على طبيعة عبد الرحيم .

ثقافته وأبعادها : الثقافة العربية هى مصدره الاســاسى : قــديمها وحـــديثها . معرفته بالانجليزية ذات مدى محــدود . هل أفاد الشاعر من التيارات والمذاهب الأدبية الغربية على نطاق واسع ؟ رأينا فى هـــذه المسألة .

الفصــل الثالث

قصة الديوان المظلوم

(١٠٥ ــ ١٣٠)

المحاولات الأولى لجمع ديوانه وطبعه . اخفاق هـــذه المحــاولات ، وأسباب هـــذا الاخفــاق .

الطبعة الأولى من الديوان سنة ١٩٥٨ : جهود اللجنة الثلاثية ومنهجها فى جمع الديوان ، واعتراف اللجنة بأن ما جمعته هـــو بعض شعر الشاعر لا كــله .

عيوب ومآخــذ على عمل اللجنة : اغفال ضم بعض الشعر بحجــة ضعفه عمل غير علمى . عمل اللجنة تجميع لا تقييم . جناية هـــذا المنهج على دارسى الشاعر وشعره . اختلاف الأذواق فى تقييم الأثر الأدبى . اغفال اللجنة ذكر مصادر الشعر وتاريخ نشره . خطورة هـــذا الاغفال . المختار من شعر الشاعر لا ديوان الشاعر .

الطبعة الثانية ١٩٧٤ . ضآلة الفارق بين الطبعتين . نفس عيــوب الطبعة السابقة . لامكان « لعراقيات » الشاعر فى هذه الطبعة أيضا . أخطاء فى مادة الدراســة .

الطبعة الثالثة : ١٩٧٩ . شعر عبد الرحيم يمثل قرابة ضعفى شعره فى الطبعة الثانية . الديوان تفادى كثيرا من عيوب الطبعتين السابقتين . قصائد جـــديدة فى الاجتماعيات والاسلاميات . قيمة الدراسة التى صـــدر بها الديوان . نشر نثر للشاعر لأول مرة فى دراسة كاملة .

الديوان المخطوط ١٩٨٥ — الاعلان عن الديوان فى دراسة « شاعران من جبل النار » غزارة الشعر الذى تمثل به الدارس . قصائد جـديدة لم تنشر من قبل فى الطبعات السابقة .

الفصـــل الرابع

الآفاق والمجالات الشعرية

(١٣١ — ١٨٩)

الشعر الفلسطينى والمناخ الفنى : الربع الثانى من القرن العشرين فى مجال السياسة والأدب . تفاعل الشعر الفلسطينى مع الأحـداث آنذاك . المناخ الأدبى فى البلاد العربية وهثاره فى الشعر الفلسطينى . ظهور ابراهيم طوقان اهم الأحـداث الأدبية . مكان الرومانسية فى الشعر الفلسطينى . أبو سلمى وقصيدة « الغزل الوطنى » . أبو سلمى والربط بين الكفـاح الفلسطينى وحركات النضال العالمية . الخط الكلاسيكى والخط الرومانسى ونصيب كل منهما فى الشعر الفلسطينى .

الأفق الوطنى والقومى : قيمة هـذا الغرض ومكانه فى شـعر عبد الرحيم . اهم موضوعاته ومحاوره . اجترار بعض مفاخر المـاضى العربى والتذكير بأمجـاده . التنبؤ بالنكبة وتصوير مقـدماتها . حـث الشعب على الجهاد والكفاح المسلح . تمجيد البطولة والأبطال . الحنين الى الوطن . مسئولية الاهـدار والضياع .

الأفق الاسلامى : اثر البيئة الأسرية والتربية . اهتمامه بابراز القيم الانسانية والاسـلامية فى هـذا الشـعر . الربط بين المـاضى العربى والاسلامى فى عظمته وبين الحاضر المر المتخلف . الدعوة الى التمسك بقيم الاسـلام لتحقيق النصر .

الأفق الانسانى : مفهوم القيم الانسانية سلبا وايجابا او قيم التحلى وقيم التخلى . عبد الرحيم لم يرتبط فى انسانياته بأيديولوجية معينة . انتصاره للشعوب المظلومة وحملته على الظلم والظالمين . فى مجتمع الظلم

والاستبداد والاستغلال تنمو الجريمة. رثاء حمال والتنديد بالظلم الاجتماعى. دعـوة للعـدل والانصاف . ابو العلاء المعرى والمجتمعات الساقطة . النفاق والمظهرية الكاذبة . دعوته الى التفاؤل والتبسم للحياة .

الأفق الاجتماعى : حياة جادة مشحونة بالنضال . أمل الخلاص معقود بالشباب الجاد الطامح الصالح المتحمس . اهتمامه بالعمال وقضاياهم فى مطولات شعرية . ثلاثة محاور يدور عليها شعره فى العمال : تصوير جهدهم وجهادهم وأنضالهم على المجتمع . تصوير مظاهر الظلم الواقع عليهم . تحريضهم على التمرد والثورة . الشاعر لم يكن شيوعيا أو اشتراكيا او يساريا فى اتجاهه هـذا . لا مكان لقضايا المرأة فى شعره وتعليل ذلك . ندرة المدح والرثاء فى شعره وتعليل ذلك . شـعره الاجتماعى ينتصر للقيم الانسانية مع أنه نظم فى مناسبات معينة .

أفق الغزل والمرأة : شعره الباكر فى غزل لاه سنة ١٩٣٠ . حبه لسلمى لم يكن هـو الحب العميق الشاغل . غلبة التقليدية والخشونة على أغلب شعره فى الغزل . الشاعر لم ينظم فى « الغزل الوطنى » أى لم يربط بين الغزل والأرض .

الفصـل الخامس

السمات والملامح الفنية
(١٩١ ـ ٢٥٦)

وقفة مع نثر الشاعر : رسالة الى ابراهيم طوقان . الرسالة تعكس طبيعة العلاقة بينهما . الرسالة قطعة فنية من الأدب الرفيع فكرا وتصويرا وتعـبيرا .

مقالة نقـدية يتصـدى بها لمن هاجم شعر ابراهيم طوقان . المقالة تثير عـددا من القضايا النقـدية . غلبة الحماسة والخطابية عليها .

مرحلتان متميزتان فى حياته الأدبية . أساس تقسيم حياة الأديب الى مراحل . التقسيم لا يعنى الانفصال . تدرج الانتقال من مرحلة الى مرحلة . تعرج المستوى واختلافه أحيانا داخل المرحلة الواحـدة .

المرحلة الأولى فى حياة عبد الرحيم قبل سنة ١٩٣٩ . شـــعر وطنى وشعر وجـــدانى . انحصار محلى بلا رؤية اجتماعية او سياسية . قصر نفسه فى اغلب القصائد . الخطابية وحـــدة العاطفـــة . كثرة التـــدوير . الطـــوابع التقليدية .

المرحلة الثانية : سنة ١٩٣٩ وما بعـــدها . عام فاصـــل فى حيـــاة فلسطين ومسيرة الشاعر . اتساع دائرته الشعرية موضوعيا : شـــعر الحنين — شعر القومية العربية — الانصراف عن الغزليات . نمـــو معجمه اللغوى . طول النفس . بصمات وطوابع تجـــديدية .

بصمات التأثر والتقليد : القرآن الكريم . الأدب القـــديم . الشعر الحـــديث .

الصورة الشعرية : مفهوم الصورة الشـــعرية . خصائص الصورة الآسرة . أبعاد الصورة الشعرية عند عبد الرحيم وأهم ملامحها : خيـــال عفـــوى — خيال تقليدى . دائرة المحسوسات . التجسيم والتشخيص . المزج بين النفس والطبيعة . المفارقة التصويرية . التصوير القصصى .

اللغة والأداء التعبيرى : الكلمة فى الشعر تؤدى مهمتهما الايحـــائية زيادة على مهمتها الوضعية . تفاوت صارخ فى شعر عبد الرحيم وأســـبابه . حرصه على اللفظ العربى الأصيل . مراعاة جرس الكلمة فى السياق . الاكثار من الأساليب الانشائية وخصوصا الطلبية . الاكثار من أساليب التضاد . الحـــوار فى شـــعره .

مآخـــذ على لغة الشاعر : الضعف والتهافت والابتذال . أخطاء لغوية ونحـــــوية .

موسيقى الشعر : الأوزان والقوافى فى نظر القـــدماء . عناصر أخرى فى العمل الشعرى . هل هناك علاقة بين طبيعة البحر وطبيعة الغرض الشعرى ؟ نقض هـــذه المقولة . قيمة القافية فى الشعر . هـــل هناك علاقة بين طبيعة حرف الروى وطبيعة الغرض الشعرى ؟ . نقض هـــذه المقولة . حرص عبد الرحيم على الشكل التقليدى للقصيدة — تجـــديده الشكلى فى نطاق المقطوعة — استخدامه قافية الألف اللينة فى قصيدتين . مراعاته الجهارة

والهمس احيانا تبعا للغرض والفكرة . غلبة الجهارة والنبرة العالية على شعره ، وتعليل ذلك . نقـــد ذاتى : اعترافه بضعفه أمام القوافى وتعصيها عليـــه .

عيوب تتعلق بالقافية فى شعره : كلمات مجلوبة للقافية . الاقواء . السنـــاد .

الفصـــل السادس

بين الشاعرين عبد الرحيم وابراهيم طوقان
(٢٥٧ — ٢٩٣)

وجـــوه شبه والتقاء : بيئة البيت وطبيعة التربية . الشاعران وقضية العصر . الزعماء الجـــوف ومسئولية الضياع . البطولة والأبطال . العربية الفصـــحى .

ملامح الاختلاف : الاستعداد الجسدى . الثقافة : مصادرها ومداها . الخيال والرومانسية . الأغراض والآفاق الشعرية . الحنين الى الوطن . المرأة والغزل . طبيعة المحبوبة . روح الميدان والقتـــــال . القصص الرمزى . الأناشيد . الأسلوب والشكل الفنى . تفاوت المستوى الفنى .

الخاتمـــــة
(٢٩٥ — ٢٩٩)

عبد الرحيم الانسان • ايمان ورجولة وبطولة مقـــاتلة . ايمانه بأن الشعر رسالة . الايمان بهـــذه الرسالة نابع من واقعه النفسى .

عبد الرحيم الفنان • فكره أجـــل من أسلوبه ومضمونه ارقى من ادائه . شاعر المقاومة الأول .

هل بقى ما يقال عن الشاعر ؟ • صفحات ساقطة من فنه وغائبة من حياته . شعر جـــديد لعبد الرحيم فى ديوان يزمع طبعه . الكلمة النهـــائية وطبيعة البحث العلمى .

المراجـــع
(٣٠١ — ٣١٠)

كتب للمؤلف

١ — **منهج العقاد فى التراجم الأدبية**
دار النهضة المصرية . القاهرة .

٢ — **المدخل الى القيم الاسلامية**
دار الكتاب المصرى — اللبنانى . القاهرة . بيروت .

٣ — **أدب الخلفـــاء الراشـــدين**
دار الكتاب المصرى — اللبنانى . القاهرة . بيروت .

٤ — **فى صـــحبة المصطفى**
دار الكتاب المصرى — اللبنانى . القاهرة . بيروت .

٥ — **التقليدية والدرامية فى مقامات الحريرى**
توزيع دار المعارف . القاهرة .

٦ — **أدب الرسائل فى صـــدر الاسلام**
توزيع دار المعارف . القاهرة .

رقم الايداع بدار الكتب القومية
٨٦/٤٥٧٩

طبع على مطابع
شركة دار الاشعاع للطباعة
١٤ ش عبد الحميد ــ جنينة قاميش السيدة زينب ــ القاهرة
تليفون ٣٦٣٠٤٦٩